الإيمان

بعوالم الآخرة ومواقفها

بقلم

عبد الله سراج الدين

الطبعـــة الأولى

١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م

الطبعـــة الثانية

معـــدلة منقحـــة

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

طبع في مطبعة الأصيل - بحلب

العدد - ٥٠٠٠ نسخة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، وأفضل
الصلاة وأكمل التسليم ، على سيدنا
محمدٍ سيد الأولين والآخرين ، وعلى
سائر إخوانه من النبيين والمرسلين ،
وآله وصحبه أجمعين .

اللهمّ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، وبعدُ :
فهذه نماذج مختصرة وفصول مقتصرة ، ترسم في صفحات قلب القارىء الكريم
صُوَراً علمية من صُوَر عوالم الآخرة وبرازخها ومواقفها ، وتعرضها عليه
عرضاً متناسقاً متسلسلا ، تتجلى في ذلك حقائق الايمان باليوم الآخر الذي
هو أحد أركان العقائد الايمانية ، المذكورة في جميع الكتب الالهية السماوية .

وإن كثيراً من شباب المسلمين لا يعلمون من الآخرة غير اسمها ، بل ربما
يرى بعضهم أن البحث فيها أبسط من ذلك،وأنه لاحاجة الى جميع ماهنالك...

فلهذا أردتُ - والله المستعان - أن أريهم قبَساً من أنوار الآيات
القرآنية الحكيمة ، والأحاديث النبوية الكريمة ، عساها تشرق على قلوبهم
فتطرد ظلمة جهلهم بآخرتهم التي سينقلبون اليها مهما طال بهم العُمُر ، وإن
كلّ آتٍ قريب ، وإنما البعيد ما ليس بآت ، وحينذاك ينكشف عنهم الغِطاء ،
ويتحقق اللقاء ، وتذهب الغَفَلات ، وتتوالى عليهم الحَسَرات والويلات ،
رُحماك رُحماك يا ربّ البريّات .

ومن تدبَّر كلام ربّ العالمين سبحانه علم أنه كثير التنبيه ، شديد التحريض على ادّكار الآخرة ، والاستعداد المطلوب لها ؛ فما يمرّ القارىء على طائفة من آيات الله تعالى البينات إلا وفيها تصريح بأمر الآخرة أو تلويح ، كما أن مَن قرأ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم رآها كثيرة التذكير بأمر الآخرة ، عظيمة التحذير من أهوالها ومواقفها ، قوية التنبيه الى السعي لها ، والاستعداد اليها .

لا ريب إذاً أن هذا كله ينبئنا عن خطورة ذلك العالم الأُخروي ، وشدّة هوله ، وعِظم أمره ، ووجوب الاهتمام بشأنه ؛ فجدير بنا كلّ الجدارة أنْ نتحدّث عن اليوم الآخر وبعض أحكامه ، وأطواره وأحواله ، متبعين في ذلك كتاب الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، راجين منه سبحانه وتعالى إخلاصاً في القصد ، وصدقاً في العمل ، وسداداً في القول ، إنه قريب مجيب .

* * *

مقدمة

في أن الآخرة هي حقٌ ثابت لا ريب فيها

قال الله تعالى : « يا أيها الناس إنَّ وَعْد الله حقٌ فلا تَغرنّكم الحياة الدنيا ولايغرنّكم بالله الغرور» . وقال تعالى:«ويستنبئونك أحقٌ هو (أي اليوم الآخر) قل إي وربي انه لحقٌ وما أنتم بمعجزين » .

ان كلّ عاقل اذا أمعن النظر في الآيات القرآنية الكريمة يجدها قد سلكت في اثبات الآخرة والنشر والحشر والحساب وجميع ماهنالك ـ أحسنَ الطرق التي تنير العقول ، وتبصّرها منهـاج الوصول الى اعتقاد ذلك ، والإذعان اليه ، ونحن نقدّم اليك بيان هذا .

اننا اذا تدبرنا الآيات الكريمة التي تبحث عن الآخرة يتضح لنا جلياً أنها تستنهض العقول من غفلاتها ، وتستفزّ الأفكار من مراقدها ، لأجل أن تضطرّها الى اثبات عالم الآخرة ، وان العقل السليم ليأبى أن يقف عند حدّ العالم الدنيا الفاني ، وينكر العالم الآخر الباقي ؛ وقد جاءت الآيات القرآنية في اثبات ذلك على وجوه متعددة :

أولاً : تنبيه القرآن الكريم الى أن النظر في العالم السماويّ والأرضيّ يؤدي الى اثبات الآخرة . قال الله تعالى :

« ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعـلى جنوبهم ،

ويتفكّرون في خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ، ربّنا انك مَنْ تدخل النار فقد آخزيته وما للظالمين من آنصار » .

فقد أنار الله تعالى لأولي الألباب ، وهم الذين عَبَروا حجاب الحِسّ حتى انتهوا الى اللباب ، أنار الله تعالى لهم طرق النظر والتفكر في خلق السموات والأرض ، وما أودع فيهمـا من آيات القـدرة ، وشواهد العلم والحكمة ، فجالت أفكارهم في تلك الآيات السماوية والأرضية ، معتبرين مستبصرين ، فأيقنوا بوجود ربٍّ خالق عليم حكيم ، تجلّت آثار صفاته في مصنوعاته ومُبدَعاته ، وأشرقت أنوار أسمائه سبحانه في مرايا مخلوقاته ، فشاهدَ أولو الألباب تلك الصفات الإلهية مسطورة عـلى صفحات الكائنات العلوية والسفلية ، وقالوا : « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك » وحينئذ التزموا عبادة هذا الإله الربّ العليم الحكيم وفاءً بحق ربوبيته عليهم ، ولازموا ذكره قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ثم انهم تابعوا السير بعقولهم وألبابهم يتجوّلون ويتفكرون في أنحاء الآيات السماوية والأرضية ، وسائر الآيات الآفاقية ، فانتهوا الى نتيجة لهـذا العالم وأيّ نتيجة وما أصحها وما أحكمها وما أصدقها من نتيجة . انها نتيجة مقدّمات عالم الدنيا كله .

وهي أن هذا العالم البديع المحكم ، والمصنوع المتقن ، الذي يسير بنظام واحكام ، فالسماء في ابداع واتقان ، والشمس والقمر بحسبان ، والكواكب في سير وانتظام ، « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صِنوان وغيرُ صِنوان ، يُسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأُكُل ، ان في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون » وفيها الحبّ ذو العصف والريحان ، وفيها الليل والنهار ، والأنهـار والبحار والزروع والأشجـار ، الى ما وراء ذلك من آيات الاعتبار لأولي الابصار .

فأيقنوا أن هذا العالم المحكم المتقن لا يجوز في مقتضيات العقول الصحيحة أن يكون أمره عبثاً ، ولا أن يكون بناؤه باطلا ، ويستحيل عقلا أن يكون ليس وراءه حكمة عليا هي نتيجة لحكمة خلقه ونشأته ، بل لا بدّ وأن هناك نشأة أخرى وراء هذه النشأة ، تتجلى فيها جميع حكم النشأة الأولى ، وتظهر فيها نتائج التكاليف الشرعية ، ويميز الله تعالى فيهـا الخبيث من الطيّب ، والصالح من الطالح ، والمسيء من المحسن ، وينتقم فيها من الظالم للمظلوم ، ومن الباغي للمبغيّ عليه ، ولولا تلك النشأة الآخرة لضاعت حكمة خلق هذا العالم ، ولكان أمره عبثاً باطلا ــ « ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار »ــ •

بل لولا حقّية الآخرة ــ وهي الحاقّة التي تحقّ فيها الحقائق ــ لولا ذلك لضاعت حكمة الشرائع الإلهية الحكيمة القويمة ، لأنه حينئذ يتساوى الحق والباطل ، والعدل والظلم ، والفساد والصلاح ، وهذا أمر باطل محال كإحالة وبطلان تساوي الظلمة والنور ، والعمى والبصر، والجهل والعلم ، والأحياء والأموات •

والى هذا كله نبّه الله سبحانه وتعالى العقلاء فقال : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الاّ بالحقّ ، وان الساعة لآتية ، فاصفح الصفح الجميل » •

وقال تعالى : « وماخلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظنّ الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجّار »؟!!

فالحكمة في الخليقة الكونية والحكمة في الشرائع الإلهية تقضيان أن يكون هناك يوم آخر فيه المسؤولية والجزاء ، ومن ثـَمّ قال أولو الألباب« سبحانك » أي ننزهك عن اللعب والعبَث في خلقك وشرعك، وانما خلقت الخلق بالحقّ والحكمة التي تقتضي الجزاء بالثواب أو

العقاب ، ولا بدّ في ذلك من جنةٍ ونار « فقنا عذاب النار » ثم انهم سألوا الله تعالى الجنة التي وعدهم بها على ألسنة الرسل صلوات الله على نبينا وعليهم أجمعين « ربنا وآتنا ما وعدتنا على رُسُلك ولا تُخزنا يوم القيامة ، انك لا تخلف الميعاد » .

وقد مدح الله تعالى في تلك الآيات الكريمة أولي الألباب الذين جالت أفكارهم في أنحاء العالم السماوي والأرضي وما بينهما ، وبذلك انجلت لهم حقائق الحقّ الذي به خلقت السموات والارض ، وتجلّت لهم حكمة الله تعالى في خلقه بدءاً وانتهاء وحكمة الله تعالى في رسالاته وشرائعـــه .

وقد ذم الله تعالى الغافلين عن التفكر ، ونعى على الذين لا يُعملون أفكارهم فلا يتفكرون ولا يتعقّلون ، فقال سبحانه : « أولم يتفكروا في أنفسهم » الآية .

والمعنى أوَلم يُثبتوا ويُحقّقوا التفكر في أنفسهم ، أي في قلوبهم وضمائرهم النفسية أي فمالهم ــ قبّحهم الله تعالى ــ رضوا أن تكون قلوبهم فارغة من التعقّل ، ونفوسهم خاوية من التفكر ؟! فإن هذه صفة الحيوان البهيمي ، وليست صفة الانسان العاقل فكيف بهم وقد رضوا أن يكونوا في عداد البهائم الهَمَل ، لا تفكير لهم ولا تعقّل في أمر هذا العالم وحكمته ونهايته .

« أولم يتفكّروا في أنفسهم ما خَلَق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحقّ وأجل مسمى ، وان كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون » .

يعني أنهم لو رجعوا الى صوابهم ، وفكروا في ضمائر نفوسهم ، لَعلِموا أن الله تعالى ما خلق السموات والأرض وما بينهما الا بالحق ،

وأنه لم يخلقها باطلا ولا عبثاً بغير حكمة بالغة ، وانما خلقها مقرونة بالحقّ ، مصحوبة بالحكمة ومنتهية للحكمةوان من الحكمة تقدير أجلٍ مسمًّى وهو قيام الساعة ، ووقت الحساب ، والجزاء بالثواب أو العقاب .

« أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق ... » الآية ويحتمل أن يكون المعنى أولم يتفكر هؤلاء الغافلون الهَمل — في أنفسهم التي هي أقرب الخلْق اليهم ، وما أودع الله تعالى في هذه النفس من بدائع الحكمة وحُسن التدبير والصنع ، ومن ثَمّ يتطلعون الى التفكر في الآفاق المحيطة بهم من السموات والأرض وما بينهما ، وبذلك يهتدون الى الحق الذي قامت به السموات والارض ، ويعلمون أنه لا بدّ من الانتهاء الى أجل مسمى وهو القيامة وما احتوت عليه من الجزاء والحساب ...

ثانياً : تنبيه القرآن الكريم الى أن النظر في ابداع الانسان يؤدي الى اثبات الآخرة .

قال تعالى : « والتين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ، ثم رَدَدْناه أسفل سافلين ، الاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ، فما يُكذّبك بعدُ بالدِّين ، أليس الله بأحكم الحاكمين » . بلى وأنا على ذلك من الشاهدين .

أقسمَ سبحانه بأفضل مهابط الشرائع الإلهية المباركة ، ومنازل الوحي بالكلام الإلهي النازل على رسُله صلوات الله عليهم ؛ مهبط نزول الوحي على عيسى عليه الصلاة والسلام ، وانزال الإنجيل عليه ، وهو البقعة المباركة من فلسطين ، وأشار الى ذلك بما ينبت عليها من التين والزيتون المباركَيْن الكثيرين في تلك البقعة .

ثم أقسم بطور سَيناء مهبط نزول التوارة على موسى عليه الصلاة والسلام ، ثم أقسم بالبلد الأمين ، بلد الله الحرام مكة وما حولها مهبط نزول النبوة والرسالة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وترتيب ذكر هذه المواضع هنا جاء على طريق الترقي • فقد أقسم سبحانه بمهابط الوحي ومنازل الكلام الإلهي والتشريعات الالهيَّة على خلق هذا الانسان في أحسن تقويم ثم تعهّده بما يُسعده ويُصلح شأنه في أمر التشريع ، فقال سبحانه : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » أي في أحسن كمال واعتدال في الصورة والمعنى • قال العلامة الراغب : « تقويم الشيء تثقيفه ، قال الله تعالى : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » وذلك اشارة الى ما خُصَّ به الانسان من بين أنواع الحيوان من العقل والفهم وانتصاب القامة الدّالة على استيلائه على كلّ مافي العالم » • اهـ

« ثم رددناه أسفل سافلين » وجيء هنا بثُمَّ ليشير الى ما طُويَ ذكره ، ولكن دلّ عليه فيما بعده ؛ والمعنى خلقنا الانسان في أحسن تقويم ولكن لم نهمله ، ولم نتركه سدى ، بل تعهدناه بالهدى وانزال الشريعة ، وبيان الأحكام التي فيهــا سعادته وصلاحه ، ليحفظ عليه حسن تقويمه وكماله الإنساني ، فإن الله تعالى الذي أحسنَ الخَلْق والتقويم قد أحسن وأحكم الشرع الحكيم ، وجعل هذا الشرع الإلهي واقياً للانسان من النقص والتدني في حضيض البهيمية الحيوانية ، راقياً به من الانسان الحيواني الى الانسان الربانيّ ؛ قال تعالى : « ولكن كونوا ربانيين » •

وذلك المَطْويّ تحت (ثمَّ) هو الذي ذكره سبحانه وتعالى بقوله : « أيحسب الانسان أن يُترك سُدىً » أي هَمَلا بلا تكليفٍ أو نهي يكون فيه صلاحه وسعادته ؟ وهو المذكور بقوله تعالى : « قالَ اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌّ » أي بعض أبنائكم الذين هم

يلدون منكما يا آدم وحواء لبعض عدوّ « فإما يأتينّكم مني هدى » خطاب لبني آدم عليه السلام الذين هم في صلب آدم وسيلدهم ، فأكد سبحانه بأنه يتعهدهم بالهدى فَورَ هبوط البشرية الى عالم الارض ، أي بأن ينزل الشرائع وفيها البيانات الثابتة بالبيّنات والإرشادات الى ما فيه الصلاح والنجاح في الدنيا والآخرة « فمَنْ اتّبع هداي فلا يَضلّ » ــ أي في الدنيا ــ « ولا يشقى » ــ أي في الآخرة ــ « ومَنْ أعرض عن ذكري » ــ أي تذكيري وهَديي وبياني ــ « فإن له معيشة ضنكاً » ــ أي ضيّقة شديدة ، محوطة بالمساوىء والهموم والمضايق وذلك في الدنيا « ونحشره يوم القيامة أعمى » الآية .

« ثم رددناه أسفل سافلين » أي فأنزلنا عليه الشريعة ، وبيّنا له ما يضره وما ينفعه على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فهناك قسم كبير من بني الانسان أعرض عن تلك الشرائع وردّها ولم يتصف بالفضائل والكمالات التي جاءت بها تلك الشرائع ، فرددناه أسفل سافلين ، لأنه هو سفّل نفسه ونزل بها الى مستوى البهيمية ، ولكن هناك قسماً آخر من بني الانسان آمنوا بما أنزل الله تعالى ، وعملوا بموجب شريعة الله تعالى فارتقوا في الدرجات العلى ، وهؤلاء هم الذين قال فيهم سبحانه : « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » أي دائم غير مقطوع ، وانما ذكر هذا القِسم على طريق الاستثناء لقلتهم بالنسبة لكثرة الذين كفروا ، قال تعالى : « وما أكثرُ الناس ولو حَرَصْتَ بمؤمنين » وقال تعالى : « وانْ تُطع أكثر مَنْ في الأرض يضلّوك » الآية .

ثم قال سبحانه : « فما يكذّبك بعدُ بالدين » المراد بالدين هنا الجزاء المرتّب على الحساب ؛ قال تعالى: « يومئذٍ يوفّيهمُ الله دينَهمُ

الحقّ » أي جزاءهم ، وقال تعـالى : « مالك يوم الـدين » أي هو سبحانه الملِك والمالك ليوم الجزاء ، وهو المحاسب لا غيره .

وفي الحديث الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : « أنا الملك ، أنا الديّان » أي المحاسب والمجازي .

« فما يكذبك بعدُ بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين » ؟ هذا خطاب للانسان كما قال مجاهد وأكثر المفسرين . والمعنى أيّ شيء يجعلك أيها الانسان مكذباً بالدين أي الجزاء والحساب من بعد هذا البيان والبرهان ، وأن الله تعالى قد خلقك في أحسن تقويم فصوّرك وعدَلك ، ثم تعهّدك بالشريعة التي فيها صلاحك وسعادتك ، ولم يتركك سدى ، بل انه بيّن لك ما ينفعك وما يضرك ، فمالَك أيها الانسان ذهبت تنكر الحشر والجزاء ؟! فمن ناحية القدرة هو أقدر على أن يعيـدك بعد موتك وينشئك خلقاً جديـداً ، فإنه لو عجز عن الإعادة لأعجزه وأعيـاه خلقك الاول كلا بل هو سبحانه كما قال : « أفَعَيينا بالخلْق الأول — أي بل لم نعجز — بل هم في لَبْسٍ من خلق جديد » .

ومن ناحية الحكمة فإن حكمة أحكم الحاكمين تقتضي أن يعيد الانسان مرة ثانية للجزاء والحساب « ليَجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » وهذا أمر مبرم ومحكم لا محالة .

وذهب بعض المفسرين الى أن الخطـاب في قوله تعـالى : « فما يكذّبك بعد بالدين » هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ يكون المعنى: ومَن الذي يكذبك بالجزاء يا رسول الله بعد هذا البيان، والحجة والتبيان ، الى آخر ما تقدّم . أي فما أحد عنده عقل وروية يكذّبك بالجزاء وقد جئتَ بالأدلة القاطعة التي تثبت ذلك حقا ؟

ثالثاً : النظر في حكمة الشرائع الإلهية يؤدي الى اثبات اليوم الآخر.

قال تعالى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق لا الـه الا هو رب العرش الكريم » .

فالله تعالى الذي خلق العالم هو حكيم ، ومن مقتضى حكمته سبحانه انزال الشرائع يتعهّد عباده بما فيه صلاحهم ، ويدلهم على مافيه خيرهم وسعادتهم في الدنيا ويحذرهم مما فيه فسادهم وشقاؤهم في الدنيا والآخرة ، ومن مقتضى حكمة التشريع الإلهي أن يعيد الثقلين مرة ثانية ، ويرجعهم الله لأجل أن يحاسبهم ويجزيهم بأعمالهم التي عملوها ، فمنهم الطائع ، ومنهم العاصي ، ومنهم المؤتمر بأوامر الله تعالى . ومنهم المتكبر على شريعة الله ؛ قال تعالى : « ان الينا ايابهم — أي رجوعهم — ثم ان علينا حسابهم » .

فما خلق سبحانه البشر عبثاً لا لحكمة ولا لأمر ولا نهيٍ ولا لحساب ولا سؤال بل ذلك ظنّ الذين كفروا وجهلوا حكمة ربهم الذي خلقهم سبحانه وانما خلقهم عن حكمة ولحكمة ، وسوف يجمعهم في الآخرة عن حكمة ولحكمة .

فخلْق البشر بلا تشريع عَبَث ، وتشريع وأمر ونهي بلا عودةٍ ومرجعٍ الى الملِك الحكم العدل — باطل ، فتعالى الله الملك الحق أن يَخلق ولا يشرع مافيه سعادة البشر ومصالحهم ، وتعالى الله أن يشرع ولا يرجعهم اليه للحساب والجزاء لما في ذلك من التسوية بين المحسن والمسيء ، والصالح والطالح ، والظالم والعادل ، فتعالى الله تعالى أن يساوي بين أولئك ، قال تعالى : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » أي كلا ولا.

قال الامام الشافعي رضي الله عنه في قوله تعالى : « أيحسب الانسان أن يُترك سدى » أي لا يُؤمر ولا يُنهى .

فالآيات القرآنية ترشدنا الى أن قضية الآخرة هي حقٌ وحقيقة لا ريب فيها يؤمن بها أهل العقول الصحيحة ، ويستدلون على حقيّتها بمختلف الدلائل الكونية : الآفاقية والنفسية والدلائل التشريعية .

قال العلامة فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى في تفسيره : من الأدلة العقلية على المعاد أنه قد دلت الأدلة على أن العالم حادث فلا بدّ له من محدث قادر ويجب أن يكون عالماً ، لأن الفعل المحكم لا يصدر الا من العالِم ، ويجب أن يكون غنياً عنها — أي عن العوالم — والا كان خلقها في الأزل وهو محال . أي بل العالَم حادث وليس بقديم .

فثبت أن لهذا العالَم الهاً قادراً عالماً غنياً ، ثم لما تأملنا فقلنا هل يجوز في حق هذا الحكيم الغني عن الكل أن يُهمل عبيده ويتركهم سدى — أي بلا بيان وتشريع — ويجوّز لهم أن يكذبوا عليه ، ويبيح لهم أن يشتموه ويجحدوا ربوبيته ويأكلوا نعمته ويعبدوا الجبت والطاغوت ، ويجعلوا له أنداداً ، وينكروا أمره ونهيه ووعده ووعيده .

فها هنا حكمتْ بديهية العقل بأن هذه المعاني لا تليق الا بالسفيه الجاهل ، البعيد عن الحكمة ، القريب من العبث ، فحكمنا لأجل هذه المقدّمة أن له سبحانه أمراً ونهياً .

ثم تأملنا فقلنا : هل يجوز أن يكون له أمر أو نهي مع أنه لايكون له وعد ووعيد ؟ فحكم صريح العقل بأن ذلك غير جائز ، لأنه انْ لم يقرن الأمر بالوعد بالثواب ، ولم يقرن النهي بالوعيد بالعقاب — لم يتأكد الأمر والنهي ، ولم يحصل المقصود ، فثبت أنه لا بد من وعد ووعيد .

ثم تأملنا : فقلنا هل يجوز أن يكون له وعد ووعيد ، ثم انه لايَفي بوعده ولا بوعيده لأهل العقاب ؟ أي الذين لا يليق بمقتضى الحكمة أن يغفر لهم كالمشركين مثلا .

فعلمنا أن لا بد من تحقيق الثواب والعقاب ، ومعلوم أن ذلك لا يتم الا بالحشر والبعث ، ومالا يتم الواجب الا به فهو واجب .

قال رحمه الله تعالى: فهذه مقدمات يتعلق بعضها ببعض كالسلسلة متى صح بعضها صح كلها ، ومتى فسد بعضها فسد كلها ؛ فدلت مشاهدة أبصارنا لهذه التغيرات ـ الكونية ـ على حدوث العالم ، ودل حدوث العالم على وجود الصانع الحكيم الغني ، ودل ذلك على وجود الامر والنهي ، ودل ذلك على وجود الثواب والعقاب ، ودل ذلك على وجود الحشر . أي ليتحقق الجزاء على فعل الامر ومخالفة النهي .

فإن لم يثبت الحشر أدى ذلك الى بطلان جميع المقدمات المذكورة، ولزم انكار العلوم البديهية ، وانكار العلوم النظرية القطعية . ا هـ كلام الرازي رحمه الله تعالى .

وقد يعاند بعض الجهال ويتعامى عن تلك الأدلة كلها ، ويقول : هل هنالك من قد ذهب وكشف لنا النقاب عن حقيقة الأمر ورجع فأخبرنا عما هنالك ؟ فإننا لا نصدق الا بالعيان ولا نقبل الدليل ولا البرهان ؛ فيقال لهذا الجاهل الذي عمي عماذكرناه من الادلة : نعم هناك من ذهب واطلع على تلك العوالم التي سينقلب الناس اليها ، وعاد فأخبر عن جميع ذلك تفصيلا .

وهذا المخبر الذي رأى فأخبر هو أصح العالمين نظراً وأصدق خلق الله تعالى خبراً ، ألا وهو سيدنا محمد الصادق الأمين بشهادة أحبائه وأعدائه صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان الانسان يصدق الرجل الثقة المخبر الصادق ، الذي يخبره عن بلد كذا وكذا وما فيها من كيت وكيت فكيف لا يصدق

أصدق العالمين سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، الذي أسرى به الله تعالى ليلا من المسجـد الحرام الى المسجـد الاقصى ، ثم عرج به الى السموات ، ثم الى سدرة المنتهى وشاهد هناك عالم الجنة ، وأدخـل الجنة ، واطلع على عالم النار ، ورأى ما رأى من ألوان عذاب أهل النار، وأنواع المعذَّبين ، وأطلعه الله على ما هنالك من العوالم ؛ ثم عاد فأخبر عن ذلك تثبيتاً وتطميناً للمؤمنين بما غاب عنهم من تلك العوالم ، وحجةً على المنكرين المعاندين الذين لا يصدقون الا بالعيان ، وهذا من جملة حِكم المعراج العائدة الى الامة باليقين والتمكين والطمأنينة ، ليكونوا على يقين في عقيدتهم بلا شك ، وكأنهم عاينوا ذلك كله .

وفي هذا يقول سبحانه : « والنجم اذا هوى ، ما ضلَّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى » الى قوله تعالى : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى » ففي هذه الآيات يقسم سبحانه بالنجم اذا هوى ، وهذا يشمل جميع النجوم السيارة ، التي تهوي من المشارق الى المغارب ، يقسم بذلك على حقيَّة هَدْي هـذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ورشاده وصدق منطقه وصوابه ، وينفي عنه كل النفي أن يكون ضل أو غوى ، أو تكلـم عن هوى ؛ ويؤكد ذلك بإقرار قومه باعتبار أنه صاحبُهم ، نشأ بينهم وعاملوه ، فهم أعرف الناس بصدقه وأمانته ، وصفات كماله ، لم يعثروا له على ضلالة ولا غواية منذ صغره صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا تمهيـد واقامة حجة على أنه صادق مصدَّق فيما رآه وسمعه ليلة معراجه الى العوالم العلوية من السموات السبع ، وسدرة المنتهى ، ومستوى سمع فيه صريف الاقلام ، وما هنالك مما رأى وشاهد من الجنة والنار ، وما اطلـع عليه من العوالم الغيبية ، ونعيم أهـل البرزخ وعذابهم ؛ واطلاعه على عذاب العُصاة والزُّناة والرباة وما وراء ذلك ، ولذلك جاء بعد ذلك القسم والمقسم عليه في تلك الآيات جاء ذكر المعراج ،

وأنه صلى الله عليه وسلم وصل الى سدرة المنتهى ، ثم الى عالم الجنة وعاين ما فيها الى ما وراء ذلك كما بيَّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديث المعراج ، فقضايا الآخرة ثابتة بالقرآن وبالبرهان وبالعيان من أصدق انسان ، في جميع الاكوان ، فلا حاجة بعد ذلك الى حجة وبيان ، ولا ريب في قطعيّة صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمانته ، الذي صدَّقه الله تعالى ، وصدَّقته ملائكة الله تعالى ، وصدقته عباد الله ، وصدَّقته الاشجار والاحجار والامدار ، وصدقته أي شهدت بصدقه وأمانته أعداؤه ، فإنهم كانوا يسمونه الصادق الامين ، ولم يعثروا له على كذبة قطّ منذ صغره ، حتى قال له أبو لهب الذي هو أشد أعدائه قال : « يا محمد ما جرَّبنا عليك الا صدقاً » وتفاصيل ذلك ليس موضعها هنا •

أثر الايمان بالآخرة في النفوس

ان ايمان المؤمن بالآخرة له آثاره القوية في نفس المؤمن ، بل وفي عقله وفي جميع مداركه ، وذلك أنه لمَّا أيقن بوجود الآخرة أصبح في حال مَن يعلم أن هناك مسؤولية على أقواله وأفعاله ، ومحاسبة على ما يقدمه وما يؤخره ويبطنه ويظهره ، ويخفيه ويعلنه ، وهذا مما يحمله على صدق القول ، واصلاح العمل ، واحسانه في المعاشرة ، ويلزمه بالنصح لعباد الله تعالى ، وأداء الأمانة ، ووفاء العهد ، والقيام بمواجب الالتزامات في المعاملات المالية ونحوها من سائر العقود والالتزامات ، وكيف لا يكون حاله كذلك وقد أيقن أن المحاسب والديّان في ذلك اليوم الآخر هو ربّ العالمين ، الذي لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه من مثقال ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء ، قال سبحانه وتعالى : « وإن كان مثقال حبَّة من خرْدلٍ أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » •

فالايمان بالآخرة فيه اصلاح الدنيا ومجتمعها وسير معاملاتها واصلاح الآخرة ، كما أن الإيمان بالآخرة يدفع صاحبه إلى الجد والعمل ، ويمنعه من القعود والكسل ، وذلك لأن النفوس البشرية مجبولة على أن تستعدّ للمستقبل ، ألا ترى الولد الناشىء ، والذي دخل مرحلة الشباب يتطلّع لمستقبله في هذه الحياة الدنيا ، ويستعد له جاداً في الدراسة أو الصناعة أو الزراعة أو نحو ذلك ، في حين أنه من المحتمل أن يدرك مستقبله الذي يؤمّله في الدنيا ، ويحتمل أن يدركه الموت قبل أن يأتيه مستقبله الذي يؤمّله من العمر الذي كان يطمح اليه ، ولكن هناك مستقبلاً أكيداً محقق الوقوع ، لا مخلص منه ، والانتهاء اليه لا محالة فيه ، وهو ما بعد الموت ، فإن الغَدَ في الحياة الدنيا من المحتمل أن يدركه الإنسان ، أو يموت قبل أن يأتي عليه غد الدنيا ، وأما غدُ الآخرة — وهو ما بعد الموت — فإنه محقّق لا محالة فيه ، فإن الموت لا بدّ منه ، ولا يُدرى متى يكون ٠

قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، ولْتنظرْ نفس ما قدمت لغدٍ » ٠ أي ماذا قدّمت لغدِ الآخرة وهو ما بعد الموت ، وفي هذه الآية تنبيه وتذكير للعقلاء الذين يستعدّون لمستقبل حياتهم في الدنيا أن يعتبروا ، وينظروا ويفكّروا في المستقبل المحقّق الأكيد الذي هو بعد حياتهم في الدنيا وأن يُعدّوا عدّته : ذلك لأن الاستعداد لمستقبل محقق الانتهاء اليه هو أولى وأوجب على العاقل من الاستعداد لمستقبلٍ محتملٍ أن يدركه وينتهي اليه ، وهو المستقبل في هذه الحياة الدنيا ٠ فالاستعداد للآخرة أهم وأوجب ، وذلك بالأعمال الصالحة ، والأقوال الصادقة والنيات الطيبة ، والأخلاق الحسنة ، والإخلاص لله تعالى في ذلك ٠

قال تعالى : « وتزوّدوا فإن خير الزّاد التقوى ، واتقون يا أولي الألباب » وفي المسند عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال : بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذْ بصُر بجماعةٍ ، فقال : علامَ اجتمع هؤلاء ؟ فقيل على قبر يحفرونه ، ففزع رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدر بين يدي أصحابه مسرعاً حتى انتهى إلى القبر ، فجثا على ركبتيه ، قال البراء : فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي شفقةً على أمته ورحمة بهم) حتى بلّ الثرى من دموعه ، ثم أقبل علينا فقال : أي إخواني لمثل اليوم فأعدّوا » . الحديث

فالله تعالى أمر بالتزوّد في الدنيا ، وهو اتخاذ مايحتاج إليه في السفر ، ثم نبّه سبحانه إلى السفر الأبعد والأطول ، وهو السفر إلى الآخرة ، فإنه أحوج إلى الزّاد ، ولكنّ زاده ليس من جنس زاد أسفار الدنيا إنما زاد سفر الآخرة تقوى الله تعالى ، وذلك بامتثال أوامره واجتناب ما نهى ؛ ثم نبّه العقلاء إلى التعقّل والتفكير في ذلك ، فقال : « واتقون يا أولي الألباب » .

فشأن أولي الألباب أن يتزوّدوا لآخرتهم قال صلى الله عليه وسلم : « الكيِّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت » الحديث .

وروى الحافظ عبد الرزاق بإسناده عن أبي جعفر قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّ المؤمنين أكيس (أي أفطن وأعقل ؟) قال : « أكثرهم ذكراً للموت ، وأكثرهم لما بعده استعداداً » . كما أن الاستعداد للآخرة هو علامة انشراح الصدر للإسلام ودخول الإيمان في القلب .

قال الحافظ ابن كثير : روى ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم « فَمَنْ يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، قالوا : يا رسول الله ما هذا

الشرح ؟ قال : نور يُقذف في القلب ، قالوا : يا رسول الله فهل لذلك من أمارة تعرف ؟ (أي علامة لذلك تعرف) فقال صلى الله عليه وسلم : نعم ، قالوا : وما هي ؟ قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الموت » • وقد أورد ابن كثير هذا الحديث بطرق متعددة عن ابن جرير أيضاً وغيره •

فإن قال قائل : إنه لا حاجة للإنسان أن يعمل للآخرة ويستعدّ لها لأن الدار الآخرة ليست أمراً حقيقياً واقعياً ، فيقال له في الجواب : إن هذا الكلام باطل •

أولاً : إن أمر الآخرة وما فيها من الحشر والسؤال والجزاء ، كل ذلك حقٌ وحقيقة واقعية ، قطعاً ، شرعاً وعقلاً ، كما سبق من الأدلّة على ذلك ، وكما سوف يرد إن شاء الله تعالى في مواضعه من هذا الكتاب •

ثانياً : يجب عليك أيها العاقل أن تفكّر في نفسك إذا أنت أعرضت عن أوامر الله تعالى ، وتركت ما أوجبه عليك ، وارتكبت ما نهاك عنه ، ثم جاءك الموت وتبيّن لك أن الآخرة التي كنت تجحدها هي أمر حقٌ ، وانكشفت لك حقيقتها الواقعة الحاقّة ، وقد كنت في الدنيا تجحد وتنكر ، فماذا يكون موقفك حينذاك ؟ إذاً لقد خبتَ وخسرتَ ، وأسفت وندمت ، حين لا تنفع الندامة •

وسوف يكون موقفك إذاً هو الموقف الذي حذّرك الله تعالى منه ، قبل أن تصير إليه ، قال تعالى : « لقد كنت في غفلةٍ من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليوم حديد » وقال تعالى : « واتبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لاتشعرون، أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطّتُ في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين » فتتوارد عليكَ الحسرات والويلات ، وتلوم نفسك على

ما كنتَ تسخر به وتنكره قبل الموت ، فإذا بك تعاينه بعد الموت ؛ قال تعالى : « حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج وهم من كلّ حَدَبٍ ينسلون ، واقترب الوعد الحقّ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلةٍ من هذا بل كنا ظالمين » .

كما أن من آثار الإيمان بالآخرة في النفوس أنه يسهّل على الإنسان بذل النفس والنفيس في سبيل الله تعالى ، وذلك أن الإنسان لا يبذل ما هو عزيز عنده إلاّ لينال ما هو أعزّ عنده ، ولا يبذل ما هو ثمين عنده إلا لينال ما هو أغلى ثمناً ، وإن أعزّ شيء عند الإنسان نفسُه ثم ماله ، فلا يبذلهما إلا لينال ما هو أعزّ وأكرم .

فالمؤمن بالآخرة لمّا أيقن أنه إذا بذل نفسه وماله في مرضاة الله تعالى وفيما يقرّبه إلى الله تعالى ، وفي الجهاد في سبيل الله تعالى ، وفي المساعدة لعباد الله تعالى قاصداً بذلك وجه الله تعالى وما عند الله تعالى ــ هان عليه بذل نفسه وماله ، وسهُل عليه ذلك لإيمانه بوفاء الله تعالى بما وعده به من الجنة التي أعلن الله تعالى عنها أنها الثمن والعوض للأنفس والأموال في الشراء الذي أعلنه وأعلم به ، وأكّده وحقّقه ، قال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة يقاتِلون في سبيل الله ، فيَقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » . ولا شك أن هذا الإيمان ينهض بهمّة صاحبه ، ويقوّي عزيمته على الإقدام والبذل بلا إحجام ولا بخل .

روى الإمام مسلم من حديث غزوة بدر ، وفيه قال أنس رضي الله عنه: فَدَنا المشركون، فقال صلى الله عليه وسلم : « قوموا إلى جنّةٍ عرضها السموات والأرض ، قال فجعل يقول عميْر بن الحُمام

الأنصاري : يا رسول الله جنة عرضُها السموات والأرض ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : نعم ، فقال : بخٍ بخٍ يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يحملك على قولك : بخٍ بخٍ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ، قال صلى الله عليه وسلم . فإنك من أهلها ؛ قال أنس : فأخرج تمرات من قَرَنه ـ أي جعبته ـ فجعل يأكل منهنّ ، ثم قال : لئن أنا حَيِيتُ حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة ، قال : فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قُتِل » .

وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك رضي الله عنهما يوم أحد قال : فشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد فاستقبل سعد بن معاذ ، فقال له أنس بن النضر : يا أبا عمرو أين ؟ ثم قال أنس بن النضر : واهاً لريح الجنة أجده دونَ أُحُد ، فقاتلهم حتى قُتِل ، فوُجِد في جسده بضع وثمانون من بين ضربةٍ ورميةٍ وطعنة . وعند البخاري : فاستقبله سعد بن معاذ فقال أنس بن النضر : يا سعد بن معاذ : الجنةَ وربِّ النضر ، إني أجد ريحها من دون أحد، قال أنس بن مالك: فوجدنا به بضعةً وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنة برمحٍ ، أو رمية بسهمٍ ، ووجدناه قد قُتِل ومُثِّل به المشركون فما عرفه أحَد إلا أخته الرُّبيِّع بنت النضر ـ بشامة أو ببَنَانه . الحديث .

ومن آثار الإيمان بالآخرة أنه يهوِّن على صاحبه الشدائد والمصائب ويخفّف عنه المساوىء والمصاعب ، وذلك أن الإنسان معرَّض في هذه الحياة الدنيا للمصائب والمكاره في نفسه أو ولده أو ماله أو ما يلوذ به ، فالمؤمن بالآخرة تهون عليه المصائب وما يعتريه من مرض أو همٍّ أو غم ، لأنه يعلم أن ذلك من الله تعالى ، وسوف يؤجره الله تعالى على ذلك يوم

القيامة . كما جاء عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما يُصيب المؤمن من نصبٍ ــ أي تعب ــ ولا وَصَبٍ ــ أي مرض ــ ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذىً ولا غمٍّ حتى الشوكة يُشاكها إلا كفّر الله تعالى بها من خطاياه » رواه البخاري ومسلم وابن أبي الدنيا عن أبي هريرة ، وفي رواية له : ما من مؤمن يُشاك بشوكةٍ في الدنيا يحتسبها ــ أي يعلم أنها من الله تعالى ، ويحسب أجرها عند الله ــ إلا قصّ بها من خطاياه يو القيامة . وروى ابن أبي الدنيا أيضاً بسند الثقات عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صُداع المؤمن وشوكة يُشاكها أو شيء يؤذيه يرفعه الله بها يوم القيامة درجةً ويكفّر بها عنه ذنوبه » .

وأما مَن لم يؤمن بالآخرة فحين تصيبه المصيبة ، أو تعتريه الأمراض والآلام والهموم فإنها تتضاعف عليه شدتها وكرباتها .

أولاً : لأنها في نفسها مؤلمة ومحزنة .

ثانياً : لأنه ليس هناك شيء يسليه عن شدّتها ، ويخفّف عنه ألمها من أجر يلقاه ، أو خير يتلقاه مقابل مصيبته وكربه ، فهو يضيق بنفسه ذرعاً ولا يجد ما يهوّن عليه شدته ، ويسلّيه عن مصيبته .

الموت وحقيقته

قال الإمام الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه : إعلم أن الموت عبارة عن مفارقة الروح الجسد الذي كانت به حياته الحسية ، وهو طارىء عليها بعد ما كانا موصوفين بالاجتماع الذي هو علّة الحياة .

وقال أيضاً والموت عبارة عن الانتقال من منزل الدنيا إلى منزل الآخرة ، ما هو (أي ليس هو) عبارة عن إزالة الحياة منه في نفس الأمر ، وإنما الله تعالى أخذ بأبصارنا فلا تدرك حياته ، وقد ورد النصّ في الشهداء في سبيل الله تعالى أنهم أحياء يُرزقون ، ونُهينا أن نقول فيهم أموات ، فالميت عندنا ينتقل وحياته باقية لا تزول ، وإنما يزول الوالي (وهو الروح) عن هذا المُلك (أي التصرف في الجسم الذي وكّله الله تعالى بتدبيره أيام ولايته عليه) قال : والميت عندنا يعلم من نفسه أنه حيّ ، وإنما تحكم عليه بأنه ليس بحيّ جهلاً منك ، ووقوفك مع بصرك ، ومع حكمك في حاله قبل اتصافه بالموت ، من حركة ونطق وتصرف ، وقد أصبح متصرَّفاً فيه لا متصرِّفاً ، ثم قال : فالموت انتقال خاصّ على وجهٍ مخصوص إلخ .. اهـ .

وقال الإمام حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه : بل الذي تشهد له طرق الاعتبار ، وتنطق به الآيات والأخبار ، أن الموت معناه تغيُّر حال فقط ، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد ، إما معذَّبة وإما منعَّمة ، ومعنى مفارقتها الجسد : انقطاع تصرّفها عن الجسد ، بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها ، حتى إنها ــ الروح ــ لتبطش باليد ، وتسمع بالأذن ، وتبصر بالعين، وتعلم حقيقه الأشياء بالقلب ، والقلب ههنا عبارة عن الروح ــ أي القلب الروحاني لا القلب الصنوبري الجسماني ــ والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة .

ثم قال رضي الله عنه : فكلّ ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقته الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء تتعطل بموت الجسد إلى أن تُعاد الروح إلى الجسد . اهـ .

كلمات حول الروح الانساني

أولاً : أما حقيقة الروح الإنساني فقد سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عنها ؟ فأنزل الله تعالى عليه الجواب « ويسئلونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين كان في مكة سألتْه قريش عن الروح ؛ كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش ليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فنزلت « ويسئلونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم لمَّا هاجر إلى المدينة سأله اليهود عن الروح ، كما جاء في الصحيحين واللفظ للبخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : بينا أنا أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرثٍ وهو متوكّئ على عَسيبٍ ، إذ مرَّ اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلُوه — أي سلوا محمداً صلى الله عليه وسلم — عن الروح، فقال (أي بعضهم): ما رابكم إليه ، وقال بعضهم : لا — أي لا تسألوه — لا يخبركم بشيء تكرهونه (أي وذلك يغيظكم بمعرفتــه الجواب) فقالوا : سلوه ، فسألوه عن الروح ، فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يردَّ عليهم شيئاً ، قال ابن مسعود فعلمتُ أنه يُوحى إليه ، فقمت مقامي ، فلما نزل الوحي قال : « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي » الآيــة .

والمراد بالروح هنا الروح الإنسانيّ ، بدليل ما ورد عن ابن عباس أنه قال : إنَّ اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : أخبرنا عن الروح ، وكيف تعذَّب الروح التي في الجسد ، وإنما الروح من الله ، فنزلتْ « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي » الآية .

والمعنى – والله أعلم – أن الروح من عالم الأمر الرباني اللطيف ، وذلك أن هناك عالماً يُسمى عالَم الأمر ، وعالماً يسمى عالَم الخَلق ، وذلك ثابت بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية .

فعالَم الخَلْق هو مَخلوق بأمرٍ من الله تعالى له : كنْ فيكون ، ولكن من مادةٍ ويجري عليها التركيب والتطوير والتوالد ، وذلك كجسم الإنسان المخلوق من تراب .

وأما عالَم الأمر فهو ما خُلق بمجرد قول الله تعالى له : كنْ دون أن يكون له مادة ولا تطوير ولا توالد ، ومن ذلك هذا الروح الإنساني .

فالإنسان فيه مجمع العالمين ، فجسمه من عالم الخلق الكثيف المادي ، وروحه من عالم الأمر اللطيف .

ثم إنه سبحانه وتعالى سجَّل على العباد قلة العلم ، وكثرة الجهل ، وأن ما عندهم من العلم فهو مما آتاهم وتفضل به عليهم هو سبحانه ، وأن العلم المحيط بكل شيء هو لله تعالى وحده . فقال سبحانه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

وهذه القِلَّة في العلم التي أوتوها هي في غاية القلة ، ومهما تصوَّرها الإنسان من قلةٍ فهي أقل وأقلّ ؛ وقد ضَرَب سيدنا الخضر على نبينا وعليه الصلاة السلام مثالاً لهذه القلة في العلم التي أعطيها سائر المخلوقات بالنسبة للعلم الإلهي الذي لا يتناهى – حيث قال لسيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام حين اجتمعا وجلسا على شاطىء البحر، فأرسل الله تعالى عصفوراً ، فوقف على حرف السفينة، ونقر في البحر ، فقال له الخضر عليه السلام : يا موسى ما علمي وعلمك وعلم سائر الخلائق من علم الله تعالى إلاَّ كما نقر هذا العصفور من البحر . كما جاء هذا في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم ،

يحكي ذلك عن موسى والخضر عليهما السلام بإقرار منه صلى الله عليه وسلم لذلك •

وهذا المثال جاء لبيان سعة علم الله تعالى الذي لا يتناهى ، وقلة علوم الخلائق المتلاشية بالنسبة لعلم الله تعالى ، ولم يجيء هذا المثال لتحديد النسبة وإلا فلا نسبة ولا تناسب •

فهو سبحانه العليم بكلّ شيء علماً ذاتياً واجباً ، وعلمه قديم لا أوّل له ولا آخر له ، وقد أوجد العالَم على علمٍ منه سابق ، قال تعالى : « ألا يَعلم مَن خَلق وهو اللطيف الخبير » فعلمه بالمخلوقات سابق عليها ، وإلا كيف يتصوَّر أن يكوِّنها ويصوّرها إذا لم يكن له علم بها سابق ؟ كما جاء التنبيه إليه في هذه الآية الكريمة •

هذا وإن علمه تعالى محيط بما كان وبما يكون ، فهو يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون ويعلم مالا يكون كيف يكون لو كان ، قال تعالى في الكفار : « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولَّوا معرضون » وقال تعالى في الكفار حين وقفوا على النار ، وتمنّوا أن لو عادوا إلى الدنيا ليُصلحوا أمرهم « ولو رُدّوا لعادوا لما نُهُوا عنه » الآية •

ثم إن عالَم الأمر الذي ألمحنا إليه هو داخل في عالَم الملكوت الذي جاء ذكره في الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، كما أن عالَم الخَلق داخل في جملة عالَم المُلك ، وكلٌّ من العالَمين المذكورَيْن : المُلك والملكوت بيد الله تعالى ، يتصرَّف فيهما كما يشاء ، كما هو مقتضى حكمته الموافقة لعلمه ؛ قال تعالى : « تبارك الذي بيده المُلك وهو على كلّ شيء قدير » وقال تعالى : « فسبحان الذي بيده ملكوت كلّ شيء وإليه تُرجعون » •

فكل شيءٍ كائن في عالَم الخلق ما قام إلا بالملكوت وهو الأمر الرَّباني الذي قامت به الأشياء ، فملكوت الأجسام الإنسانية هو رُوحها .

وفي السنن عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصلِّي في الليل،وكان صلى الله عليه وسلم يقول: « الله أكبر ثلاثاً، ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » وفي سنن أبي داود عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً فقرأ سورة البقرة ، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوَّذ ، ثم ركع بقدر قيامه ، يقول في ركوعه : سبحانَ ذي الجَبَرَوت والملكوت والكبرياء والعظمة . الحديث . وفي مسند الإمام أحمد عن حذيفة رضي الله عنه قال : قمتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاتَ ليلةٍ فقرأ السبع الطوال في سبع ركعاتٍ ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا ركع رفع رأسه من الركوع وقال : سمع الله لمن حمده ، ثم قال : الحمد لله ذي الملكوت والجبروت والعظمة والكبرياء » .

وقد كثرتْ أقوال العلماء في الفرق بين هذه العوالم الثلاثة ، والحقّ ما قاله محققو العارفين نفعنا الله تعالى بهم أجمعين : أن عالَم الأمر — ويسمى عالم الملكوت — هو عالم الأرواح والروحانيات والنفوس ، سمي بذلك لأنه يوجد بأمر الحق سبحانه بلا واسطة مادة ومدّة ، وأن عالم المُلك — ويسمى عالَم الشهادة — هو عالم الأجسام والجسمانيات وهو ما يوجد بعد الأمر بمادَّة ومدّة ، ويجري عليه التركيب والتوالد .

وأما عالم الجبروت فاختلف فيه العارفون فقال بعضهم هو مشتق من الجبر وهو القهر فيشمل عالَم البرزخ بعد الموت وعالم موقف الحشر لأن فيهما يظهر حكم القهر الإلهي ، وقيل هو مأخوذ من الإجبار

بمعنى الاستعلاء فيشمل عالم العقول والنفوس المجرّدة لاستعلاء هذا العالم عن تركبه من العناصر وعند الشيخ أبي طالب المكي هو عالم العظمة فيشمل عالَم الآخرة وعالم أرض الحقيقة التي ترى فيها الأشياء على حقائقها .

وقد حثّ الله تعالى عباده أن ينظروا في العالمَيْن : عالم الملك ، وعالَم الملكوت ، ولكن فرّق بين النظرين لافتراق العالَميْن :

فقال تعالى في عالم المُلك : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزينّاها ومالها من فُروج » الآيات .

وقال تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ ، وإلى السماء كيف رُفعت ، وإلى الجبال كيف نُصبت ، وإلى الأرض كيف سُطِحَتْ » .

فالنظر في هذه الآيات متعدٍّ لما بعده بإلى لأن المنظور إليه يُرى بحاسّة البصر وهي العين ، ويُشهَد حسّاً .

وأما عالم الملكوت فقال تعالى فيه «أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » الآية . فأمر سبحانه بالنظر فيه ، والمراد بذلك نظر التفكر والاعتبار والتعقّل ، والاستبصار في الملكوت الذي أقام الله تعالى به الأشياء ، وأمسك به عليها قُواها وقِوامها ، وهذا من الأمور الغيبية التي لا يراها إلا من أطلعه الله تعالى على ما شاء منها ، وأشهده ذلك ، قال تعالى : « وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين » .

وأعظم من أراه الله تعالى ذلك وأطلعه على جميع ما هنالك هو السيّد الأكرم سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال مخبراً عن ذلك المشهد : فتجلّى لي كل شيء وعرفتُ ، ثم قرأ « وكذلك نُري

إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » . كما جاء في سنن الترمذي ومسند أحمد وغيرهما ، وفي رواية الترمذي : فعلمتُ مافي السموات ومافي الأرض،وفي رواية الطبراني : فعلّمني كلَّ شيء».

ثانياً : إن الرّوح الإنسانية هي شريفة كريمة ، قُدسيّة عالية ، أعلن الله تعالى شرافتها وكرامتها بإضافتها إليه حيث قال سبحانه : فاذا سوّيته ونفخت فيه من رُوحي فقعوا له ساجدين » .

فأخبر سحانه عن شرف الإنسان جسماً وروحاً ، أما شرف جسمه فقد سوّاه هو سبحانه ، وأكمله وعَدَّله وأحسنه ، كما أخبر عن ذلك بقوله سبحانه : « فإذا سوّيته » وهذا نظير قوله تعالى : « ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيديَّ » فجسم الإنسان ليس كبقية الأجسام البهيمية الحيوانية ، بل هو مشرّف بتسوية اللــه تعالى له ، وتعديله وإحسان تقويمــه ؛ وأما شرف روحه فقد أضافها اللــه تعالى إليه حيث قال : « ونفخت فيه من روحي » والنفح هنا كناية عن إيصال الروح بالجسم، وإفاضتها على ذراته كلها بالحياة بعد أن صار مسوّىً ومستعداً للروح و (مِن) التي في قوله تعالى : « مِنْ روحي » هي للابتداء ، أي من روحٍ بدءُ خلقها وإيجادها من الله سبحانه .

وفي هذا بيان أن الروح الإنسانية ليست كغــيرها من أرواح البهائم والحيوانات بل هي في أوج الشرف والكرامــة ، والاستعداد للفيوضات والمعارف الإلهية ، والقضايا الإيمانية ، وفيها الأهلية الكاملة لأن تكون موضع الخطابات الإلهية الشرعية ، بالأوامر والمناهي والآداب والأخلاق العالية ، فيخاطبه الله تعالى بقوله : « يا بني آدم » وبقوله : « يا أيها الناس » وبقوله : « ياعبادي » ونحو ذلك .

والروح هي من العالَم الملكوتي العلويّ ، هبطت إليك من المحل الأرفــع ، وقرنت بهــذا الجسم الإنساني ، فإذا أجاع الإنسان بدنه

وشغله بالعبادة ، وأقامه في خدمة مولاه تعالى بالعمل فيما أمره به ربه سبحانه — وجَدَت روحه خفةً ولطافة ، وشعرت باللذة والراحة ، فتاقت إلى المستوى الذي هبطت منه ، واشتاقت إلى عالَمها العلويّ المقدس ، وإذا أثقل الإنسان بدنه بالمآكل والمشارب وأخلد إلى الشهوات وكثرة النوم والراحة ، وانهمك في اللذائذ الجسمية ، ثقلت الروح وهبطت من عالَمها ، وصارت أرضية سُفلية .

ولذلك ترى الرجل الصالح في العمل ، الصادق في عبادته لربه ، المخلص لله تعالى دينه — ترى بدنه عندك في الأرض ، ولكنّ روحه وقلبه في العالم العلويّ يجول ، كما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحارثة الذي عزفت نفسه عن الدنيا قال له : كيف أصبحت يا حارثة بن مالك ؟ فقال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنّ لكلِّ حقٍّ حقيقــةً ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرتُ ليلي ، وأظمأتُ نهاري ، فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً للحساب ، ولكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، ولكأني أسمع عِواء أهل النار ، فقال صلى الله عليه وسلم : عبد نوّر الله الإيمان في قلبه عرفتَ فالزم(١) .

وروى ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان بإسناده عن محمد بن صالح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي عوف بن مالك فقال : كيف أصبحتَ يا عوف بن مالك ؟ فقال : أصبحت مؤمناً حقاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لكل قولٍ حقيقةً ، فما حقيقة ذلك ؟ قال : يا رسول الله ، أطلقت نفسي عن الدنيا ، فأسهرتُ ليلي ، وأظمأتُ

---

(١) قال العلامة ابن رجب الحنبلي : وحديث حارثة المشهور قد رُوي من وجوه مرسلة وروي متصلاً ، والمرسل أصح . ا هـ جامع العلوم والحكم ، وأورده ابن أبي شيبة في كتاب الايمان ، وأورده الحافظ في الاصابة وذكره غير هؤلاء من المحدثين .

هَواجري ــ جمع هاجرة وهي الظهيرة ــ وكأني أنظر إلى عرش ربي ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (يصيحون ويستصرخون) فقال صلى الله عليه وسلم : عرفتَ أو لُقِّنتَ فالزم ؛ وفي رواية : عبد نوَّر الله قلبه » .

وعلى العكس فإن الكفار والفجار لما أخلدوا إلى الأرض ، وعموا وصمّوا في شهواتهم البهيمية ، وأهوائهم السفلية ، فإن أرواحهم هبطتْ من عليائها، وصارت أرضيةً دنيّةً، قال الله تعالى: «واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها» أي لم يتحقق بمواجبها، ولم يتلبَّس بمعانيها، بل انخلع منها « فأتبعه الشيطان » فاصطاده وافترسه « فكان من الغاوين » بعد أن كان من الراشدين « ولو شئنا لرفعناه بها » بتلك الآيات الكريمة العالية ، فإنها بها يعلو عالي الهمَّة « ولكنه أخلد إلى الأرض » أي مال إلى ملاذِّها وزخارفها كلَّ الميل حبّاً فيها ، وهياماً بها « واتبع هواه » وفي ذلك دليل على دناءة همته ، وخسَّة بغيته ، حيث إنه اختار الأسفل الأدنى على الاشرف الاعلى ، فهو في ذلك « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهثْ ، أو تتركه يلهث » أي شأن الكلب أن يلهث إن تركته أو حَمَلْتَ عليه وطردته ، وكذلك مَنْ كفر وأخلد إلى الأرض فهو يلهث على الدنيا متكالباً عليها ، فهو إن تركته يلهث على الدنيا ، وإن حَمَلتَ عليه بالوعظ والتذكير والحجة والبينات يلهث على الدنيا ، ولا يعلو عنها بهمته وعزيمته « ذلك مَثَل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القَصَص لعلهم يتفكرون » .

ثالثاً : ذهب جمهور العلماء إلى أن الأرواح الإنسانية مخلوقة قبل الأجساد واستدلوا على ذلك بما جاء في حديث المعراج المرويّ في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديثه عن المعراج : فلما فُتح ــ أي فتح خازن السماء الدنيا الباب لنا ــ علونا السماء

الدنيا ، فإذا رجل قاعد على يمينه أسْوِدة وعلى يساره أسْوِدة ، إذا نظر قِبَل يمينه ضحك ، وإذا نظر قِبَل شماله بكى ، فقال مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح ، قال صلى الله عليه وسلم : قلتُ لجبريل مَنْ هذا ؟ قال : هذا آدم وهذه الأسْودة عن يمينه وعن شماله نَسَمُ بنيه (أي أرواح بنيه) فأهل اليمين هم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى » الحديث .

فهذا دليل على أن الأرواح مخلوقة ومودعة هناك في السماء فإذا كمل للجسم استعداده لتقبّل هذه الروح بأن مضى عليه أربعة أشهر في رحم أمّه ـ أمر الله تعالى الملك أن يأتي بهذه الروح ، فينفخها في الجنين فيحيا حياة روحية فوق الحياة النامية التي كان عليها قبل أن تمضي عليه أربعة أشهر وهو في الرحم فما يظهر للجنين من حركة قبل أربعة أشهر فتلك حركة نموّ كما تتحرك الناميات من الزروع ونحوها وأما الحركة الروحية فهي بعد أربعة أشهر .

واستدل العلماء على تقدم خلق الأرواح على الأجسام بما ثبتَ من قضية عالَم الذَّرّ وذلك أن الله تعالى بعد أن خلق آدم عليه السلام استخرج منه الذراري التي سيخلقها منه الى يوم القيامة ، وأفاض عليها الأرواح ، وأخذ عليهم العهد ، وأشهدهم على ذلك .

قال تعالى : « وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى (أي أنت ربنا) شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » .

جاء في مسند الإمام أحمد عن أبي بن كعب رضي الله عنه في هذه الآية أنه قال : جمعهم الله تعالى فجعلهم أرواحاً ثم صوّرهم فاستنطقهم فتكلموا ، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق ، وأشهدهم على

أنفسهم ألستُ بربكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم عليه السلام أن تقولوا لم نعلم بذلك ، إعلموا أنه لا إله غيري ، ولا ربَّ غيري ، فلا تشركوا بي شيئاً ، إني سأرسل إليكم رسلي يذكّرونكم عهدي وميثاقي (أي هذا العهد والميثاق الذي أخذ عليكم الآن) وأنزل عليكم كتبي ، قالوا : شهدنا بأنك ربنا وإلهنا ، لا ربَّ غيرك ، فأقرّوا بذلك . اهـ .

ورواه الحاكم وصحح إسناده وأقره الذهبي ، ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه وغيرهم ، وقد جاء ذلك المعنى في عدة أحاديث مرفوعة ، ومن ذلك ما رواه الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كلّ نَسَمَةٍ هو خالقها إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كلّ إنسان منهم وبيصاً من نور ثم عَرَضهم على آدم ، فقال : أيْ ربِّ مَن هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريّتك » الحديث قال الترمذي فيه حسن صحيح .

ومن الأدلة على تقدّم خلْق الأرواح على الاجسام ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأرواح جنود مُجنّدة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » ورواه البخاري معلقاً .

فالأرواح التي تقوم بها الأجساد هي جموع متجمّعة ، وأصناف مصنّفة ، وهي في عالَم الأمر قبل عالم الخلْق الجسماني ، فما تعارف منها في ذلك العالم الى بعضها ائتلف ههنا في هذا العالم الجسماني، وما تناكر منها هناك اختلف ههنا ، قال العلامة المناوي رحمه الله تعالى حول هذا الحديث : فالائتلاف والاختلاف للقلوب والأرواح البشريّة ، التي هي النفوس الناطقة ، مجبولة على ضرائب مختلفة ، وشواكل متباينة ،

فكلّ ما تشاكل منها في عالَم الأمر تعارف في عالَم الخلق ، وكلّ ما كان في غير ذلك في عالم الأمر تناكر في عالم الخلق . اهـ .

ومن الأدلة على تقدم خلق الأرواح ما رواه ابن منده مرفوعاً قال: « خَلَق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام » .

وأوّل الأرواح البشرية خلقاً هو روح السيِّد الأعظم صلى الله علي وسلم كما أخبر عن ذلك بقوله : « كنت أول الناس في الخَلْق وآخرهم في البعث » رواه ابن سعد مرسلا بإسناد صحيح ، ورواه أبو نعيم وابن أبي حاتم في تفسيره وابن لال والديلمي كلّهم من حديث سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « كنتُ أول النبيين في الخَلْق وآخرهم في البعث » . وهذه الرواية تفسِّر رواية ابن سعد وأن المراد من الناس الأنبياء ، فهو صلى الله عليه وسلم أوّلهم في عالَم الأرواح وخاتمهم في عالم الأشباح صلى الله عليه وسلم ، وقد نبّأه الله تعالى في عالَم الأرواح قبل الأنبياء كلِّهم ، فبه فُتحتْ النبوة في عالم الأرواح وبه خُتمتْ في عالم الأشباح صلى الله عليه وسلم . فهو الفاتح وهو الخاتم .

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « قالوا : يارسول الله ، متى وجَبَتْ لك النبوة ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد » وقال الترمذي حديث حسن صحيح غريب ورواه أبو نعيم والبيهقي والحاكم وصحّحه ، ورواه البزار والطبراني وأبو نعيم أيضاً من رواية ابن عباس رضي الله عنهما .

وعن ميسرة الفجر قال : قلت : يا رسول الله متى كنت نبياً ؟ قال : « كنتُ نبياً وآدم بين الروح والجسد » رواه الإمام أحمد والبخاري في التاريخ والطبراني والحاكم وصححه وقال الحافظ الهيثمي في رجال أحمد والطبراني : رجالهما رجال الصحيح . اهـ .

بشارة الملائكة عليهم السلام عند الموت

قال الله تعالى : « إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون نزلاً من غفور رحيم » جعلنا الله منهم ــ فملائكة الله تعالى تتنزّل على المؤمنين أهل الاستقامة عند موتهم وفي قبورهم وبعثهم وحشرهم وفي جميع تقلباتهم في برازخ الآخرة ــ تطميناً لأنفسهم وتأميناً لهم من مخاوف الآخرة وفزعها ؛ يقولون لهم : لا تخافوا مما ستقدمون عليه من العوالم الأخروية ، ولا تحزنوا على ما خلفكم في الدنيا من الولد والأهل والمال ، فإنا نخلفكم فيهم فبعد ما يؤمّنونهم يبشرونهم بالجنة التي كانوا يوعدون بها في الدنيا على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ويقولون لهم ملاطفة ومؤانسة : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا » أي نحن أحباؤكم وأنصاركم ونصحاؤكم في الحياة الدنيا كنا نحفظكم بأمر الله تعالى ، ونثبتكم بإذنه تعالى ؛ كما قال تعالى : « إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم ، فثبّتوا الذين آمنوا » ونحن الذين كنا ننصركم على عدوّكم الشيطاني ، ونلمّ بكم فنلهمكم الخير حين كان الشيطان يزيّن لكم الشر ، كما أننا نحن أحبابكم الذين كنا نحضر معكم في مجالس صلواتكم وعباداتكم وأذكاركم .

« نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة » أي ونحن أولياؤكم في الآخرة تؤنسكم من الوحشة في القبور ، وعند النفخة في الصّور ، وتؤمنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوزكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم آمنين مستبشرين .

وما أشدّ حاجة الإنسان إلى الصديق الصادق وقت الضيق الخانق. ومن ولائهم في الآخرة شهادتهم للمؤمنين عند ربهم بطاعتهم وعباداتهم لأنهم كانوا يشاهدونها في الدنيا ، ويشهدونها معهم .

انذار الملائكة عليهم السلام للكافر عند موته بالعذاب

قال الله تعالى : « ولو ترى إذ الظالمون في غَمَرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهُون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون » .

فإذا نزل الموت بالكفار وصاروا في غمراته وشدائده بسطت الملائكة إليهم أيديهم بالضرب والزجر كما قال تعالى : « ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق » . فهم يضربونهم ويقولون لهم تعنيفاً وإغلاظاً : « أخرجوا أنفسكم » أي أرواحكم من أجسادكم « اليوم تجزون عذاب الهُون » أي اليوم تهانون غاية الإهانة والإذلال بسبب أنكم كنتم في الدنيا تكذِبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله صلوات الله تعالى عليهم ، وهكذا غمرتهم الشدائد غمرة فوق غمرة ، كما يغمر الماء الغريق ، وازدحمت عليهم الكربات ، وتوالت عليهم الضربات بمقامع الحديد ، والعياذ بالله تعالى .

* * *

حسرات الكفار والعصاة حين ينزل بهم الموت وتمنيهم العودة الى الدنيا

قال الله تعالى في الكفار : « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : ربِّ ارجعون لعَلِّي أعمل صالحاً فيما تركتُ كلاّ إنها كلمة هو قائلها ، ومِن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون » .

فهو سبحانه يخبر عن الكافر حين يحتضر أنه يسأل الرجعة للدنيا ليصلح العمل ، كما يسأل الرجعة حين يرى العذاب يوم القيامة ؛ قال تعالى:« وترى الظالمين لمَّا رأوا العذاب يقولون هل إلى مردٍّ من سبيل » كما أنهم يتمنَّون الرجعة ويسألونها حين يدخلون جهنم ، ويستقرون فيها ، قال تعالى : « وهم يصطرخون فيها : ربَّنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل » فيقال في الجواب : « أولم نعمرْكم ما يتذكَّر فيه مَن تذكَّر وجاءكم النذير » أي لقد أعطيناكم عمراً فيه متسع لكم أن تتذكروا وتتعظوا بما جاءت به آيات الله تعالى ، وبما جاءت به رسل الله تعالى ، وبما أنذرتكم به أنبياء الله تعالى صلوات الله عليهم « فذوقوا فما للظالمين من نصير » .

قال قتادة التابعي المفسر في قوله تعالى: « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : ربّ ارجعون لعلي اعمل صالحاً » قال : والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى مال ، ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات ، لكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله ، فرحم الله امرأً عمل بما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار .

وقد أخبر سبحانه عن العصاة المفرطين أنهم يسألون طول المدة في الدنيا وتأخير الموت ليستدركوا مافاتهم في حياتهم الدنيا .

قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تُلْهِكُم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدَكم الموتُ ، فيقول : ربّ لولا أخرتني إلى أجلٍ قريب فأصَّدَّق وأكن من الصالحين » .

فهو سبحانه يأمر عباده المؤمنين بكثرة ذكره ، وينهاهم عن أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذلك ، ويبيّن لهم أن من فعل ذلك فقد خسر نفسه وأهله يوم القيامة ؛ ثم إنه سبحانه يحث عباده المؤمنين على الانفاق في طاعته قبل أن ينزل الموت بأحدهم فيسأل تأخير الأجل ، وقد مضى الزمان ، وفات الأوان .

روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : مَن كان له مال يبلّغه حج بيت ربه ، أو تجب عليه منه زكاة فلم يفعل — أي لم يؤدّ واجبه — سأل الرجعة عند الموت ، فقال رجل يا ابن عباس اتق الله ، فإنما يسأل الرجعة عند الموت الكفار ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : سأتلو عليك بذلك قرآناً « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » إلى قوله تعالى « من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربّ لولا أخرتني إلى أجل قريب » الآيات .

وروى ابن أبي حاتم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصي من القبور ، تدخل عليهم في قبورهم حيّات سُود أو دُهْم ، حية عند رأسه ، وحية عند رجليه يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه ، فذلك العذاب في البرزخ ، قال الله تعالى : « ومِنْ ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون » .

عالَم البَرْزَخ

قال الله تعالى : « ومِن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون » •

البرزخ هو الواقع بين الشيئين ، والمراد بالبرزخ في الآية الكريمة: هو العالم الذي ينتقل إليه الإنسان بعد الموت ، ويبقى فيه الى يوم البعث ؛ فهو عالَم واقع بين الدنيا وبين عالم الآخرة ، وهذا أول البرازخ التي يدخل فيها الإنسان إلى الآخرة ، ويسمى عالَم القبر ، وهو ما يصير إليه الإنسان من حيث جسمه ، فحيثما صار إليه الجسم بعد موته فهو قبره ، ولو في أعماق البحار ، على أن تسميته بعالَم القبر هي أغلبية ، لأن جميع الأموات يصيرون إلى عالم البرزخ ، قُبِروا أم لم يقبروا فإنهم بعد الموت دخلوا في عالم آخر غير عالم الدنيا دخولاً حقيقياً وهو عالم البرزخ •

وعن هانىء مولى عثمان بن عفان قال : كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبلّ لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتذكر القبر فتبكي ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشدّ منه • وقال صلى الله عليه وسلم : ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه » • رواه الترمذي وقال حسن غريب •

وكان عثمان رضي الله عنه ينشد :

فإن تنجُ منها تنج من ذي عظيمةٍ وإلاّ فاني لا إخالكَ ناجيا

فأمر البرزخ ولبثهم في القبور مؤقت كزيارة الزائر المؤقتة ، ثم المصير إلى ما وراء ذلك ، قال الله تعالى : « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » يعني شغلتكم أولادكم وأموالكم ، والتكاثر فيها ، والتنافس عليها حتى متم وزرتم القبور ؛ والزيارة إنما تكون مدةً مؤقتة ثم ينتقل الزائر إلى منزله الذي يقيم فيه ؛ وذلك إما الجنة بالنسبة للمؤمن وإما جهنم بالنسبة للكفار .

روى ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران قال : كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز فقرأ : « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » فلبث هنيهة ــ أي مدة من الزمن ــ ثم قال : يا ميمون ما أرى المقابر إلا زيارة ، وما للزائر بدٌ من أن يرجع إلى منزله . أي الجنة أو النار .

وسمع بعض الأعراب رجلاً يتلو هذه الآية « حتى زرتم المقابر » فقال الأعرابي : بُعث القوم وربِّ الكعبة ؛ يعني أن الزائر سيرحل عما قريب من مقامه إلى غيره .

ويسمى عالم الصُور لأن أرواح الأموات تجتمع فيه ، قال تعالى : « يوم يُنفخ في الصور فتأتون أفواجاً » .

وقد أمرنا الشارع أن نسلّم على الأموات ، ونقوم على قبورهم ، لأنهم يسمعون ويشعرون كأهل الدنيا، بل أقوى ، ولو كانوا لا يسمعون سلاماً ، ولا يرون على قبورهم قائماً ، لكان السلام والقيام على قبورهم عبثاً ، وهذا لا يقع في شرع الله الحكيم العليم البتة .

ولكنهم لا يُسمع لهم جواب ولا خطاب ، لأنهم في برزخ في الآخرة الخفية عن الأبصار ، إلا لمن كشف الله تعالى له عن ذلك كالأنبياء صلوات الله عليهم ، وبعض الاولياء رضي الله عنهم .

كما أن عالَم المنام برزخ بين عالم الأشباح ، وبين عالم الأرواح ، وتظهر فيه بعض أحكام عالمي الأشباح والأرواح ، ومن هنا سُمِّي النوم وفاةً ، كما سُمي الموت وفاة لتشابههما بعض الشبه ، وإن اختلفت حقيقة الوفاتين ، فإن التوفية معناها الأخذ والقبض ، تقول : توفّى دينه — أي استوفاه — .

وقد جاءت التوفية في القرآن على ثلاثة أنواع : توفية النوم ، قال تعالى : « وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » الآية.

وبهذه التوفية تتوجه الروح لعالم آخر مع بقائها في الجسم ، فالحياة ثابتة في الجسم لم تفارقه ، ولكنها توجّهت إلى عالم برزخي ، بين عالم اليقظة وبين عالم الأرواح .

وتوفية الموت ، قال تعالى : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » . الآية . وبهذه التوفية تقبض الروح من الجسم ، فلا حياة فيه كما كان من قبل ، فتلتحق الروح بعالم البرزخ بين الدنيا والآخرة .

وتوفية فيها قبض الروح والجسم معاً ، والأخذ بهما إلى عالم آخر ، قال تعالى في عيسى عليه السلام : « إذ قال الله يا عيسى إني متوفّيك ورافعُك إليّ ، ومطهِّرك من الذين كفروا » الآية .

فقوله تعالى لعيسى إني متوفيك أي قابضك إليّ جسماً وروحاً « ورافعك إليّ » أي رافع جسمك وروحك إلي لأحفظك مما همّ به أعداؤك ، وهو القتل .

ولا يصح أن تفسر التوفية هنا بالموت الذي هو قبض الروح لأنه يصير المعنى حينئذٍ إني متوفي روحك إليّ ، ورافع روحك إليّ ، في حين أن روح كلِّ مؤمنٍ بعد موته ترفع إلى الله تعالى ، وتفتح لها أبواب السماء كما تقدم ، وليس ذلك خصوصية لعيسى عليه السلام .

على أن تفسير التوفية لعيسى بالموت يتنافى حينئذ مع قوله تعالى : « وإنْ من أهل الكتاب إلاّ ليؤمننّ به قبل موته » وهـذا ـ وهو إيمان أهل الكتاب كلهم بعيسى ـ لم يحصل ، فموته لم يحصل إذاً ، لأن عيسى عليه السلام لا يموت حتى يؤمن به جميع أهل الكتاب حتى اليهود إيماناً حقاً ، ومَن لم يؤمن به يقتله عيسى عليه السلام ، وهذا لم يقع ، ولكنه سوف يقع بعدُ حين ينزل في آخر الزمان قربَ الساعة.

كما أن تفسير التوفية لعيسى عليه السلام بالموت لا يصح ، لأنه يتنافى مع الآية قبل هذه الآية وهي قوله تعالى : « ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين ، إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي »الآية.

فمكرُ الله سبحانه وتعالى بالذين قصدوا قتله هو أنه سبحانه ردّ مكرهم عليهم بأن أنجى عيسى ، وقبضه جسماً وروحاً ، ورفعه الله حفظاً منهم وألقى الشبه على الذي حاول قتله ، فقتلوا الشبيه ، وهذا من باب المكر بهم ، ورد مكرهم عليهم .

على أننا لو تتبعنا كيف مكر الله تعالى بالماكرين برسله صلوات الله عليهم لرأينا أن الله تعالى قد حفظ رسله من أعدائهم ، وردّ مكر أعدائهم ، ولم يُشمت رسله بل سلّمهم ونجّاهم ؛ قال تعالى في الذين مكروا برسول الله صالح عليه الصلاة والسلام : « ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمّرناهم وقومهم أجمعين » الآية .

وقال تعالى في كفار قريش الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » وكان مكر الله تعالى بهم أن حفظ رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأخرجه من بين صفوفهم سالماً آمناً ، وهم لا يرونه .

وهكذا عيسى عليه السلام ، لقد حفظه الله تعالى ومكر بالماكرين به ، ورفعه إلى السماء الثانية ، حتى يحين نزوله قبيل الساعة .

قال تعالى : « وإنه لَعِلْمٌ للساعة فلا تمترُنَّ بها » الآية . فنزول عيسى من عـلامات الساعة الكبرى ، كما جاء في الأحاديث النبوية المتواترة ، وليس هنا موضع ذكرها .

* * *

لقاءُ الله تعالى

اعلم أن لقاء الله تعالى هو حقٌّ ، وقد دلت النصوص القرآنية والنبوية على أن هناك عدّة لقاءات يلقى بها العبدُ ربَّه ، وأولها : لقاء العبدِ ربه عقب الموت ، ثم هناك لقاء في الحشر ، ثم لقاء عند الحساب ، وعند الميزان ، وعند عقبات الصراط ، وهكذا لقاءات تتلو لقاءات إلى أن يدخل الجنة فهناك اللقاء والرؤية الدائمة .

أما لقاء الله تعالى عقب الموت ، فقد قال الله تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلاّ على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون » أي يوقنون أنهم ملاقو ربهم عقب موتهم وأنهم إليه راجعون يوم القيامة بعد حشرهم من قبورهم .

وقد جاء ذلك في عدةٍ من الأحاديث النبوية :

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : « إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقّاها ملكان يُصعدانِها ــ قال حماد الرواي ــ فذكر من طيب ريحها وذكر المسك قال : ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قِبل الأرض صلى الله عليكِ وعلى جسد كنتِ تعمرينه ، فيُنطَلَق به إلى ربه عزَّ وجلّ ثم يقول : انطلقوا به إلى آخر الأجل . قال : وإن الكافر إذا خرجت روحه ــ قال حمّاد ــ وذكر من نَتْنها وذكر لعناً ــ ويقول أهل السماء : روح خبيثة ، جاءت من قبل الأرض فيقال : انطلقوا به إلى آخر الأجل . قال أبو هريرة : فردَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رَيْطَةً كانت عليه على أنفه هكذا » .

والرَيطة هي ثوب رقيق أو الملاءة وفعل ذلك كما هو شأن من شمّ رائحة خبيثة كيف يضع على أنفه ما يمنع تلك الرائحة المستقذرة ؟ .

وقد جاء حديث أبي هريرة هذا في مسند الإمام أحمد بلفظ عن: أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدةً ، وأبشري برَوحٍ وريحان ، وربٍّ غير غضبان ، قال : فلا يزال يقال لها حتى تخرج ثم يُعرَج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : مرحباً بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب ، أدخلي (أي السماء) حميدةً ، وأبشري برَوْح ورَيحان ، وربٍّ غير غضبان ، قال : فلا يزال يقال لها ذلك حتى يُنتهى بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل . (أي السماء التي يتجلى الله تعالى له فيها) .

وفي رواية في المسند عن البراء حتى يُنتهى بها إلى السماء السابعة، وفي رواية أنه سبحانه يتجلى للمؤمن باللقاء في ذلك الموطن .

وإذا كان الرجل السوء قالوا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث أخرجي ذميمةً ، وأبشري بحميم وغَسَّاق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، إرجعي ذميمة فإنك لا تفتح لك أبواب السماء ، فيرسل من السماء ، ويصير إلى القبر . الحديث .

قال الحافظ ابن كثير : ورواه النسائي وابن ماجه من طريق ابن أبي ذئب بنحوه . اهـ .

وقال الله تعالى : « كلاّ إذا بلغتِ التراقيَ وقيل مَن راق ، وظنّ أنه الفراق والتفت الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ المَساق » .

والمعنى ازدجر أيها العاقل عمّا أنت فيه من الفساد والضلال والغفلة ، وتذكّر ذلك اليوم الذي يأتي عليك إذا بلغت الروح التراقي ـ جمع ترقوة ، وهي أعالي الصدر ، والعظـام المكتنفة ثغرة النحر عن يمينه وشماله ـ (وقيل مَن راق) القائل ذلك إما الناس ، وهم من حَضَر عنده من أقاربه وأصحابه ، حين رأوه في تلك الحالة ؛ فقال كلٌّ منهم من يَرقيه مما هو فيه رقيةً يشفى بها ، ويذهب عنه ما هو فيه من المرض ؛ وإما القائل ذلك هم الملائكة عليهم السلام لبعضهم أيكم يرقى بروحه ، أي يعرج بها الى السماء ؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟ حتى يأمر الله تعالى أحدهما بذلك ، قال تعالى : « والنازعات غرقاً » أي الملائكة تنزع روح الكافر بشدّة « والناشطات نشطاً » أي الملائكة تنزع روح المؤمن بسهولةٍ ورفقٍ .

فيكون ذلك من الرقي لا من الرقية ، ويؤيد هذا المعنى ما جاء في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعةً وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلّ على راهبٍ (أي عابد ليس بعالم) فأتاه فقال له : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا . فقتله ، فكمّل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلّ على رجلٍ عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، مَن يحول بينك وبين التوبة ؟! إنطلق الى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ، ولا ترجع الى أرضك فانها أرض سوء فمشى حتى إذا انتصف الطريق فأتاه ملك الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه الى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم (أي حَكَماً) فقال : (أي عن أمرٍ من الله تعالى) : قيسُوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان

أدنى ــ أقرب ــ فهو له ، فقاسوا ، فوجدوه أدنى الى الأرض التي أراد ، فقبضتْه ملائكة الرحمة وفي رواية الى القرية الصالحة أقرب بشبرٍ ، فجُعِل من أهلها ، وفي رواية فأوحى الله تعالى الى هذه أن تباعدي ، والى هذه أن تقرّبي ، وقال : قِيسُوا بينهما ، فوجدوه الى هذه أقرب بشبر فقط ، وفي رواية الطبراني أقرب بأنملة » .

« وظنّ أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق » والمعنى أن ذلك المحتضر أيقن أنه صار في فراقٍ للدنيا ، مالِها وأهلها ، والتفت عليه شدّة فراق الدنيا بشدة إقبال الآخرة ، وهول الدخول في عالمٍ غريب عنه ، لا أنيس معه ولا جليس ولا صديق و لارفيق إلا أهل الإيمان والعمل الصالح ، فإنهم لا يَشقَون ولا يشقى بهم جليسهم . يُحِلّ الله تعالى عليهم الأمان الرضوان فهم في عيش طيّب .

« إلى ربك يومئذٍ المساق » أي يُقال لذلك المحتَضر : اليوم تساق الى الله تعالى ، والى حكم أحكم الحاكمين .

وهــذه الآية كما قال بعضهم رضي الله عنهم ــ بشارة للمؤمن الذي حسن ظنه بربه تعالى ، وعلم أن المساق الى الربّ الذي سبقت رحمتُه غضبه ؛ وإنذار للكافر الذي لم يؤمن ولم يُوقن بالآخرة .

روى الإمام أحمد عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجلٍ من الأنصار ، فانتهينا الى القبر ولمّا يُلحد ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حولَه ، كأنّ على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض ، فرفع رأسه فقال : « استعيذوا بالله من عذاب القبر مرّتين أو ثلاثاً ، ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأنّ وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحَنوط من حَنوط الجنة ،

حتى يجلسوا منه مَدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي الى مغفرةٍ من الله ورضوانٍ ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في ــ أي فم ــ السِقاء ــ أي بسهولة ورفق ــ ، فيأخذها ــ أي ملك الموت ــ فإذا أخذها لم يَدَعوها ــ أي لم يتركوها ــ في يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على سطح الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرّون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمّونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا به الى السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيّعه من كل سماء مقرّبوها الى السماء التي تليها ، حتى يُنتهى به الى السماء السابعة ، فيقول الله تعالى : اكتبوا كتاب عبدي في علّيين ، وأعيدوه الى الأرض ، فإني فيها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، وفيها أخرجهم تارةً أخرى ، قال : فتُعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : مَن ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان : ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ، فيقولان له : وما عِلمُك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدّقتُ ، فينادي منادٍ من السماء : أن صدق عبدي ، فأفرشوه في الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً الى الجنة ؛ قال : فيأتيه من رَوْحها وطيبها ، ويُفسَح له من قبره مَدّ بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيّب الريح ، فيقول: أبْشِر بالذي يَسرّك هذا يومك الذي كنت تُوعَد ؛ فيقول له : مَن أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول العبد الميت : ربّ أقِم الساعة حتى أرجع الى أهلي •

قال صلى الله عليه وسلم : « وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبالٍ من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء،سود الوجوه، معهم المُسُوح (أي الجلود الغليظة) فجلسوا منه مَدَّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجي الى سخطٍ من الله وغضب ، قال : فتفرّق في جسده فينزعها كما ينزع السَّفُّود (أي حديدة ذات شوك) من الصوف المبلول ، فيأخذها ملك الموت ، فإذا أخذها لم يَدَعُوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في المُسُوح ، فيخرج منها كأنتن ريح جيفةٍ وُجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرّون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يُسمّى بها في الدنيا ، حتى يُنتهى بها الى السماء ، فيستفتح له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمِّ الخِيَاط » الآية .

فيقول الله تعالى : اكتبوا كتابه في سِجِّين في الأرض السفلى فتُطرح روحه طرحاً ثم قرأ صلى الله عليه وسلم : « ومَنْ يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق » .

فتعاد روحه الى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له : مَنْ ربُّك ؟ فيقول : هاهْ هاهْ لا أدري . فيقولان له : ما دينُك ؟ فيقول : هاهْ هاهْ لا أدري . فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاهْ هاهْ لا أدري . فينادي منادٍ من السماء أن كَذَب عبدي فأفرشوه في النار وافتحوا له باباً من النار فيأتيه من حرِّها وسمومها ويُضيَّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشرْ بالذي يسوءُك هذا

يومك الذي كنت توعد فيقول : ما أنت فوجهك القبيح يجيء بالشرّ فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول : ربّ لا تُقِم الساعة (١)» . أي خوفاً من دخول النار التي فتح إليه باب منها .

ثم أخبر سبحانه عن الانسان الكافر وسوءِ عاقبته فقال سبحانه : « فلا صَدّق ــ أي بالآخرة وعقابها ــ ولا صلّى ولكن كـذّب وتولّى » الآيات .

* * *

(١) انظر ترغيب المنـذري ٤ : ٣٦٨ وقال : هـذا الحديث حديث حسن اهـ وأورده ابن كثير بروايات مختلفة .

الناس على مراتب في لقاء ربهم تعالى

هنالك نوع يلقون الله تعالى بتحية وتكريم على محبة ورضوان وهم المؤمنون الصالحون قال تعالى : « تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعدّ لهم أجراً كريماً » . ففي كل لقاءٍ يلقونه سبحانه يكرمهم بالسلام والفضل والإنعام وأول اللقاءات ما كان بعد الموت . جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) قالت عائشة رضي الله عنها : فقلت يا نبيّ الله أكراهية الموت فكلّنا يكره الموت ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : (ليس كذلك ، ولكنّ المؤمن إذا بُشّر برحمة الله ورضوانه وجنته ــ أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه » . وفي رواية لمسلم : قالت عائشة رضي الله عنها : « ولكن إذا شخص البصر وحشرج الصدر واقشعرّ الجلد وتشنجت الاصابع فعند ذلك مَنْ أحبّ لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » .

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : فهمتْ السيدة عائشة رضي الله عنها أن هذا خبر عمّا يكون من الأمرين في حال الصحة فقالت : كلنا يكره الموت فقال صلى الله عليه وسلم لها : ليس كذلك وإنما هو خبر عما يكون من ذلك عند النزع وفي وقتٍ لا يقبل فيه التوبة فإن الله تعالى يكشف له عن كل ما يَصير له فأهل السعادة يرون ما يحبّون فيحبون لقاء الله تعالى ليصلوا الى ما رأوا فيحبّ الله لقاءهم ، وأهل الشقاء يرون ما يسوءهم فيكرهون لقاء الله تعالى فيكره الله تعالى لقاءهم . اهـ .

ومن كُمَّل أهل التحية والاكرام والرضوان والانعام ـ الشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله تعالى • ففي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه في قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار الذين قُتلوا ، قال أنس رضي الله عنه : ونزل فيهم قرآن قرأناه حتى رُفع : بَلِّغوا عنّا قومنا أنّا قد لقينا ربَّنا فرضيَ عنا وأرضانا » •

وروى الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة وأنا مهتمٌ فقال صلى الله عليه وسلم : مالي أراك منكسراً ، فقلت : استشهد أبي يوم أحد وترك عيالاً ودَيْناً فقال : ألا أبشرك بما لقيَ الله به أباك ؟ قلت : بلى ، فقال صلى الله عليه وسلم : (ما كلّم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب وانه أحيا أباك فكلمه كفاحاً ـ أي مواجهة بغير حجاب ـ فقال يا عبدي تمنَّ عليَّ أعطك ، قال يارب تحييني فأقتل ثانيةً فقال سبحانه وتعالى : إنه سبق القول مني أنهم لا يَرجعون فنزلت : « ولا تحسبَنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً » الآية • ورواه ابن مردويه والبيهقي كما في تفسير ابن كثير •

وهناك نوع من الناس يلقون الله تعالى وهو عليهم غضبان بسبب أوامر تركوها أو محرَّماتٍ ارتكبوها •

روى البزار والطبراني في الكبير بإسناد حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما قام بصري (أي ذهب بصره) قيل له : نداويك وتدع الصلاة أيّاماً فقال : لا ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مَنْ ترك الصلاة لقي الله وهو عليه غضبان) • فتارك الصلاة يلقى الله وهو عليه غضبان •

وروى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تَحبَّب الى الناس بما يحبون

وبارز الله بما يكرهون لقي الله وهو عليه غضبان » فالمرائي والمنافق يلقى الله تعالى وهو غضبان عليه •

وعن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ غَصب رجلاً أرضاً ظلماً لقي الله وهو عليه غضبان » • قال المنذري رواه الطبراني من رواية يحيى بن عبدالحميد الحماني اهـ •

وكذلك من حلف بالله كاذباً ليقتطع به مال امرىء مسلم بغير حقه فقد روى الامام مسلم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه لقي الله وهو عليه غضبان ثم قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقه في كتاب الله « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا•• » الى آخر الآية•

وأما الكفار فانهم يصيرون الى غضب الله تعالى بعد الموت كما تقدم في الحديث •

ومن الذين يلقون ربهم بعد الموت وهو عليهم غضبان ــ أناس نقضوا عهد الله وتولّوا وهم معرضون • قال تعالى : « ومنهم مَنْ عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصّدقنّ ولنكوننّ من الصالحين • فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولّوا وهم معرضون • فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم الى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » •

فقد بيّن الله تعالى في هذه الآية حال الذين يعاهدون الله على التصدق والإنفاق والبذل في طرق الخير وعلى اصلاح العمل مع الله تعالى ــ اذا تفضّل عليهم فأوسع عليهم وأكثر لديهم الأموال وأخرجهم من الشدّة الى الرخاء ومن الضيق الى السعة ثم انهم بعد ذلك ينقضون عهد الله تعالى ويخلفونه ما وعدوه ولا يؤدّون ما التزموه فبخلوا وأمسكوا وقطعوا أرحامهم ومنعوا وكفروا نعمة الله تعالى فلم يشكروا •

فهنالك حلّ عليهم غضب الله تعالى فضرب على قلوبهم النفاق فهو لا ينفك عنهم ولا ينفكون عنه الى يوم يلقونه أي الى يوم موتهم الذي فيه يلقون ربهم وهو سبحانه غضبان عليهم ، ومن المحتّم أن يكون المراد بيوم يلقونه ـ هو يوم موتهم لأنه لا يتصوّر استمرار النفاق بهم الى ما وراء الموت الى يوم القيامة لأن مَنْ مات عاين الحقيقة ودخل في عالم اليقين وانكشفت له الأمور الايمانية التي كان يرتاب فيها حين كان في الدنيا .

روى الطبراني عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بأعرابيٍّ وهو يدعو في صلاته يقول : يا مَنْ لا تراه العيون. ولا تخالطه الظنون ، ولا يصفه الواصفون ، ولا تغيّره الحوادث ، ولا يخشى الدوائر ، ويعلم مثاقيل الجبال ، ومكاييل البحار ، وعدد قطر الأمطار ، وعدد أوراق الأشجار ، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار ، ولا تواري منه سماء سماءً ، ولا أرض أرضاً ، ولا بحر مافي قعره ولا جبل مافي وعره ـ اجعل اللهمّ خير عمري آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم ألقاك فيه . الحديث .

قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني في الاوسط ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الاذرمي وهو ثقة. اهـ .

* * *

السؤال في البرزخ

جاء في الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة ما يدلّ قطعاً على أن سؤال القبر هو حق وهو يتناول المسلم والكافر والمنافق .

قال الحافظ في الفتح: واختلف في الطفل غير المميّز فجزم القرطبي في التذكرة بأنه يُسأل وهو منقول عن الحنفية ، وجزم غير واحدٍ من الشافعية بأنه لا يُسأل . اهـ . فيسأل الميت عن اعتقاده بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ـ على وجه الاختبار والامتحان والفحص والتمحيص وهناك يدهش المسؤول أو يذهل أو يَحار لهول الموقف إلا أهل الإيمان الراسخ فإنه سبحانه يثبّتهم ويلهمهم الجواب السديد .

قال الله تعالى : « يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويُضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » .

فهو سبحانه يثبت الذين آمنوا إيماناً صادقاً لا نفاقاً بالقول الثابت وهو لا إله إلا الله محمد رسول الله فإن هذا هو القول الثابت كما يدلّ عليه الحديث الآتي وليس هناك أثبت من لا إله إلا الله محمد رسول الله ، بل قول لا إله إلا الله محمد رسول الله هو أثبت الثابتات وأقوى اليقينيات وأقوم القطعيّات ، ذلك لأن قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ثبت بجميع الأدلة التي ثبتت بها الثابتات وبجميع البراهين القاطعة التي ثبتت بها اليقينيات فإن من المعلوم المقرّر عند أهل العلم والفكر أن الأدلة التي ثبتت بها الأمور مهما كثرت فإنها ترجع الى أصلين عظيمين : البرهان والعيان .

ولا ريب أن الله تعالى قد أشهد العباد مشاهد لا إله إلا الله محمد رسول الله في آيات الأكوان المرئية المشهودة بالعيان ، وفي آيات القرآن التي جاءت بالحجة والبرهان العقلي •

فهـذه آيات الأكوان مَنْ نظر فيهـا واعتبر في اتقان صنعها وإحكام خلقها وإبداع وجودها رأى آثار قدرة ربّ العالمين وحكمته وسعة علمه سبحانه وعظيم قوته قال تعـالى : « قل انظـروا ماذا في السموات والأرض » الآية •

وقال سبحانه : « اللهُ الذي خلق سبع سمواتٍ ومن الأرض مثلهنّ يتنزّل الأمر بينهنّ لتعلموا أن الله على كل شيءٍ قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما » وهذه الآيات الكونيّة المشهودة المرئية التي أجراها الله تعالى على يد النبي صلى الله عليه وسلم والتي تسمى بالمعجزات وخوارق العادات كلّها مشاهد تشهد العاقل أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذه مشاهد العيان ، وأما شواهد البرهان وأدلته فهذه الآيات القرآنية تبرهن على أن الله تعالى حقّ وأنه واجب الوجود وأن هذا القرآن كلامه قطعاً وتبرهن على صدق هذا النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنه رسول الله حقاً لا يحتمل غير ذلك فإن القرآن العظيم هو أعظم المعجزات والآيات الدالّة على صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة متعددة • ولنا في غير هذا الكتاب بحث واسع مفصل في بيان هذه المشاهد التي تشهد العاقل أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله •

قال تعالى : « يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة» الآية• أما تثبيتهم في الحياة الدنيا فهو مما يعتريهم من الوساوس والشبُهات الشيطانية من قِبل الانس والجن وحفظهم من الزيغ والميل الى الضلال •

وأما تثبيتهم في الآخرة فذاك حين يُسألون في قبورهم كما جاء في الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المسلم إذا سُئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فذلك قوله تعالى : « يثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » • فالمراد بتثبيته في الآخرة تثبيته عند سؤال القبر فما بعده لأن القبر هو أول برازخ الآخرة وقد جاء تفصيل هذا السؤال في بقية الأحاديث النبوية •

روى الشيخان وغيرهما واللفظ للبخاري عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا وُضع في قبره وتولّى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا ــ أتاه ملكان فيُقعدانه فيقولان له : ما كنتَ تقول في هذا الرجل محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر الى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة قال النبي صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعاً » أي يرى معقده من الجنة ليفرح ويستبشر ويرى مقعده من النار ليشكر نعمة الله عليه حيث نجّاه منها •

وفي رواية لمسلم : قال قتادة : وذُكر لنا أنه يُفسح له في قبره سبعون ذراعاً ويُملأ عليه خضراً الى يوم يبعثون • وقال صلى الله عليه وسلم : « وأما الكافر والمنافق وفي رواية وأما الكافر والمرتاب فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيه ، فيقال : لا دَرَيتَ ولا تليتَ ثمَّ يُضرب بمطرقة من حديدٍ بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين » يعني الانس والجنّ •

وروى الترمذي بتحسينٍ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان زرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير فيقولان له : ما كنتَ

تقول في هذا الرجل ؟ فيقول ما كان ـــ في الدنيا ـــ يقول هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يُفسَح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً ثم ينوَّر له فيه ثم يقال له : نمْ ، فيقول : أرجِـــعُ إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نمْ كنومة العَروس الذي لايوقظه إلا أحبّ أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك .

وإن كان منافقاً قال سمعتُ الناس يقولون قولاً فقلت مثله لا أدري » أي كان في الدنيا يقول ذلك بلسانه ولكن لا يعتقد بذلك اعتقاداً جازماً من قلبه ولذلك يقول لا أدري « فيقول ـــ أي الملكان ـــ قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض التئمي عليه فتلتئم فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذَّباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » .

وروى الشيخان وغيرهما عن أسماء رضي الله عنها أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم حمد الله وأثنى عليه ثم قال : « ما مِن شيء لم أكن أُريته إلاَ رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار فأوحي إليّ أنكم تُفتَنون في قبوركم مثلَ أو قريباً ـــ شك الراوي عن أسماء ـــ من فتنة المسيح الدجال يقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن أو الموقن لا أدري أيَّهما قالت أسماء فيقول : هو محمد رسول الله جاءنا بالبينات والهُدى فأجبناه واتبعناه هو محمَّد ثلاثاً فيُقال : نَمْ صالحاً قد علمنا إن كنتَ لموقناً به ، وأما المنافق أو المرتاب ـــ لا أدري أيهمـــا قالت أسماء ـــ فيقول لا أدري سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلتُه » .

وفي هذا دليل على أن محنة السؤال في القبر عظيمة جداً ولذلك قال فيها صلى الله عليه وسلم : « مثل فتنة الدجال » ولا ينجو ويأمن منها إلا المؤمن الصادق بعناية الله تعالى . اللهم اجعلنا منهم .

روى أبو داود في سننه عن عثمان رضي الله عنه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال : استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل » .

تلقين الميت :

لقد نصّ أئمة الفقهاء والمحدثين على استحباب تلقين الميت بعد ما يُدفن وذلك بأن يجلس إنسان عند رأسه ويقول يا فلان ابن فلان ويا عبد الله ابن عبد الله وأمته اذكر العهد الذي خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حقٌّ ، وأن النار حقٌّ ، وأن البعث حقٌّ ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث مَنْ في القبور ، وأنك رضيتَ بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخوانا . اهـ .

ذكر ذلك الإمام النووي في شرح المجموع قال : وسُئل الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله عنه (أي عن تلقين الميت) فقال : التلقين هو الذي نختاره ونعمل به ، قال — ابن الصلاح — ورَوَينا فيه حديثاً من حديث أبي أمامة ليس إسناده بالقائم لكن اعتضد بشواهد وبعمل أهل الشام قديماً . هذا كلام أبي عمرو . اهـ .

قال النووي رحمه الله بعد نقله كلام أبي عمرو : قلتُ حديث أبي أمامة رواه أبو القاسم الطبراني في معجمه بإسناد ضعيف ولفظه عن سعيد بن عبد الله الأزدي قال شهدت أبا أمامة رضي الله عنه وهو في النزع فقال : إذا متّ فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إذا مات أحد من إخوانكم فسوَّيتم التراب على قبره فليقم أحدكم على رأس قبره وليقل يا فلان ابن فلانة فإنه يسمعه ولا يجيب ، ثم يقول : يا فلان ابن فلانة فإنه يستوي قاعداً ، ثم يقول :

يا فلان ابن فلانة فإنه (الميت) يقول أرشدنا رحمك الله ، ولكن لا تشعرون (أي بكلامه ولا بقعوده) فليقل اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنك رضيت بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالقرآن إماماً ، فإن منكراً ونكيراً يأخذ كل واحد منهما بيد صاحبه ويقول انطلق بنا ما نقعد عند من لُقِّن حجته . قالوا يا رسول الله فإن لم نعرف أمه ؟ قال فينسبه الى أمه حواء يا فلان ابن حواء » .

قال الامام النووي بعد ما أورد هذا الحديث : قلت فهذا الحديث وإن كان ضعيفاً فيستأنس به قال وقد اتفق علماء الحديث وغيرهم على المسامحة في أحاديث الفضائل والترغيب والترهيب وقد اعتضد بشواهد من الأحاديث كحديث « اسألوا له التثبيت » ووصية عمرو بن العاص وهما صحيحان ولم يزل أهل الشام على العمل بهذا في زمن مَن يُقتدى به والى الآن ، وهذا التلقين إنما هو في حق المكلَّف الميت ، أما الصبي فلا يلقَّن والله أعلم . اهـ كلام النووي(١) .

وقد استدل كثير من العلماء أيضاً على مشروعية التلقين بعد الدفن بما رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله » . وزاد الطبراني في روايته وقولوا : « الثباتَ الثبات ولا حول ولا قوة إلا بالله » . فقالوا : الميت حقيقةً هو من مات بالفعل وأما اطلاق الميت على المحتضر فهو من باب المجاز، وإن كان حمل الكلام على الحقيقة هو الأصل ولاسيما وأن بعض الروايات ترجح المعنى المجازي وبعضها يرجح المعنى الحقيقي فالأحوط العمل بهما معاً . كما أوضح ذلك العلامة الكمال بن الهمام رحمه الله تعالى في فتح القدير .

---

(١) انظر المجموع ٥ : ٣٠٤ ، وانظر كتاب الروح .

نعيم القبر وعذابه

جاء في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما يدل قطعاً على أن نعيم القبر حقّ وعذاب القبر حق يجب الاعتقاد بهما .

أما الآيات فنذكر جملة منها : قال الله تعالى : « فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذٍ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تُبصرون . فلولا إن كنتم غير مَدينين ترجعونها إن كنتم صادقين . فأمّا إن كان من المقرّبين فرَوح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين . وأمّا إن كان من المكذّبين الضالّين فنُزُل من حميم . وتصلية جحيم . إن هذا لهو حقّ اليقين . فسبِّح باسم ربك العظيم » .

ففي هذه الآيات الكريمة بيان أصناف الناس بعد الموت وأنهم ما بين مُنعَّم ومُعذَّب .

قال تعالى : « فلولا إن كنتم غير مَدينين » تحت قدرة الله تعالى وحكمه «ترجعونها» أي الروح الى جسدها بعد ما فارقته وأنتم تنظرون الى جسد الميت « ان كنتم صادقين » من أنكم تعجزون الله وانكم لستم في حيطة قدرته وإرادته النافذة فيكم « فأما إن كان » أي الميت « من المقربين » وهم الذين تقرّبوا إلى الله تعالى بالنوافل فوق الواجبات وليس عندهم مباحات بل جميع أعمالهم طاعات فقرّبهم إليه سبحانه قرباً خاصاً كما جاء في الحديث القدسي : « وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه » ــ الحديث ــ كما في صحيح البخاري .

ويُسمَّون بالسابقين قال تعالى : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » وهم الذين سبقوا بالخيرات بإذن ربهم أي بالنوافل العملية

والقولية والقلبية والسمعية والبصرية ولنا بحث واسع حول مراتب القُرب كما جاء في الكتاب والسنة في غير هذا الكتاب « فأما إن كان من المقرَّبين فرَوْح وريحان وجنة نعيم » أي فله روح أي راحة وسرور « وريحان » أي رزق حسن « وجنة نعيم » ينعم فيها بأنواع الملاذّ والنعيم « وإما إن كان من أصحاب اليمين » وهم الذين قاموا بالواجبات وانتهوا عن المحرمات وليس عندهم كثرة نوافل وعندهم أفعال مباحة فعلوها باعتبار أنها مباحة « فسلام لك من أصحاب اليمين » أي تقول له الملائكة عند الموت سلام لك أي لا تخف أنت الى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين أو المعنى فسلام لك أي مُسلَّم لك أنت من أصحاب اليمين فيبشرونه بسلام وبأنه من أصحاب اليمين وعلى كلٍّ فهو خطاب للجنس أي جنس أصحاب اليمين أو معنى قوله تعالى : « فسلام لك من أصحاب اليمين » أي ثبت لك السلام وحصل أي فسلام لك يا من هو من أصحاب اليمين ، كما تقول هنيئاً يا مَنْ هو منهم . ولهذا أتى بحرف « مِنْ » في قوله : « من أصحاب اليمين » والجار والمجرور في موضع حال أي سلام لك كائناً أي حال كونك من أصحاب اليمين كما تقول : هنيئاً لك من أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم أي كائناً منهم ، وإنما جيء « لك » هنا فقال « فسلام لك » ولم يؤت بعلى كما هو في سلام التحية وذلك لأن المدعوّ به من الخير والشر قد يضاف الى صاحبه بلام الاضافة أي ينسب لصاحبه باللام لتدلّ على حصوله له لا محالةَ ، ومن ذلك قوله تعالى في الكفار « أولئك لهم اللعنة » ولم يقل عليهم اللعنة إيذاناً بحصول اللعنة وثبوتها لهم ، ومن ذلك قوله تعالى في الكفار « ولكم الويل مما تصفون » ويقال للمؤمنين : لكم الرحمة ولكم البشرى ولكم التحية ولكم السلام ومنه قوله تعالى : « فسلام لك » أي ثبت السلام وحصل لك أيّها المؤمن وأنت من أصحاب اليمين .

« وأمّا إن كان من المكذّبين الضالّين فنزل من حميم » أي فضيافته المعجّلة له هي من الحميم المُـذاب الذي يُصهَر به ما في بطونهم والجلود « وتَصْليه جحيم » أي تغطية وغمرة له في جحيم من العذاب . أعاذنا الله العظيم من ذلك وفي هذا دليل على نعيم القبر وعذابه وأن ذلك يحصل عقب الموت فوراً كما دلّت عليه الفاء .

وقال تعالى : « يا أيّتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضيّة فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

ذهب كثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم الى أن هـذا الخطاب للنفس يقال لها عنـد الموت وعند النشر ، روى ابن جـرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم عن سعيد بن جُبير قال : قرئت عند النبي صلى الله عليه وسلم آية « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية » فقال أبو بكر رضي الله عنه : إن هذا لَحَسن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمَا إن الملك سيقولها لك عند الموت » وروى الطبراني وغيره عن سعيد بن جبير أنه لما مات ابن عباس رضي الله عنهما تُلِيتْ هذه الآية على شفير القبر ولا يُدرى من تلاها وقد سمعهـا الحاضرون كلهـم . نعم تلاها الملك بأمر من الله تعالى تكرمةً لابن عباس رضي الله عنهما .

وقال الله تعالى:« ولو ترى إذ الظالمون في غَمَرات الموت،والملائكة باسطوا أيديهم أخْرِجوا أنفسكم اليوم تُجزَون عـذاب الهُون بما كنتم تقولون على الله غيرَ الحقِّ وكنتم عن آياته تستكبرون » أي : لا تمتثلون أوامرها ولا تجتنبون مناهيها استكباراً منكم وإعراضاً عنها فقول الملائكة لهم اليوم أي يوم موت الظالمين« تُجزون عذاب الهُون » وهذا صريح في تعذيبهم في قبورهم عقب موتهم .

وقال تعالى : « وممَّن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا عــلى النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم » • فالعذاب العظيم هو عذاب جهنم في الآخرة وهو مسبوق بعذابٍ مرتين : مرة في الدنيا ومرة ثانية في القبر •

وقال الله تعالى : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العــذاب الأكبر لعلَّهم يرجعون » وقد استدل حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وغيره من الصحابة والتابعين بهذه الآية الكريمة على إثبات عذاب القبر وذلك أن الله تعالى أخبر عن المنافقين والكفار أن لهم عذابين أدنى وأكبر وأنه سبحانه يذيقهم الآن في الدنيا بعض العذاب الأدنى وذلك بتسليط أنواع البلاء عليهم لعلهم يرجعون الى الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح وأنه سبحانه يذيقهم البعض الآخر من هذا العــذاب الأدنى بعد الموت وهم في البرزخ •

أمَّا يوم القيامــة فلهم العــذاب الأكبر الذي قال فيه سبحانه : « إلاَّ مَنْ تولَّى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر » •

وقال تعالى : « وحاق بآل فرعون سوء العذاب • النار يُعرضون عليهــا غدوّاً وعشيَّاً ويوم تقوم الساعــة أدخِلوا آل فرعــون أشدَّ العذاب » •

وهذه الآية أصل كبير فى الاستدلال على عذاب البرزخ في القبور وذلك أن قوم فرعون بعد ما احاط بهم سوء العذاب وهو الغرق في اليمّ انتقلوا بعد موتهم الى عذاب البرزخ فهم يُعرَضون على النار صباحاً ومساءً يَمسُّهم عذابها ويلفحهم لهبها وشظاها الى أن تقوم الساعة فحينئذ يقول الله تعالى : « أدخِلوا آل فرعون أشدَّ العذاب » وهو الصليّ في جهنم وإذاقتهم ألوان العذاب الأليم •

وأما الأحاديث الدالة على حقيَّة نعيم القبر وعذابه :

فمنها ما رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدكَ حتى يبعثك الله عزّ وجلّ إليه يوم القيامة » .

عذاب الكفار في قبورهم :

روى مسلم في صحيحــه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائطٍ لبني النجار على بغلة له ونحن معه إذ جادت(١) به (أي مالت ونفرت) فكادت تلقيه وإذا أقبر ستة أو خمسة . فقال صلى الله عليه وسلم مَنْ يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ فقال رجل : أنا (أي أعرفهم) فقال صلى الله عليه وسلم : متى ماتوا ؟ (أي في الجاهلية أو بعدها فهم مشركون أو مؤمنون) قال في الشرك (أي في صفة الشرك(٢)) فقال صلى الله عليه وسلم : إن هذه الأمَّة تُبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا(٣) لدعوتُ الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ثم أقبل علينا بوجهه صلى الله عليه وسلم فقال : تعوّذوا بالله من عذاب النار قالوا : نعوذ بالله من عذاب النار ،

---

(١) يروى بالحاء المهملة وهو الصحيح وقيل بالجيم من الجودة بالضم . اهـ مرقاة .

(٢) قال الحافظ ابن حجر : أي ماتوا مشركين بعد بعثتك يا رسول الله بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « إن هذه الأمة تبتلى في قبورها » أي بالعذاب فيها اهـ .

(٣) يعني أنه لو كشف لكم عن عذاب المقبورين وسمعتم ذلك لفزعتم وخفتم حتى إنكم تتركون دفن بعضكم من شدّة خوفكم فلولا مخافة عدم التدافن إذا كشف لكم لدعوت الله أن يكشف لكم فيسمعكم عذاب المقبورين .

قال : تعوّذوا بالله من عذاب القبر فقالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال : تعوّذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن قالوا : نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال : تعوّذوا بالله من فتنة الدجال ، قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجّال » .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَيُسلّط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تِنّيناً(١) تنهشه وتلدغه(٢) حتى تقوم الساعة لو أن تنيناً منها نفخ في الأرض ما أنبتت خضراً » ، قال في المشكاة : رواه الدارمي وروى الترمذي نحوه . اهـ .

عذاب العُصاة في البرزخ :

جاء في كثير من الأحاديث النبوية ما يدل على أن العصاة الذين لم يتوبوا قبل موتهم يعذّبون في البرزخ بمعاصيهم على اختلاف أنواعها .

فمن ذلك عذابُ النمّام والغيّاب والذي لم يستتر ولم يتحرّز من بوله . روى الشيخان واللفظ للبخاري عن ابن عباس قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم على قبرين فقال : « إنهما لَيُعذّبان وما يعذّبان

---

(١) قال في المرقاة : التنّين حيّة عظيمة كثيرة السُم ووجه تخصيص العدد لا يعلم إلا بالوحي ويحتمل أن يقال إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً فالكافر أشرك بمن له هذه الأسماء فسُلّط عليه بعددها . وقال حجة الاسلام : عدد التنين بعدد الأخلاق الذميمة التي فيه فإنها تنقلب في الآخرة الى الحياة لأن الدنيا عالم الصور والآخرة عالم المعنى . ا هـ .

(٢) النهش : هو القطع بالسنّ من غير إرسال السمّ فيه ، واللدغ : ضرب السنّ بلا قطع مع إرسال السم فيه . اهـ مرقاة نقلا عن الأبهري .

في كبيرٍ[(١)] أمَّا هذا فكان لا يستتر[(٢)] من بوله ، وأما هــذا فكان يمشي بالنميمة ثم دعا رسول الله بعَسيبٍ رطب فشقَّه باثنين فغرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ثم قال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا ».

وجاء في رواية للبخاري في الأدب المفرد: « أمَّا أحدهما فكان يغتاب الناس » . وروى الامام أحمد والطبراني من حديث يعلى بن سِيابة أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ على قبرٍ يُعذَّب صاحبه فقال : « إن هذا كان يأكل لحوم الناس (أي بالغيبة) الحديث . قال في الفتح : ورواته موثوقون . اهـ .

وجاء في رواية صححها ابن حبَّان من حديث أبي هريرة بلفظ : « وكان الآخر يؤذي الناس بلسانه ويمشي بينهم بالنميمة » .

وروى أبو داود عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لما عُرِج بي مررتُ بقومٍ لهم أظفــار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم قلت : مَنْ هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم ». قال في الفتح: وفي حديث أبي أمامة عند أحمد أنه صلى الله عليه وسلم مرَّ بالبقيع فقال : « مَنْ دفنتم اليوم ههنا ؟ » الحديث . قال فهذا يدل على أنهما (أي المقبورين) كانا مسلمين لأن البقيع مقبرة المسلمين ثم قال ويقوِّي

(١) أي ومايعذبان فيذنبكبير عند الناس ولكنه عند الله تعالى كبير نظير قوله تعالى « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » . وقيل المراد وما يُعذبان في أمر كبير فاحش الكبر كالقتل والزنا وإن كان في حدّ ذاته هو أمراً كبيراً ومن الكبائر ، وإذا كان المسلم يُعذب في قبره في هذا الأمر الكبير فكيف عذابه بما هو أكبر كالقتل والزنا وترك الصلاة والزكاة والحج ونحوه فإن عذاب ذلك أشد وأعظم .

(٢) أي لا يتوقى من بوله لما في روايةٍ لمسلم : لا يستنزه من بوله والروايات تفسر بعضها .

كونهما كانا مسلمين رواية أبي بكرة عند أحمد والطبراني باسناد صحيح «يُعذَّبان وما يُعذَّبان في كبير ـ بلى ما يُعذَّبان إلا في الغيبة والبول » فهذا الحصر ينفي كونهما كانا كافرين لأن الكافر وإن عُذب على ترك أحكام الاسلام فإنه يعذب مع ذلك على الكفر بلا خلاف اهـ •

وجاء فيما صححه ابن خزيمة من حديث أبي هريرة مرفوعاً « أكثر عذاب القبر في البول » أي بسبب ترك التحرز من البول وفي ذلك تنبيه للمسلم وتحذير له من النجاسة بأنواعها : نجاسة البول الحسيَّة ونجاسة الأخلاق المعنوية فيجب عليه أن يبتعد عنهما فيحفظ لسانه من إيذاء المسلمين بالسبِّ والشتم والغيبة والنميمة ونحو ذلك من هفوات اللسان ويحفظ جسمه وثيابه من إيذاء نجاسة البول فان ذلك من أكثر أسباب عذاب القبر وإذا كان الرجل يُعذَّب لتركه الطهارة من البول التي هي شرط من شروط صحة الصلاة فما ظنك بعذاب تارك الصلاة فإن عذابه في قبره أشدّ وأمدّ ، قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ترك الصلاة لقي الله وهو عليه غضبان » الحديث كما تقدم •

ومن أسباب عذاب القبر : صلاة تُصلَّى بغير طهور ، وعدم الانتصار للمظلوم • روى الإمام الطحاوي بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمر بعبد من عباد الله أن يُضرب في قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى صارت واحدة فضُرب فامتلأ قبره عليه ناراً فلما ارتفع عنه أفاق فقال : علامَ جلدتموني ؟ قالوا : إنك صليت صلاة بغير طهور ومررت على مظلوم فلم تنصره » • وفي سنن الدارقطني عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه ومن فكَّ رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة •

ومن أسباب عذاب القبر : الكذبة يحدّث بها الكاذب فتبلغ الآفاق ، وترك العمل بالقرآن الكريم ، والزنا ، وأكل مال الربا ونحو ذلك لما جاء في صحيح البخاري عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذاني بيدي وأخرجاني الى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد يُدخله في شدقه حتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا فيعود فيضع مثله قلت : ما هذا ؟ فقالا لي : انطلق فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فهر فيشدَخ بها رأسه فإذا هو ضربه تدهده — أي تفتّت الحجر — فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع الى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه قلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق فانطلقنا الى نقب مثل التنور ، أعلاه ضيق وأسفله يوقد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهب من تحتهم فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا يخرجون فاذا حمدت أي النار رجعوا فقلت ما هذا ؟ قالا : انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بيده حجارة فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فردّه حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج رمى من فيه بحجر فرجع كما كان فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق . فانطلقنا .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : قلت : طوفتماني الليلة فأخبراني عما رأيت فقالا: نعم . الذي رأيته يُشق شدقه كذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به أي يشق شدقه الى يوم القيامة . قالا : والذي رأيته يُشدَخ رأسه فرجل علّمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار يُفعل به (أي الشدخ لرأسه) الى يوم القيامة . وأما الذي رأيتَ في النقب فهم الزناة . والذي رأيته في النهر (أي نهر الدم) فآكل الربا » الحديث .

ومن أسباب عـذاب القبر : الغلول وهو الأخذ من المغنم قبل قبل القسمة • روى الامام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : فلان شهيد وفلان شهيد حتى أتوا على رجل فقالوا فلان شهيد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلا إني رأيته في النار في بردة غلّها ــ أو عباءة ــ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذهب فناد في الناس أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون » الحديث •

وروى الامام أحمد عن أبي رافع قال في حديثه : مرّ النبي صلى الله عليه وسلم بالبقيع فقال : أفٍّ لك أفٍّ لك ، قال أبو رافع فظننت أنه صلى الله عليه وسلم يريدني أي بالتأفف فقال : ما لك ؟ قال أبو رافع قلت : أحدثتُ حدثاً يا رسول الله ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : إنك قلت لي ــ ذلك ــ فقال صلى الله عليه وسلم : لا (أي أنت لم تحدث حدثاً) ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعياً على آل فلان (أي يجمع الصدقات) فغلّ نمرةً (أي فأخذ نمرة منها أي برده من صوف) فدُرِع الآن مثلها من نار » أي ألبس مثلها ناراً في قبره • وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : افتتحنا خيبر ولم نغنم ذهباً ولا فضة إنما غنمنا البقر والغنم والماعز والمتاع والحوائط ثم انصرفنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى وادي القرى ومعه عبد أهداه له أحد بني الضباب بينما هو يحطّ رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه سهم عائر حتى أصاب ذلك العبد فقال الناس هنيئاً له الشهادة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً» الحديث وفي رواية ابن أبي شيبة : إن شملته لتحرق عليه الآن في النار غلّها من المسلمين » • أي أخذها قبـل القسمة • والشملة هي كساء يتغطى به ويتلفّف فيه •

قال علماء السلف رضي الله عنهم إذا كان صاحب الشملة التي غلّها من المغنم أخبرنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تشتعل عليه ناراً في قبره مع أنه أخذها وله فيها حق ولكنه أخذها قبل القسمة فكيف بمن ظلم غيره وأخذ ماله بغير حق أصلاً ، قالوا فعذاب القبر يأتي على النمّام والمغتاب والكذاب وشاهد الزور وقاذف المحصن والمؤذي بلسانه وآكل الربا وآكل أموال الناس بالباطل وآكل مال اليتامى وشارب الخمر والزاني واللوطي والسارق والمخادع والماكر ومؤذي المسلمين والمتتبع لعوْراتهم وزلاّتهم وقاتل النفس والملحد في حرم الله تعالى ، والجبارين والمتكبرين والمرائين ، والطاعنين في شريعة الله ، والذين لا يتحاشَوْن النجاسات ، والقاطع لرحمه ، والذي لا يرحم المساكين والأرامل واليتامى ، والذي لا يرحم البهائم والحيوانات ، والذي يشتغل بعيوب الناس عن عيب نفسه ، وبذنوبهم عن ذنوبه فجميع هؤلاء يعذّبون في قبورهم بجرائمهم على حسب كثرتها وقلتها وكبرها وصغرها . اهـ . نعوذ بالله العظيم من ذلك كلّه وبهذا الحديث وأمثاله استدل الجمهور على أن عذاب القبر ونعيمه يَرِدان على الروح والجسد وأن للجسم ارتباطاً بالروح بعد الموت مهما تفرقت أجزاء الجسم وتباعدت أو بليت وصارت تراباً فإنها لم تخرج عن كونها تراباً لذلك الجسم الذي سوف يعاد فيه تارة أخرى وهي أجزاء معلومة عند الله تعالى محفوظة عنده لا تلتبس عليه بغيرها سبحانه قال تعالى : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » . ومما يدل على عذاب القبر ونعيمه وأنهما للروح والجسم ولكن في عالم مغيَّب عن أهل الدنيا إلا لمن كشف الله تعالى له عن ذلك : ما رواه الترمذي والطبراني عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حُفر النار » . فالقبر بالنسبة للمؤمن روضة من رياض الجنة يرتاض فيها

على حسب إيمانه وعمله ، والقبر حفرة من حفر النار بالنسبة للكفار والمصرّين على معاصيهم ، ومن المعلوم أن نعيم الجنة وعذاب النار هما يأتيان على الروح والجسم معاً بلا خلاف فما كان من الجنة والنار فله حكمهما من حيث الجملة . وقد اطّلع رسول الله صلى الله عليه وسلم على عذاب المقبورين وأمر أن يوضع على قبرهما غصن نخل وقال لعلّه أن يخفّف عنهما من عذابهما ما لم ييبسا ـ الحديث كما تقدم ـ .

* * *

تعوّذه صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر وأمره بذلك

كان صلى الله عليه وسلم يتعوّذ من عذاب القبر في آخر صلاته وفي ذلك تعليم الأمته أن يتعوذوا بالله من عذاب القبر في أقرب أحوالهم الى ربهم وهذا حال الصلاة وماذاك إلا لفظاعة عذاب القبر وشدّه هوله .

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو في الصلاة يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجّال وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات ، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم .

وروى الترمذي عن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دبر الصلاة : « اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وعذاب القبر » . كما أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من عذاب القبر في كل صباح ومساء ، فقد جاء في صحيح مسلم وغيره عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه كل صباح ومساء : « ربِّ أعوذ بك من عذاب في النار وعذابٍ في القبر » الحديث . وقد تقدم حديث مسلم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « تعوّذوا بالله من عذاب القبر » .

* * *

الأسباب المنجية من عذاب القبر

أولاً : البعد عن أسباب عذاب القبر التي تقدم بيان بعضها والتطهّر من الذنوب والمعاصي بالتوبة النصوح وشروطها : الندم على فعل الذنب ، والإقلاع عنه ، والعزم على أن لا يعود الى فعله . قال الله تعالى : « إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً » .

ثانياً : من جملة أسباب النجاة من عذاب القبر الموت في سبيل الله تعالى والمرابطة في سبيل الله تعالى روى الامام مسلم عن سلمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « رباط يومٍ وليلةٍ خير من صيام شهر وقيامه وإن مات اجري عليه عمله الذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمِنَ الفتّان » أي من فتنة القبر ومحنته وعذابه وشدته .

وعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « للشهيد ستُّ خصالٍ يُغفر له من أول دفعة من دمه ويَرى مقعده من الجنة ويُجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار : الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين من أقاربه » .

رواه ابن ماجه والترمذي وهذا لفظه وقال حديث حسن صحيح.اهـ.

ثالثاً : المواظبة على تلاوة سورة تبارك الملك كل ليله .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خباء على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمهـا فأتى رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ضربتُ (أي نصبت ووضعتُ) خِبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هي (أي سورة تبارك) المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر » . رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب .

وروى النسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : من قرأ تبارك الذي بيده الملك كلَّ ليلة مَنَعه الله عز وجل بها من عذاب القبر ، قال وكنا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نسمِّيها المانعة ، وإنها في كتاب الله عز وجل سورة من قرأ بها في كل ليلة فقد أكثر وأطاب» . اهـ. من ترغيب المنذري .

رابعاً : الإكثار من قول لا إله إلا الله : فقـد روى الطبراني والبيهقي عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا منشرهم وكأني أنظر الى أهل لا إله إلا الله وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَنَ وفي رواية : ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا عند القبر » .

وقد روى الحافظ الفقيـه المالكي الزاهـد الورع الشيخ عبد الحق الإشبيلي عن الامام جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن جده زين العابدين عن أبيه الحسين عن عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه يرفعه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال كل يوم وكل ليلة مائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين كان له أماناً

من الفقر ، وأنساً من وحشة القبر ، واستفتــح به الغنى ، واستقرع به باب الجنة » .

وأخرجه أبو نعيم والديلمي والخطيب في رواية مالك كما في المواهب وشرحها وقال بعض رواته : لو رحلتم في تحصيل هذا الحديث الى الصين ما كان كثيراً أي لفضل رواته وشرف سنده .

خامساً ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يموت يوم الجمعــة أو ليلة الجمعــة إلا وقاه الله فتنة القبر » رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب وليس إسناده بمتصل . وروى الحافظ أبو نعيم عن جابر مرفوعاً : « من مات ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أجير من عذاب القبر وجاء يوم القيامة وعليه طابع الشهداء » في اسناده ضعيف .

* * *

نعيم القبر على مراتب متعددة

ينعم أهل الإيمان في قبورهم على حسب اختلاف مراتبهم في إيمانهم قال الله تعالى : « فأمّا إن كان (أي المحتضر) من المقرّبين فرَوح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين » . وقد تقدم الكلام على هذه الآيات وأنّ المقرّب ينتقل فور وفاته الى رَوْحٍ وريحانٍ وجنة نعيم كما يدل على ذلك الفاء المفيدة للتعقيب في قوله تعالى : « فروح وريحان » الآية وأن المؤمن من أصحاب اليمين تتوارد عليه عقب الموت التحيات والبشائر الإلهية .

روى الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة».

فجميع المؤمنين في قبورهم تعرض عليهم مقاعدهم في الجنة غدوة وعشياً وبذلك العرض تهبّ عليهم النفحات الرحمانية وتعبقهم الرياحين الجنانية فهم ينعمون بذلك وقد استراحوا من نصب الدنيا ومتاعبها وكرباتها وأحزانها . كما جاء في الصحيحين وغيرهما عن أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مستريح ومستراح منه » قالوا : يا رسول الله ما المستريح وما المستراح منه ؟ قال : « العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها الى رحمة الله تعالى والعبد الفاجر تستريح منه العباد والبلاد والشجر والدّوابّ » . وهناك من يُعطى

فوق ذلك وأعظم من ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه الامام أحمد عن الامام الشافعي عن الامام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب ابن مالك عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله الى جسده يوم يبعثه » .
قال الحافظ ابن كثير بعد ما أورد هذا الحديث : ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً . اهـ . أي ففيه دلالة على أن عموم المؤمنين الكمّل لهم نعيم التجوّل في ظلال أشجار الجنة قال الامام الغزالي رضي الله تعالى عنه : واعلم أن المؤمن ينكشف له عقب الموت من سعة جلال الله تعالى ما تكون الدنيا بالاضافة إليه كالسجن والمضيق ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب الى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهي العود الى السجن المظلم وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم له مثلا فقال لرجل مات : « أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضي — بأن كان كامل الإيمان — فلا يسرّه أن يرجع الى الدنيا كما لا يسرّ أحدكم أن يرجع الى بطن أمه »(١) فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا الى ظلمة الرحم ا هـ .

وهناك الذين أعطوا أفضل من ذلك وفوق ذلك وهم الشهداء في سبيل الله تعالى قال الله تعالى : « ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين » . فالشهدا الذين قتلوا في سبيل الله هم أحياء عند ربهم

---

(١) قال الحافظ العراقي في هذا الحديث : رواه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلا ورجاله ثقات ا هـ .

أي مستمرون على الحياة يترفون فيها وأكّد إثبات الحياة لهم على وجه الحقيقة الكاملة بقوله سبحانه « يرزقون » فالشهداء أحياء على الحقيقة بحياة أقوى من حياتهم الدنيا .

قال تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » أي ولكن لا تحسّون ولا تدركون حياتهم وحالهم لأنهم في برزخ محجوبون عنكم لا يطّلع عليهم إلا من أطلعه الله تعالى كالرسول صلى الله عليه وسلم وبعض أولياء أمته .

وروى أبو داود والامام أحمد وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي الى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا مَنْ يبلغ إخواننا عنا (أي من يبلغ إخواننا في الدنيا عنا) ـ أننا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا (أي لا يخافوا ولا يجبنوا) عند الحرب ! فقال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم . قال : فأنزل الله عز وجل : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً » الى آخر الآيات وهذا الحديث له أصل في صحيح مسلم ، وروى الامام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أدخل بيتي الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأضع ثوبي (أي بعض ثيابي) وأقول إنما هو زوجي وأبي (أي هذا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو زوجي وهذا قبر أبي بكر رضي الله عنه هو أبي فليس عليّ من حرج أن أضع بعض ثيابي) قالت فلما دفن عمر معهم فوالله ما دخلته ـ أي البيت ـ إلا وأنا مشدودة عليّ ثيابي حياء من عمر » أي لأنه أجنبي عنها وهو شهيد حيّ فكانت تحتجب منه ، قال العلماء : وهذا يدل على فقاهة السيدة عائشة رضي الله عنها وورعها ورعايتها لأحكام الحياة البرزخية .

وهناك مقام الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى عليهم أجمعين فإنهم في المقام الأسنى والملأ الأعلى فانهم أقوى حياة وأعظم نعيما . روى البيهقي وأبو يعلى عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الأنبياء أحيـاء في قبورهم يصلّون » . قال العلامـة المناوي حديث صحيح اهـ . وسيأتي تمام هذا البحث قريباً إن شاء الله تعالى فالأنبياء لهم أكمل كمال الحياة وأكمل كمال النعيم وامامهم وخطيبهم وصاحب شفاعتهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم صاحب مقام الوسيلة والفضيلة هو أعلاهم منزلةً وأرفعهم درجـة وأفضلهم رتبة وأكرمهم نعيماً صلى الله عليه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .



تكليم الله تعالى أولياءه ونظرهم اليه سبحانه في عالم البرزخ

قد يكرّم الله تعالى أحبابه بتكليمه إياهم وإباحتهم النظر الى وجهه الكريم جل وعلا في عالم البرزخ وهذا عامّ لجميع الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم وأما بالنسبة لغيرهم فهو فضل خاص يختص به من يشاء من كمّل أوليائه الصدّيقين والشهداء •

روى الترمذي وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه قال : نظر إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال يا جابر مالي أراك مهتماً ؟ فقلت : يا رسول الله ، استشهد أبي وترك ديناً وعيالاً فقال صلى الله عليه وسلم : ألا أخبرك ؟ ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب وإنه كلّم أباك كفاحاً (قال علي بن المديني أحد رواة الحديث (الكفاح : المواجهة) ــ قال أي قال الله تعالى لأبيك : سلني أعطك قال : أسألك أن أردّ الى الدنيا فأقتل فيك ثانية فقال الرب عز وجل : إنه سبق القول مني أنهم إليها لا يرجعون • قال : أي ربّ فأبلغْ مَنْ ورائي فأنزل الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون » • الآيات •

* * *

اطّلاع أهل البرزخ وسماعهم السلام والكلام عندهم

جاءفي النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ما يدلّ على أن الأموات يسمعون سلام من يسلّم عليهم ويفهمون ويشعرون بالكلام والخطابات الموجّهة إليهم •

روى الامام مسلم عن بريدة رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمهم (أي الصحابة) إذا خرجوا الى المقابر أن يقولوا السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية » أي الوقاية من المكاره •

ورواه ابن ماجه بزيادة (اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل الى البقيع فيقول : (السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون(١) غداً مؤجلون(٢) وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد) • رواه مسلم •

فكان صلى الله عليه وسلم يسلّم على الأموات ويأمر بالسلام عليهم وذلك مما يدل على أنهم يسمعون السلام وتبلغهم التحية ولولا ذلك لما أمرهم بالسلام على الأموات فإذا كانوا لا يسمعون ولا يجيبون

---

(١) أي ما توعدون من الثواب والنعيم •

(٢) أي مؤجلون لاستيفاء تمام ثوابكم وأجوركم عند الله تعالى •

فهم حينئذ والحجر سواء فلِمَ يأمرهم بالسلام على أموات البشر ولمَ يأمرهم بالسلام على الحجر ؟

وفي كتاب الروح : روى الحافظ ابن عبد البر من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من رجل يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيسلّم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام » قال ويروى هذا من حديث أبي هريرة مرفوعاً قال : فإن لم يعرفه وسلم عليه ردّ عليه السلام » اهـ .

قال الحافظ ابن عبد البر ويروى من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من رجل يزور قبر أخيه فيجلس عنده إلا استأنس به حتى يقوم » .

وفي صحيح مسلم أن عمرو بن العاص رضي الله عنه حين احتضر قال : إذا أنا متّ فلا تصحبني نائحة ولا نار فإذا دفنتموني فشنّوا عليّ التراب شنّاً (أي صبّوه صبّاً) ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي اهـ . فدلّ هذا على أن الميت يشعر بالحاضرين عنده ويستأنس بهم وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يزور قبور الشهداء مراراً كل حول فيقول لهم مبشراً ومؤانساً : « سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم . وعن سليم بن عتر أنه مرّ على مقبرة وهو حاقن قد غلبه البول فقيل له لو نزلت فبلتَ فقال سبحان الله والله إني لأستحي من الأموات كما أستحي من الاحياء يعني أنهم يطّلعون على ما هنالك فيستحي منهم وفي هذا كله دليل على شعور الأموات بأفعال الأحياء وسماعهم كلامهم وسلامهم كما أن الاموات تتأثر بالتعنيف والتوبيخ الذي يوجه إليهم من قبل الأحياء إذا كانوا

مقصرين أو مسيئين فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتلى المشركين يوم بدر وجعل يوبخهم ويحسرهم ويندّمهم كما جاء في الصحيحين والرواية لمسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتلى بدر ثلاثاً ثم أتاهم فقام فناداهم فقال : « يا أبا الجهل بن هشام يا أميّة بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » . فسمع عمر بن الخطاب قول النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله: كيف يسمعون؟ أو أنّى يجيبون وقد جيّفوا؟ قال والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا . وفي رواية لهما: فقال عمر يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ».

وهذه سنة الرسل صلوات الله تعالى عليهم مع أعدائهم بعد هلاكهم أنهم يخرجون الى مصارع أعدائهم يوبخونهم ويعنفونهم . قال الله تعالى في قوم ثمود : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبّون الناصحين » . وقال في قوم شعيب الذين كفروا به : « فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قومٍ كافرين » . فالميت يسمع ما يُقال عنده من السلام والكلام ويشعر بما يُفعل عنده كما دلّ على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الميت إذا وُضع في قبره وتولّى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان » الحديث كما تقدم في بحث السؤال ، كما أن الميت يتأذّى بما يُفعل به أو عنده من المؤذيات والمضرّات فقد روى أبو داوود عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« كَسْر عظم الميت ككسره حياً »(١) •

وعن عمارة بن حزم رضي الله عنه قال : رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً على قبر فقال : « يا صاحب القبر ــ أي يا جالساً على القبر ــ انزل من على القبر لا تؤذي صاحب القبر ــ أي الميت ــ ولا يؤذيك »(٢) •

قال الحافظ المنذري رواه الطبراني في الكبير من رواية ابن لهيعة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص الى جلده خير من أن يجلس على قبر »(٣) •

وروى ابن ماجه بإسناد جيّد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأن أمشي على جمرة أو سيف أو أخصف نعلي برجلي(٤) أحبّ إليّ من أن أمشي على قبر»(٥)•

* * *

(١) رواه ابن ماجة وابن حبان في صحيحه كما في الترغيب •
(٢) جاء هذا بصيغة النفي والمراد فيه النهي والمعنى لا تؤذه بالجلوس فوق قبره فيسبّب لك عذاباً في الآخرة كما دلت الأحاديث الآتية •
(٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة كما في ترغيب المنذري •
(٤) أي أخيط نعلي بجلد مقطوع من رجلي •
(٥) وهذا كله في حالة الاختيار أما في حالة الاضطرار فإن الضرورة تقدر بمقدارها •

انتفاع الأموات بالأعمال الصالحة والأقوال الطيبة التي يُهديها اليهم الأحياء

إن ثواب الأعمال الصالحة والأقوال الطيبة التي يهديها أحياء الدنيا لأهل البرزخ هي واصلة إليهم لا محالة وهي تنفعهم دلّ على ذلك الكتاب والسنة : قال الله تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » • فلقد مدح الله تعالى الذين استغفروا للمؤمنين قبلهم فدلّ ذلك على أنه مقبول عند الله تعالى وهو ينفع الأموات قبلهم •

وقدأمر الشارع بالصلاة على الميت والدعاء له ، وما ذلك إلا لأنه ينفعه ويزيد في ثوابه • روى أصحاب السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا صلّيتم على الميت فأخلصوا له الدعاء » • كما أمر الشارع بالدعاء للأموات عند زيارة قبورهم •

روى مسلم في صحيحه عن بريدة بن الحُصيب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلّمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية » •

وقال الله تعالى : « والذين آمنوا واتّبعتْهم ذريتهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كلّ امرىء بما كسب رهين» •

ففي هذه دلالة صريحة على أن الله تعالى ينفع الأبناء بعمل الآباء فيلحق الأبناء المقصّرين بآبائهم المقرّبين تكرمةً لإيمانهم وصلاحهم من غير أن ينقصهم من ثواب أعمالهم شيئاً . كما روى الطبراني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أظنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال : إنهم لم يبلغوا درجتك فيقول : يارب قد عَمِلتُ لي ولهم ، فيؤمر بإلحاقهم به» ، وقرأ ابن عباس « والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم » . الآية .

وروى الامام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول يا ربِّ أنى لي هذا ؟ فيقول باستغفار ولدكَ لك » .

كما أنّ ثواب الصدقات من الأحياء يصل الى الأموات . جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنّ رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها (أي أخِذت بغتة) ولم توص وأظنها لو تكلّمتْ تصدّقت أفلها أجر إن تصدّقتُ عنها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم » . وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ابنها مات ولم يحجّ قال : « حُجّي عن ابنك » .

وكلّ عملٍ صالح يوهب ثوابه للأموات يصل إليهم ، ومن ذلك إهداء ثواب القراءات للأموات فإنه يصل إليهم وينفعهم جاء في الحديث عن معقل بن يسار رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قلب القرآن يس : لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له ، اقرأوها على موتاكم » .

قال الحافظ المنذري : رواه أحمد وأبو داوود واللفظ له وابن ماجه والحاكم وصححه • اهـ • وبهذا الحديث يرشد النبي صلى الله عليه وسلم أمّته الى تلاوة هذه السورة الكريمة التي هي قلب القرآن لينتفع بها الأحياء وينتفع بها الأموات •

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما انه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إذا مات أحدكم فلا تحبسوه وأسرعوا به الى قبره ، وليقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وعند رجليه بخاتمة البقرة » •

قال في مشكاة المصابيح : رواه البيهقي في شعب الإيمان وقال : والصحيح انه موقوف على ابن عمر • اهـ •

وفي الجزء الثاني من المرقاة : أخرج أبو القاسم سعد بن علي الزنجاني في فوائده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَن دخل المقابر ثم قرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ، وألهاكم التكاثر ، ثم قال : إني جعلت ثواب ما قرأتُ لأهل المقابر من المؤمنين والمؤمنات كانوا شفعاء له الى الله تعالى » •

وفي المرقاة : أخرج أبو محمد السمرقندي في فضائل قل هو الله أحد عن عامر مرفوعاً : « مَن مرّ على المقابر وقرأ « قل هو الله أحد » احدى عشرة مرة ثم وهب أجره للاموات أعطي من الأجر بعدد الأموات »

وفي المرقاة : نقلاً عن محمد بن أحمد المروزي : سمعتُ أحمد ابن حنبل يقول : إذا دخلتم المقابر فاقرأوا بفاتحة الكتاب والمعوذتين وقل هو الله أحد ، واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فانه يصل اليهم •

وفي أذكار النووي : قال : ويستحب للزائر الإكثار من قراءة القرآن والذكر والدعاء لأهـل تلك المقبرة وسائر الموتى والمسلمين أجمعين •

وقال الامام النووي في شرح المهذب : يستحب لزائر القبور أن يقرأ ما تيسر من القرآن ويدعو لهم عقبها نصّ عليه الشافعي واتفق عليه الأصحاب . وقال في موضع آخر : وإن ختموا القرآن على القبر كان أفضل . اهـ .

فالأموات ينتفعون بالقراءات تهدى إليهم كما ينتفعون بالدعوات لهم وقد روى الترمذي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « يقول الربّ تبارك وتعالى : مَن شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » .

وروى الطبراني بإسناد جيد عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة » . وروى الطبراني أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَن لم يكن عنده مال يتصدّق فليستغفر للمؤمنين والمؤمنات فانها صدقة » . وروى أبو داوود وغيره عن أبي أسيد رضي الله عنه قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل فقال : يا رسول الله ، هل بقي من برّ أبويّ شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : « نعم ، الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما » .

وقال الخلال في جامعه : كتاب القراءة عند القبور . ثم أسند الى عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه قال : قال أبي : إذا أنا متّ فضعني في اللحد وقل : بسم الله وعلى سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسنّ عليّ التراب سنّاً واقرأ عند رأسي بفاتحة البقرة فإني سمعت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول ذلك . ا هـ .

وذكر الخلال عن الشعبي قال : كانت الأنصار إذا مات لهم الميت اختلفوا الى قبره يقرءون عنده القرآن •

هذا وإن جميع ما ذكرناه من الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية الدالة علــى وصول ثواب الأعمال المهــداة الى الاموات • ذلك كله لا يختلف مع قوله تعــالى : « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » لأن السعي نوعان :

سعي مباشِر : وذلك بتعاطي الانسان الأعمال الصالحة والأقوال الطيبة التي رسمها الشارع له من الصلوات والصدقات والصيام وسائر العبادات والقربات العملية والقولية المتنوعة الكثيرة ، وسعي تسبُّب في تحصيل خير وثواب ينسحب عليه ويجري له من عمل باشره غيره فذلك الغير له أجر العمل بالمباشرة وهذا له أجر العمل بالتسبب وهذا النوع الثاني له وجوه كثيرة وأنواع متعددة بيَّنها الشارع فمن ذلك :

ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي اللهعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم يُنتفع به أو ولد صالح يدعو له » •

فإن هذه الأمور تنفعه بعد موته لأنه تسبَّب إليها وإن كان هو لم يباشرها بنفسه • وفي سنن ابن ماجه بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره أو ولداً صالحاً تركه أو مصحفاً ورّثه أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهراً أكراه ، وفي رواية : أجراه • أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته » •

وفي صحيح مسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَن سنّ في الاسلام سنة حسنة فله

أجرها وأجر من عمل بهــا من بعده من غــير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سنّ في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » .

فمَنْ آمن بما أمر الله تعالى به وانتظم في سلك المؤمنين كان ذلك منه سبباً في نيل حظه من استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول سبحانه : « فاعلــم أنه لا إله إلا الله واستغفــر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » الآية ، ومن استغفار سيدنا نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام حيث يقول سبحانه مخبراً عنــه : « ربَّنا اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا » ، وأن ينال حظه من استغفار الخليل سيدنا ابراهيم على نبينا وعليــه الصلاة والسلام حيث يقول سبحانه : « ربَّنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ، وأن ينال حظه من دعوات المؤمنين واستغفارهم حيث يقول سبحانه : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفــر لنا ولإخواننا الــذين سبقونا بالايمان » الآية . وأن ينال حظه من دعاء حملة العرش واستغفارهم حيث يقول سبحانه : « الذين يحملون العرش ومَنْ حوله يسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربَّنا وسعتَ كلّ شيء رحمةً وعلمــاً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخِلهم جناتِ عدن التي وعدتهــم » الآيات ، وأن ينال حظــه من صلوات المؤمنين عليه بعد موته ودعائهم له وترحّمهم عليه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم كما جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً » .

وهذا مطلوب منهم في أمورهم الدينية والدنيوية وهو في أمورهم الدينية أهمّ وأوجب فدخولُ المؤمن مع جملة المؤمنين في عقائدهم

الإيمانية ــ هو من أعظم الأسباب في وصول نفع كلٍّ من المؤمنين إليه في حياته وبعد مماته وذلك أن الله تعالى جعل الإيمان سبباً لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه المؤمنين واستغفارهم وأعمالهم الصالحة وأقوالهم الطيبة الحسنة فإذا آمن الانسان فقد سعى في السبب الذي يوصل الى جميع تلك المنافع والفوائد فهي من سعيه التسبّبي ، ويدل على ذلك ما جاء في مسند الامام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة (أي ناقة) وأن هشام بن العاص نحر خمسة وخمسين وأن عمراً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : « أما أبوك (أي العاص) فلو أقرّ بالتوحيد فصُمتَ وتصدقتَ عنه نفعه ذلك » أي ولكن لم يقرّ بالتوحيد بل جحد وكفر فلم يتعاط السبب في أن تنفعه صدقاتك وصيامك .

وهكذا مَن جلس الى الصالحين وكان مع الصادقين كان ذلك سبباً في أن يناله من الخير والنور والبركة النازلة عليهم كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » . جعلنا الله تعالى وأحبابنا في زمرة عباده الصالحين وحفّنا بأنوار سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

* * *

عرض الأعمال على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى: « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون. وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

وجاء في الأحاديث النبوية ما يدل على أن أعمال المؤمنين تُعرَض على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حَيَاتي خير لكم تُحدِّثون ويُحدَث[1] لكم ووفاتي خير لكم تُعرض عليّ أعمالكم فما رأيت من خير حمدتُ الله وما رأيت من شرٍّ استغفرت الله لكم »[2].

فأعمال المؤمنين تعرض عليه صلى الله عليه وسلم والحكمة في ذلك كما بيّن صلى الله عليه وسلم هي أن ما كان من أعمالهم خيراً حمد الله تعالى وفرح بها وباهى بها في ذلك العالَم وما كان غير ذلك من هَنَات وسيئات استغفر الله لهم ، ولا تعارض بين هذا الحديث وبين ما جاء في حديث الحوض حيث قال صلى الله عليه وسلم : « وليرفعنَّ إليّ رجال منكم حتى إذا أهويتُ إليهم لأناولهم اختلجوا دوني فأقول : أيْ ربِّ أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سُحقاً سُحقاً لمن بدّل بعدي » . كما في الصحيحين فإن هذا محمول على

---

(١) أي تحدثون أقوالاً وأعمالا ويحدث لكم أحكام شرعية فيها بيان ما يجوز وما لا يجوز .

(٢) هكذا أورده الحافظ العراقي في شرح التقريب بنصه وقال رواه أبو بكر البزار في مسنده بإسناد جيد . ا هـ . ورواه في الجامع الصغير من رواية ابن سعد عن بكر بن عبد الله مرسلاً وقال الحافظ الهيثمي : رجاله رجال الصحيح .

المرتدين الذين ارتدوا بعده صلى الله عليه وسلم عن دينهم بدليل قوله : سحقاً لمن بدل من بعدي » وذلك أنهم كفروا بعده صلى الله عليه وسلم ، وأعمال الكفار من أمته لا تعرض عليه إذ لا فائدة لعرضها لأن الحكمة في هذا العرض فرحه ومباهاته بأعمالهم الصالحة واستغفاره لأعمالهم السيئة ، ويدلك على هذا قول عائشة رضي الله عنها كما في البخاري : « إذا أعجبك حُسن عمل امرىء مسلم ، فقل : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

ومن جملة ما يعرض عليه صلى الله عليه وسلم ويُسر ويفرح به صلوات المصلين عليه صلى الله عليه وسلم .

روى ابن ماجه بإسناد جيد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثروا عليَّ من الصلاة كل يوم جمعة فانه مشهود تشهده الملائكة وإن أحداً لن يصلي عليَّ إلا عُرضت عليَّ صلاته حتى يفرغ منها » قال : قلت : وبعد الموت ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » . قال الحافظ المنذري رواه أحمد وأبو داوود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه .

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « حيثما كنتم فصلُّوا علي فإن صلاتكم تبلغني »(١) . وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صلى عليَّ بلغتني صلاته وصليت عليه وكُتب له سوى ذلك عشر حسنات »(٢) .

---

(١) قال المنذري رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن . ا هـ .

(٢) قال في الترغيب : رواه الطبراني في الأوسط بإسناد لا بأس به . ا هـ .

عرض الأعمال على الأقارب والعشيرة في البرزخ

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى عند آية : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » الآية . قال : وقد ورد أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الاقرباء والعشائر في البرزخ ثم أورد حديث أبي داوود الطيالسي بإسناده عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم فإن كان خيراً استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهمَّ ألهمهم أن يعملوا بطاعتك » . ثم أورد حديث الإمام أحمد بإسناده عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن أعمالكم تُعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيراً استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهمَّ لا تُمتهم حتى تهديهم كما هديتنا » .

وروى الامام ابن المبارك بإسناده عن أبي الدرداء أنه كان يقول : إن أعمالكم تُعرض على أمواتكم فيُسرون ويساءون ثم يقول : اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً اخزى به عند خالي عبدالله بن رواحة .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله تعالى وتُعرض على الأنبياء وعلى الآباء والأمهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم وتزداد وجوههم بياضاً وإشراقاً فاتقوا الله ولا تؤذوا موتاكم »(١) .

---

(١) وأورده في الجامع الصغير وقال: رواه الحكيم الترمذي عن والد عبدالعزيز رامزاً الى حسنه .

وأورد أبو عبد الله القرطبي بإسناده الى سعيد بن المسيّب أنه قال: ليس يوم إلا تعرض على النبي صلى الله عليه وسلم أمّته غدوةً وعشية فيعرفهم بأسمائهم وأعمالهم فلذلك يشهد عليهم • ا هـ •

قال أبو عبد الله ولا تعارض ـ أي بين ما جاء عن سعيد وبين ما تقدّم فإنه يحتمل أن يُخصّ نبينا بما يعرض عليه كل يوم ويوم الجمعة مع الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام • ا هـ من تفسير ابن كثير •

* * *

حال أهل البرزخ من حيث الأعمال التعبّديّة

لقد تفضّل الله تعالى على أنبيائه صلوات الله عليهم باستمرارهم على صلواتهم وعباداتهم لربهم سبحانه وتعالى في عالَم البرزخ •

جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الإسراء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي فاذا رجل ضرْب جَعْد كأنه من رجال شنوءة (أي فيه طول) وإذا عيسى بن مريم عليه السلام قائم يصلي أقربُ الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي ، وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم ـ يعني نفسه صلى الله عليه وسلم ـ فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل : يا محمد هذا مالِك صاحب النار فسلّم عليه فالتفت إليه فبدأني بالسلام » • وفي هذا يخبر النبي صلى الله عليه وسلم عمّا رأى في ليلة الإسراء وأنه رأى الأنبياء يصلّون فُرادى ثم جمعتهم صلاة واحدة فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إماماً •

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون » رواه أبو يعلى والبيهقي • وقال الدارمي في كتاب السنن : المعروف عند المحدثين بمسند الدارمي : (باب ما أكرم الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بعد موته) ثم روى بإسناده عن سعيد بن عبد العزيز قال : لمّا كان أيام الحرّة لم يؤذن في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يُقم ـ أي لم يقم فيها الصلاة ـ

ولم يبرح سعيد بن المسيب من المسجد وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر النبي صلى الله عليه وسلم »(١) .

وروى مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بوادي الأزرق فقال أيّ وادٍ هذا ؟ فقالوا : هذا وادي الأزرق. قال: كأني أنظر الى موسى هابطاً من الثنيّة وله جؤار الى الله بالتلبية ثم أتى على ثنيّة هرشى فقال : أيّ ثنية هذه ؟ قالوا : ثنيّة هرشى ، فقال : كأني أنظر الى يونس بن متّى على ناقة حمراء جعدةٍ عليه جبة من صوف خطام ناقته خلبة (أي ليف) وهو يلبّي » . قال القاضي عياض رحمه الله تعالى عند هذا الحديث : أكثر الروايات أنه صلى الله عليه وسلم رآهم كذلك (أي يلبّون حاجين) ليلة الاسراء ا هـ .

قال الحافظ الزرقاني : فإن قيل كيف تصلي الأنبياء وهم أموات في الدار الآخرة وهي ليست دار عمل قال : أجاب القاضي عياض والعلامة السبكي بأنهم كالشهداء بل أفضل والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فلا يستبعد أن يحجوا ويصلوا وأن يتقربوا الى الله بما استطاعوا لأنهم وإن ماتوا فهم في هذه الدنيا (أي فهم لا يزالون في هذه الدنيا من جهة ، وليسوا في الآخرة من كل الاعتبارات) والدنيا هي دار العمل حتى إذا فنيت مدتها وتعقبها الآخرة التي هي دار الجزاء انقطع العمل وحاصله أن أهل البرزخ ينسحب عليهم حكم الدنيا في استكثارهم من الأعمال وزيادة الأجور ثم قال وتكفي رؤيته صلى الله عليه وسلم لموسى قائماً يصلي في قبره ولأن جميع الأنبياء لم يقبضوا حتى خيروا في البقاء في الدنيا وبين الآخرة ولا شكّ أنهم لو بقوا في الدنيا لازدادوا

---

(١) رواه أبو نعيم في الدلائل والزبير بن بكار في أخبار المدينة وابن سعد في الطبقات كما في إنباه الأذكياء في حياة الأنبياء للحافظ السيوطي رحمه الله تعالى .

من الأعمال الصالحة ثم انتقلوا الى الجنة فلو لم يعلموا أن انتقالهم الى الله تعالى ـ بسبب الموت ـ أكمل لما اختاروه ولو كان انتقالهم من هذه الدار يفوت عليهم الزيادة فيما يقرب الى الله تعالى لما اختاروا الانتقال(١) اهـ

هذا وإن الله تعالى قد يكرم العلماء العاملين وعباده الصالحين باستمرارهم على طاعتهم وقرباتهم من الصلوات والتلاوات وما هنالك من العبادات ويدلك على هذا ما رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ضَرَبَ بعض أصحاب النبي خِباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا إنسان يقرأ سورة الملك تبارك حتى ختمها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هي المنجية تنجيه من عذاب القبر » .

وروى أبو عبد الله بن مندة بإسنادٍ فيه ضعف من حديث طلحة ابن عبيد الله قال أردت مالي بالغابة فأدركني الليل فأويت الى قبر عبد الله ابن عمرو بن حرام فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها فجئت الى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال صلى الله عليه وسلم : « ذلك عبد الله ، ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها في قناديل من زبرجد وياقوت وعلّقها وسط الجنة فإذا كان الليل رُدّت إليهم أرواحهم الى مكانها التي كانت »(٢) .

وروى أبو نعيم بإسناده عن ابراهيم بن الصمّة قال : حدثني الذين كانوا يمرون بالحصى بالأسحار قالوا : كنا إذا مررنا بجنبات قبر ثابت البناني سمعنا قراءة القرآن .

---

(١) انظر شرح الزرقاني على المواهب ٦ : ٤٩ .
(٢) انظر كتاب أهوال أهل القبور لابن رجب الحنبلي .

وروى أبو نعيم بإسناده عن يسار بن حبيش عن أبيه قال : أنا والذي لا إله إلا هو أدخلت ثابتاً البناني في لحده ومعي حميد ورجل غيره فلما سوّينا عليه اللبن سقطت لبنة فإذا به يصلي في قبره فقلت للذي معي : ألا تراه ؟ فقال : اسكت فلما سوّينا وفرغنا أتينا ابنته فقلنا لها : ما كان عمل ثابت ؟ قالت : وما رأيتم ؟ فأخبرناها فقالت : كان يقوم الليل خمسين سنة فاذا كان السحر قال في دعائه : اللهم إن كنت أعطيت أحداً الصلاة في قبره ـ أي بأن يصلي لك في قبره ـ فأعطنيها . قالت ابنته : فما كان الله ليردّ ذلك الدعاء .

وروى الحافظ أبو بكر الخطيب عن عيسى بن محمد قال : رأيت أبا بكر بن مجاهد المقرىء في النوم كأنه يقرأ وكأني أقول له متّ وتقرأ فقال : كنت أدعو الله تعالى في دبر كلّ صلاة وعند ختم القرآن أن يجعلني ممن يقرأ في قبره أي فأعطي ذلك .

قال عبد الله : وأنا أسأل الله العظيم بوجاهة حبيبه الكريم صلى الله عليه وسلم أن يجعلني من المصلين والقارئين والمتعبدين في قبورهم إنه سميع الدعاء .

وقد يقال إذا كان الأمر كما تقدم فما معنى الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ... » الحديث قلنـا :

أولاً : إنه لا يجوز للانسان أن يفهم من هذا الحديث انقطاع العمل بالموت كلياً لأن هذا الفهم يتنافى مع كثير من الأدلة القرآنية والاحاديث النبوية التي تثبت أن هناك أعمالا بعد الموت منها تكليفية ومنها تكييفية ، بها اللذة والنعيم والروح والريحان .

فمن جملة تكاليف أهل البرزخ مطالبتهم بالجواب الصحيح عن السؤال في القبر كما تقدم في بحث سؤال الميت وينبني على جوابه ثواب أو عقاب كما تقدم ، ثم من جملة التكاليف في الآخرة مطالبة العباد يوم القيامة أن يسجدوا لرب العالمين وهذه السجدة لها آثارها وأحكامها

قال الله تعالى : « يوم يُكشف عن ساق ويُدعَون الى السجود فلا يستطيعون » أي يوم القيامة يُكشف عن شدائد وأهوال ويتجلى ربّ العزة ويدعو العباد كلَّهم الى أن يسجدوا لله تعالى فمن كان يسجد في الدنيا يسجد في الآخرة وأما الكفار فلم يسجدوا لربهم في الدنيا فلا يستطيعون السجود له هناك . كما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يكشف ربنا عن ساق (أي عن أمر عظيم مهيب) فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » أي فلا ينحني ظهره .

وأما الاعمال التكييفيّة التي يترقَّون بها في مقامات القرب وفي درجات النعيم والروح والريحان فمنها صلواتهم في البرزخ كما تقدم في الأحاديث الصحيحة ومن ذلك عبادات أهل الجنة في الجنة وكثرة تسبيحهم وتحميدهم أعظم مما كانوا عليه في الدنيا كما جاء في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوّطون ولا يتمخطون قيل : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء كرشح المسك يُلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النَفَس » أي بلا كلفة ولا مشقة فصار ذلك لهم روحاً وريحاناً ولذة ونعيماً بلا تكلّف ومشقة . فهم ملازمون للتسبيح والتحميد ملازمة النَفَس .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الملائكة

تقول : لو رأوك ـ أي يا ربنا لو رآك العابدون والذاكرون ـ كانوا أشدّ لك عبادة وأكثر لك تسبيحاً وتحميداً » • ولا شك أنهم في الجنة يرون ربهم سبحانه فهم أكثر عبادة له منهم في الدنيا •

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقال للقارىء : إقرأ وارقَ ورتّل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها » • رواه الترمذي وقال : حديث صحيح •

وفي هذا دليل على استمرار الاعمال الصالحة في الجنة وأن صاحبها يرتقي بها درجات وينال بها مقامات • وروى الترمذي أيضاً وحسّنه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يجيء القرآن يوم القيامة فيقول يا ربّ حَلّه فيُلبس حلّة الكرامة ثم يقول يا ربّ ارض عنه فيرضى عنه ، فيقال : اقرأ وارْق ويزداد بكل آية حسنة » • فقوله صلى الله عليه وسلم : ويزداد بكل آية حسنة » هو صريح في ثواب تلك القراءات والتعبدات في عالم الآخرة وانهم ينتفعون بتلك القراءات والتسبيحات • إذاً فالعمل لاينقطع انقطاعاً كلياً بعد الموت بل هناك أعمال وأعمال على مدّ العوالم كل عالَم على حسبه •

ثانياً : إن الرجل الصالح إذا طال عمره وبقاؤه في الدنيا ازداد من الاقوال الصالحة والأعمال الطيبة التي ترفع درجته وتقربه الى الله زلفى كما جاء في سنن الترمذي وقال فيه : حسن صحيح عن أبي بكرة رضي الله عنه أن رجلا قال : يا رسول الله ، أيّ الناس خير ؟ قال : « من طال عمره وحَسُن عمله ، قال : فأي الناس شرّ ؟ قال : مَن طال عمره وساء عمله » • فلو كان العمل الصالح بأنواعه ينقطع انقطاعاً كلياً بعد الموت لما اختارت الأنبياء صلوات الله تعالى على نبينا

وعليهم الانتقال الى الدار الآخرة حين خيّرهم الله تعالى بين البقاء في الدنيا والانتقال الى الآخرة لأنهم حينئذ قد فوّتوا على أنفسهم أعمالاً صالحة باختيارهم ٠

فقد روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: « لن يُقبض نبيٌّ حتى يرى مقعده من الجنة ثم يُحيّا أو يخيَّر » ٠ الحديث ٠ فالأنبياء يخيرون بين البقاء في الدنيا وبين الانتقال الى الآخرة فلو كانت أعمالهـم الصالحة من الصلوات ونحوها تنقطع بالموت لاختاروا البقاء في الدنيا ليستمروا على الأعمال الصالحة فانهم أحرص الناس عليها ولو أنهم اختاروا البقاء في الدنيا لأُعطوه كما يدل الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرسِلَ ملك الموت الى موسى فلما جاءه صكّه (أي ضربه) ففقأ عينه فرجع الى ربه فقال : أرسلتني الى عبد لا يريد الموت ، فردّ الله تعالى إليه عينه فقال : إرجع إليه فقل له : يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطت يده من شعره سنة قال : أيْ ربِّ ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت ، قال فالآن فسأل الله تعالى أن يدنيه من الارض المقدسة رمية بحجر » ٠ الحديث ٠

وقد تكلمنا عـلى هـذا الحديث كلاماً مفصلا في كتابنا الإيمان بالملائكة عليهم السلام فارجع إليه إن شئت ٠

فالأنبياء صلوات الله عليهم لا ينقطعون عن عباداتهم وصلواتهم (أي بعد موتهم) وكذلك من أكرمه الله تعالىَ في الدنيا بالأعمال الصالحة والقراءات والتهجدات من عباده العبّاد المؤمنين فانه سبحانه يكرمهم بعد الموت بالاستمرار عليها كما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم : « يقال للقارىء يوم القيامة إقرأ وارقَ ٠٠٠ » الحديث كما تقدم ٠ يعني القارىء في الدنيا المواظب على قراءاته المستمر على تلاوته في الدنيا

يشكرم بالاستمرار عليها في الآخرة وهكذا المتهجدون والمتعبدون كلٌ على حسب مقامه . اللهم اجعلنا منهم .

وأما العمل الذي ينقطع بعد الموت فهو العمل التكليفي الدنيوي أي الذي هو من تكاليف عالَم الدنيا قبل الموت فإنه ينقطع بالموت لفوات أوانه . فالفرائض التي تركها في الدنيا لا تقضى هنالك وزكوات لم يؤدّها في الدنيا لا تؤدى هنالك ، وواجبات تركها وعبادات أهملها وتطوعات قصّر فيها فانها إذا مات فاتته نعم إلا ما تسبَّب فيه من الأعمال الصالحة والأمور النافعة قبل الموت وهذا التسبب كالصدقة الجارية والولد الصالح يدعو له والعلم الذي ينتفع به الى آخر ما تقدم فان خيره يجري عليه كما أن مَن ورّث علماً ضاراً أو تسبب في عمل سيىء أو سنّ سنة سيئة فإنه بعد الموت يجري عليه إثمه وإثم من عمل به كما جاء في الآية الكريمة : « وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسئلنّ يوم القيامة عمّا كانوا يفترون »

* * *

تلاقي الاموات في عالم البرزخ وتساؤلهم وتزاورهم

روى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن المؤمن إذا قبض وفي رواية إذا حضر أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون أخرجي الى رَوح من الله » • وفي رواية غير ابن حبان : « أخرجي (أيتها النفس) راضية مرضية عنك الى رَوح ورَيْحان وربٍّ غير غضبان » فتخرج (أي الروح) كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً فيشمّونه حتى يأتوا به باب السماء فيقولون ـ أي أهل السماء ـ : ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من الأرض ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين • فلهم أشدّ فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم فيقولون (أي الملائكة الذين معه) : دَعوه (اتركوه) حتى يستريح فإنه كان في غمٍّ الدنيا فيقول (أي الميت) : قد مات (فلان الذي سألتم عنه قد مات) فيقولون : ذُهِب به الى أمّه الهاوية » الحديث(١) •

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا ولي أحدكم أخاه (أي تكفينه) فليحسن كفنه فانهم يبعثون في أكفانهم ويتزاورون في أكفانهم »(٢)

وروى الامام أحمد عن أم هانيء الأنصارية رضي الله عنها أنها

---

(١) قال المنذري في الترغيب : رواه ابن حبان في صحيحه وهو عند ابن ماجة بنحوه بإسناد صحيح • ا هـ وعزاه في الفتح الى النسائي والحاكم •

(٢) عزاه في الجامع الصغير الى العقيلي والخطيب وسمويه وقد رواه الخطيب أيضاً من حديث جابر قال في اللسان عن العقيلي اسناده صالح كما في فيض القدير •

سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتزاور إذا متنا ويرى بعضنا بعضاً ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « تكون النَسَم (أي الأرواح) طيراً تعلق بالشجر حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها »(١) .

وأخرج ابن أبي الدنيا بإسناده أنه لما مات بشر بن البراء بن معرور رضي الله عنه وجَدَت (أي حزنت) عليه أمّ بشر وجداً شديداً فقالت يا رسول الله : لا يزال الهالك يهلك (أي يموت) من بني سلمة فهل يتعارف الموتى فأرسِلَ الى بشر السلام (أي مع الذين يموتون من بني سلمة) ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده يا أمّ بشر إنهم ليتعارفون كما تتعارف الطير في رؤوس الشجر ، فكان لا يهلك (أي لايموت) الهالك من بني سلمة إلا جاءت أم بشر فتقول : إقرأ على بشر السلام » . فكانت ترسل السلام مع الأموات الى ولدها .

هذا وإن أكرم الزائرين هم الذين يَمُنّ الله تعالى عليهم بزيارة أكرم خلق الله تعالى على الله تعالى وهم الذين يجتمعون به ويلقونه صلى الله عليه وسلم ويكونون معه مرافقين له صلى الله عليه وسلم وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله .

فنسأل الله العظيم ربّ العرش العظيم أن يجمعنا من فضله بصاحب الخلق العظيم في جميع العوالم .

وقد ورد أن بلال بن رباح رضي الله عنه لما نزل به الموت جعلت زوجته تقول : واحَرَباه ، وجعل يقول : واطَرَباه غداً ألقى الأحبة محمداً وحزبه . اهـ . فبلال يستبشر أن يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجتمع به وبأصحابه في البرزخ كما كان يجتمع معه صلى الله عليه وسلم في عالم الدنيا .

---

(١) رواه الطبراني في الكبير باسناد حسن كما في الحاوي للسيوطي .

التقاء أهل الدنيا بأهل البرزخ واتصالهم بهم

الالتقاء بأهل البرزخ وغيرهم من العوالم الغيبية ـ هو واقع ثابت للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وذلك لما أعطاهم الله تعالى من قوة الإدراك والاتصال بتلك العوالم قال الله تعالى : « واسأل مَن أرسلنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون » .

ففي هذه الآية دليل على أن اجتماعه صلى الله عليه وسلم بالرسل قبله والتقاءه بهم أمر ممكن الوقوع يسهل عليه صلى الله عليه وسلم أن يحصل له . وقد قال بعض السلف الصالح في معنى الآية : يعني بذلك واسألهم ليلة الإسراء فإن الانبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام اجتمعوا به كلهم في تلك الليلة ولقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعهم . حكى ذلك القول الحافظ ابن كثير وغيره عن عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وغيره .

ولاشك أنه صلى الله عليه وسلم قد اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء كما صح في الأحاديث الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بجميع الانبياء ليلة الإسراء والمعراج في بيت المقدس يقظة وصلى بهم وأنه صلى الله عليه وسلم اجتمع بهم في عالم السموات وتحدث معهم كما أنه اجتمع في السماء الثانية بعيسى ابن مريم الذي هو حيٌّ بالحياة الدنيوية فإنه لم يمت وسوف ينزل آخر الزمن ثم بعد ذلك يموت في عالم الأرض كما تواتر ذلك في الأحاديث النبوية ، ولما اجتمع النبي صلى الله عليه وسلم بالانبياء في بيت المقدس صلى بهم إماماً كما جاء في صحيح مسلم وغيره ، ولما اجتمع صلى الله عليه وسلم بالأنبياء ليلة المعراج في السموات جرت بينه وبينهم

الأحاديث عن أمر الساعة وغيرها . كما ورد في سنن الترمذي والمسند عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لقيتُ ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا أمر الساعة فردّوا أمرهم الى ابراهيم فقال : لا علم لي بها ، فردّوا أمرهم الى إبراهيم فقال : لا علم لي بها ، فردوا الأمر الى موسى فقال :لا علم لي بها ، فردوا الأمر الى عيسى فقال : أمّا وَجْبَتها فلا يعلم بها أحد إلا الله وفيما عهد إليّ ربي أن الدجال خارج ومعي قضيبان ، فاذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص فيهلكه الله تعالى إذا رآني حتى إن الحجر والشجر ليقول : يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله فيهلكهم الله (أي يهلك الله تعالى الدجال وأتباعه) ثم يرجع الناس الى بلادهم وأو طانهم فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كلّ حدبٍ ينسلون فيطئون بلادهم ، ولا يأتون على شيء إلا أهلكوه ولا يمرّون على ماء إلا شربوه ثم يرجع الناس إليّ (أي الى عيسى بن مريم عليه السلام) فيشكونهم — أي فيشكون الى عيسى بن مريم ما يلقون من أذى وشرّ يأجوج ومأجوج — فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض (أي تتغير) من نتن ريحهم فينزل الله المطر فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر ، قال عيسى عليه السلام : ففيما عهد إلي ربي أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المُتِمّ (أي كالحبلى التي آن وضعها) لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها ليلا أو نهاراً » .

وفي ذلك كله دليل على اجتماعه صلى الله عليه وسلم بالرسل قبله بلا شك ، ولكن تأويل الآية السابقة بهذا الاجتماع ليلة الإسراء فحسب فيه نظر بل الظاهر أن الآية وهي قوله تعالى : « واسأل مَنْ أرسلنا من قبلك من رسلنا » . الآية هي أعمّ من ذلك ، وأنه صلى الله عليه وسلم قد مكّنه الله تعالى بالاجتماع بالرسل قبله متى أراد صلى الله عليه وسلم دون أن يتعيّن ذلك ليلة الإسراء كما مكّن الله تعالى رسله

صلوات الله وسلامه عليهم من الاجتماع بمن مضى قبلهم فقد اجتمع كليم الله موسى حين كان في الدنيا بصفيّ الله آدم على نبينا وعليهم الصلاة والسلام وجرى بينهما الاحتجاج .

جاء في الصحيحين والسنن واللفظ لأبي داوود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال موسى : ياربّ أرنا أبانا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة فأراه الله أباه آدم عليه السلام فقال : أنت أبونا آدم ؟ فقال نعم . فقال : أنت الذي نفخ الله فيك من رُوحه وعلّمك الأسماء كلها ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ؟ قال : نعم » الحديث . وقد ذكرناه وتكلمنا عليه في كتابنا الإيمان بالملائكة عليهم السلام . وفي هذا دليل واضح على اجتماع موسى بآدم يقظةً على نبينا وعليهم الصلاة والسلام وفي ذلك كله دليل على أن قوله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم : « واسأل مَنْ أرسلنا من قبلك من رسلنا ». الآية...عامٌ في أيّ وقت أراد أن يلتقي بهم ويسألهم ، ولا يختص ذلك بليلة المعراج .

وأما الاجتماع يقظة بأهل البرزخ والاطلاع على أحوالهم يقظة بالنسبة لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن ذلك لا يناله إلا مَنْ أكرمه الله تعالى من عباده الصالحين وذلك على وجهين ؛ أحدهما أقوى من الآخر كما هو مفصل في موضعه من كلام العارفين رضي الله عنهم ومن ذلك إكرام الله تعالى لبعض أوليائه بالاجتماع يقظة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذهم عنه صنوفاً من البشائر والمعارف والمواهب الإلهية .

كما ذكر الشيخ سراج الدين بن الملقن في طبقات الأولياء أن الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه ونفعنا الله تعالى به وبأولياء الله أجمعين قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الظهر فقال

لي يا بُني لِمَ لا تتكلم (أي على الناس) فتعظهم (وذلك حين بلغ الشيخ مبلغ الرجال) ؟ فقال الشيخ رضي الله عنه : قلتُ يا أبتاه : أنا رجل أعجمي كيف أتكلم على فصحاء بغداد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إفتح فاك ففتحه ، فتفل صلى الله عليه وسلم فيه سبعاً وقال لي : تكلم على الناس ، وادعُ الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة .

قال الشيخ رضي الله تعالى عنه : فصليت الظهر وجلستُ (أي للوعظ والتذكير) وحضر لي خلق كثير فأرْتِجَ عليّ (أي أغلِق عليه) فرأيت علياً رضي الله عنه قائماً بإزائي في المسجد فقال لي : يا بني لِمَ لا تتكلم ؟ قلت : يا أبتاه قد ارتج عليّ فقال : افتح فاك ففتحته فتفل فمه ستاً فقلت : لمَ لاتكملها سبعاً ؟ فقال : أدباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم توارى (أي اختفى) ـ فقلتُ : غوّاص الفكر يغوص في بحر القلب على دُرَر المعارف فيستخرجها الى ساحل الصدر فينادي عليها ترجمان اللسان فتُشترى بنفائس أثمان حسن الطاعة (في بيوتٍ أذِن الله أن ترفع) . اهـ .

وسبب الإرتاج عليه رضي الله عنه والله تعالى أعلم أن التفلات المحمدية أفاضت عليه معارف جمة فتزاحمت وتدفقت عليه رضي الله عنه فجاء سيدنا علي رضي الله عنه بعيار المعيار وتقدير المقدار لما ينبغي ذكره ، والتكلم به في المجلس .

وقد ذكر الشيخ سراج الدين أيضاً في ترجمة الشيخ خليفة بن موسى النهرملكي أنه كان كثير الرؤية لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة ومناماً .

وذكر الشيخ عبد الغفار بن نوح القوصي في كتابه الوحيد قال : كان للشيخ أبي العباس المرسي رضي الله عنه صلة بالنبي صلى الله عليه

وسلم وكان إذا سلّم على النبي صلى الله عليه وسلم ردّ عليه السلام ويجاوبه إذا تحدث معه .

وذكر أيضاً في كتابه الوحيد؛ وكذلك ذكر الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور في رسالته عن الشيخ أبي الحسن الوناني قال : أخبرني الشيخ أبو العباس الطنجي قال : وردت على سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه فقال لي : ما أنا بشيخك ، شيخُك عبد الرحيم بقنا (اسم بلد) قال : فسافرت الى قنا فدخلت على الشيخ عبد الرحيم ، فقال لي : عرفتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت : لا ، أي لم أعرفه معرفة خاصة. فقال : رُحْ الى بيت المقدس . قال : فحين وضعت رجلي في الركاب وإذا بالسماء والأرض والعرش والكرسي كلها مملوءة من رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي من أنواره صلى الله عليه وسلم وأسراره المفاضة عليه من ربه تعالى) فرجعتُ الى الشيخ فقال لي : عرفتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقلتُ : نعم . فقال : الآن كملت طريقتك ، لم تكن الأقطاب أقطاباً ، ولا الأوتاد أوتاداً ولا الاولياء أولياء إلا بمعرفته صلى الله عليه وسلم .

وهذا باب واسع في كرامات الأولياء رضوانُ الله عليهم . وقد ذكر الحافظ السيوطي جزاه الله تعالى خيراً جملة واسعة من ذلك في كتابه الحاوي .

وقال الشيخ صفي الدين أيضاً في رسالته : قال لي أبو العباس الحرار : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم مرة فوجدته يكتب مناشير للأولياء بالولاية وكتب لأخي محمد منهم منشوراً . قال : وكان أخو الشيخ كبيراً في الولاية ، على وجهه نور ظاهر لا يخفى على أحد أنه وليٌّ ، فسألنا الشيخ عن ذلك ، فقال : نفخ النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه فأثّرتْ النفخة هذا النور . رضي الله عنهم أجمعين

وأفاض علينا ما أفاض عليهم بوجاهة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الله تعالى :-

وأما الاجتماع بأهل البرزخ مناماً فهو أمرحقٌ كثير الوقوع وفيه من الفوائد والعوائد ما فيه ، وهو على وجهين أيضاً :

إما أن يكون عن رغبة من النائم وهذا أمر ظاهر ،أو عن رغبة ممن هو في عالم البرزخ كما يدل على هذا ما جاء في قصة ثابت بن قيس ابن شماس رضي الله عنه وقد رواها الامام البغوي وابن المنذر والطبراني والحاكم وغيرهم عن عطاء الخراساني قال : قدمتُ المدينة فلقيت رجلاً من الأنصار قلت : حدثني حديث ثابت بن قيس بن شماس فقال الأنصاري : قم معي ، فانطلقت معه حتى دخلت على امرأة فقال الأنصاري : هذه ابنة قيس بن شماس فاسألها عمّا بدا لك • فقلت لها : حدثيني ـ أي عن أبيك ـ فقالت : سمعت أبي لما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي » الآية دخل بيته وأغلق بابه وطفق يبكي ففقده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ما شأن ثابت ؟ فقالوا يا رسول الله : ما ندري ما شأنه غير أنه قد أغلق عليه باب بيته فهو يبكي فيه • فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله ما شأنك ؟ قال : يا رسول الله : أنزل الله عليك هذه الآية وأنا شديد الصوت فأخاف أن أكون قد حبط عملي • فقال صلى الله عليه وسلم : لستَ منهم بل تعيش بخير وتموت بخير ، قالتْ : ثم أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يحب كل مختال فخور » فأغلق عليه بابه وطفق يبكي فيه فافتقده رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ما شأن ثابت ؟ قالوا : يا رسول الله ما ندري ما شأنه غير أنه أغلق عليه بابه وطفق يبكي ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما شأنك ؟ فقال : يا رسول

الله ، أنزل الله عليك هذه الآية « إن الله لا يحب كل مختال فخور »
والله إني لأحبّ الجمال وأحبّ أن أسود قومي ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : لستَ منهم بل تعيش حميداً وتقتل شهيداً ويدخلك
الله الجنة بسلام ، قالت : فلما كان يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد
الى مسيلمة الكذاب (أي مجاهداً) فلما لقي أصحاب رسول الله قد
انكشفوا فقال ثابت لسالم مولى أبي حذيفة أحد قراء الصحابة بالصوت
الحسن قال له ثابت : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم ثم حفر كلٌ منهما لنفسه حفرة وحمل عليهم القوم فثبتا حتى
قُتلا وكانت على ثابت يومئذ درع له نفيسة فمرّ به رجل من المسلمين
فأخذها . فبينا رجل من المسلمين نائم إذا أتاه ثابت بن قيس في منامه
فقال له : إني أوصيك بوصية إياك أن تقول هذه حُلم فتضيّعه : إني
لما قُتلت أمس مرّ بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزله في أقصى
العسكر وعند خبائه فرس يستنّ في طَوْله وقد كفأ على الدرع بُرْمةً
(أي قِدراً) وجعل فوق البرمة رحْلا فأتِ خالد بن الوليد — قائد
الجيش — فمره أن يبعث الى درعي فيأخذها وإذا قدمت على خليفة
رسول الله صلى الله عليه وسلم — أبي بكر — فأخبره أن عليّ من الدَّين
كذا وكذا ، ولي من الدّين كذا وكذا وفلان من رقيقي عتيق وفلان .
فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه . يعني أن هـذا منام ورؤياه حقٌ
فلا تضيعه .

فأتى الرجل خالد بن الوليد فأخبره بما رأى فبعث خالد الى
الدرع فنظر الى خِباءٍ في أقصى العسكر فإذا عنده فرس يَسْتَنُّ في
طوله فنظر الى الخباء فاذا ليس فيه أحد فدخلوا فرفعوا الرحْل فاذا
تحته برمة ثم رفعوا البرمة فإذا الدرع تحتها فأتوا به خالد بن الوليد
فلما قدموا المدينة حدّث الرجل الرائي — أبا بكر رضي الله عنه
برؤياه فأجاز وصيته — أي وصية ثابت — بعد موته . ولا يعلم أحد

من المسلمين جُوِّزت وصيَّته بعد موته غير ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه • ا هـ كما في الدر المنثور وغيره •

وفي هذا دليل على أن أهل البرزخ قد يتقصَّد بعضهم الاجتماع بأهل الدنيا عن طريق الرؤيا كما أنه يدل أيضاً على مشاهدة الشهداء ما يجري من أمور الدنيا كما يشاهد أيضاً أمور الآخرة ولكن كل شهيد له من الشهود على حسب مقام شهادته وإن مقام النبوة هو أرفع وأعظم وأسمى وأعلى من مقام الشهادة فللأنبياء من المشاهدات والاطلاعات على العوالم ـ في جميع العوالم ـ مالا يكون لغيرهم صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم أجمعين •

* * *

بعث الخلائق والأدلّة عليه

قال الله تعالى : « ثم إنكم بعد ذلك لميّتون • ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » •

إن من أصول الاعتقادات الإيمانية ـ الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى يبعث الخلائق بعد موتها فيجمع أجزاءها بعد تفرّقها ويعيد إليها أرواحها بعد مفارقتها ويعيدها كما بدأها •

قال الله تعالى:«وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده وهو أهون عليه». وقال تعالى : « كما بدأكم تعودون » • فهو سبحانه يعيد هذا الخلق بجواهره بل وأعراضه على المعتمد كما بدأه أول مرة ، وليس في هذا شيء من المُحالات العقلية ولا المناقضات الفكرية •

وذلك أن العاقل إذا أتبع نظراته العابرة في العالَم الإنساني وتكويناته الخلقية وتطوراته وتقلباته في تلك الادوار ، وتغيّراته في تلك الأطوار ، وهكذا أجال نظره في عالم النبات وانفلاق تلك النواة الدفينة في بطن الأرض بقدرة الباري تعالى ـ عن شجرتها وفروعها وأغصانها وثمراتها ثمّ وثمّ جعل يتنقل في عجائب الارض وعظمة السموات وما فيها من المبدَعات فإنه حينئذ تتجلّى له حقائق قدرة الباري تعالى ويشاهد آيات إبداعه وخلقه ويعلم يقيناً أن مَن قدر على بدء الخلق لهو قادر على إعادتهم بلا ريب •

ولقد جاء القرآن العظيم بطرق واضحة تثبت أمر المعاد الجسماني والروحاني ألا وهي طريقة البرهان وطريقة العيان وليس بعد البرهان

والعيان من دليل وتبيان ، وتلك الحجج القرآنية هي المحجّة البيضاء التي لا تعشو فيها الابصار ولا تختبط فيها العقول والأفكار ، ونحن نأتي بجانب منها إن شاء الله تعالى فنقول :

الطريقة الأولى : النظر في الآيات الآفاقية والنفسيّة .

قال الله تعالى : « ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب . أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد . قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ بل كذّبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ، أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكلّ عبدٍ منيب . ونزّلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنّاتٍ وحبّ الحصيد . والنخلَ باسقاتٍ لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدةً ميتاً كذلك الخروج . كذّبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسّ وثمود . وعاد وفرعونُ واخوان لوط . وأصحاب الأيكة وقوم تبّع كلّ كذّب الرسل فحقّ وعيد . أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبسٍ من خلْقٍ جديد » .

إذا أمعن القارىء في هذه الآيات الكريمة وتدبّر ما فيها يتضح له وجه المناسبات الحكيمة وأنها كلها براهين قطعية وأدلة عيانية شاهدة على أن الإعادة حقٌ وأن الله على كل شيء قدير ، وأنه لا يُعجزه شيء وذلك أن للإعادة أشباهاً ونظائر يتقلّبون فيها ويشاهدونها بأعينهم فعلام يعجب الجاحدون وينكر المنكرون ؟

« فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد » . استبعدوا الرجعة بعد الموت وتفرّق الأجزاء وبلاها فجاءهم الجواب : « قد علمنا ما تنقص الارض منهم وعندنا كتاب

حفيظ » وذلك أن ما تأكله الأرض من أجزائهم هو معلوم عند الله تعالى لا يغيب مهما تباعد وتفرّق فهو سبحانه يعلم كلّ جزء عن مَنْ انفصل وبمن كان اتصل ، وإن تلك الأجزاء كلها محفوظة في كتاب جمعها كلّها فهي وإن غابت عن أبصار أهل الدنيا لكنها محفوظة في ذلك الكتاب الذي عنده سبحانه بذواتها وذراتها . فإن استبعدوا ذلك بالنسبة للقدرة فهذه السموات والأرض أكبر خلقاً منهم وأشدّ فإن كانوا يرون أن الإعادة ليست أكبر من البدء فالذي قدر على البدء يقدر على الاعادة ، وإن كانوا يرون أن الإعادة أكبر من البدء وأعظم فلقد خلق الله سبحانه ما هو أكبر منهم وأشد خلقاً منهم وهي السموات والأرض المشهودة لديهم بأعينهم والى هذا يرشد سبحانه : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي » . أي وهي الجبال التي نصبها سبحانه وأودع فيها ما أودع من خزائن ومعادن وخصائص « وأنبتنا فيها من كلِّ زوجٍ بهيجٍ تبصرةً » ــ للمستبصرين (وذكرى) للمتذكرين ــ وما يتبصّر ويتذكر إلا كل عبد منيب ، ولذا قال سبحانه: « وذكرى لكلِّ عبد منيب » .

ثم بيّن الله تعالى في سياق الحجة على منكري الإعادة بعد الموت فقال سبحانه : ونزّلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد ــ الى قوله تعالى ــ كذلك الخروج » وهكذا الدليل يثبت قدرة الله تعالى ويثبت عظمة القدرة الإلهية وسعتها ، وهذا الدليل يقرّب أمر الإعادة ويبين أن لها نظائر وأشباهاً مشهودة أمامهم وذلك أنه سبحانه أنبت في هذه الأرض من حبة أو نواة دفينة في بطنها أصنافاً من زروع وأشجار وثمار على مختلف ألوانها وطعمها وتنوّع منافعها ، وذلك دليل باهر يبصر به أرباب البصائر ويستدل به أولوا العقول على إثبات البعث وكيفية الإعادة لهذا الجسم الذي تحتفظ الأرض

بأجزائه مهما تفرّقت وتبددت وتباعدت ومن تلك الأجـزاء الدفينة ينشيء الله تعالى النشأة الآخرة ولذا قال سبحانه : « كذلك الخروج » أي مثل هذا الإخراج المشهود المعايَن أمامكم من الأرض ـ الفواكه والثمار والأقوات والحبوب ـ فيخرجكم من الارض بعد ما غيّبتم فيها ودفنتم في أنحائها وبطونها .

ثم إنه سبحانه بيَّن في قوله : « كذبتْ قبلهم قوم نوح » الآيات ـ أن إنكار المعاد وتكذيب الرسل هو عادة كل جبار عنيد يكذّب بالحق بعد ما تبيَّن وينكر الواقع بعد ما اتضح ، فلا فائدة في الجدل معه فإنه لا يستخرج منه العناد إلا سطوة ربِّ العباد ، وأخذه بالعذاب والعقاب « كلٌّ كذّب الرسلَ فحقَّ وعيد » .

ثم بيّن سبحانه دليلا نفسياً على إثبات الإعادة لهذا الخلق بأنه سبحانه لمّا بدأ هذا الخلق لم يعي ولم يمسسه لغوب ولا تعب فيعجز عن إعادته ثانياً . فإن كانوا قد عَموا وصَمّوا عن الأدلة السابقة كلها السماوية والأرضية فليتفكروا في أنفسهـم وليتعقّلوا في نشأتهـم الحاضرة التي هم فيها فانهم الآن يتقلّبون في خلق جديد يتجدد عليهم غـير أنهم قد التبس الأمر عليهـم فظنوا أنهم هم في كل حال وأنهم لا يعتريهم تبديل ولا تحويل ولا تخليق جديد ولكن الأمر ليس بذلك بل إنهم في كل لحظة بل في أقل من أجزاء اللحظة تفنى منهم أجزاء خلْقية وجواهـر فردية ويخلقُ الله تعالى غـيرها ويُجدِّد عليهم وجودَها وهكذا وهكذا .

وهذا الأمر لا يخالف فيه إلا جاهل مكابر فان الانسان خلقـه الله تعالى أولا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنيناً ثم طفلا ثم صبياً ثم مراهقاً ثم شاباً ثم كهلا ثم شيخاً ثم هَرِماً فانياً . ومن المقطوع البديهيّ أنه لم ينتقل من طَوْر الى طور دفعة واحدة بل مرَّت عليه لحظات وساعات

فنيت منه أجزاء وتجدّدت فيه أجزاء أخرى شيئاً فشيئاً تدريجياً حتى انتقل الى الطور الثاني وهكذا دواليك ، ولكن لم يتبين له ذلك حتى مضت مدة طويلة فبان له الأمر وظهر فيه التطوير والتبديل والتجديد والتحويل. قال الله تعالى: «مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطواراً». وقال الله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة . فخلقنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميّتون . ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون » أي فلا فرق بين تلك الأطوار التي يقلبكم فيها بالنسبة لقدرته سبحانه ولا يُعجزه شيء في ذلك بل إن جميع ذلك يسير عليه وهو على جميع ذلك وغير ذلك قدير .

وقال تعالى : « أولم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلْقه قال من يُحيي العظام وهي رميم . قل يُحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلْق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادرٍ على أن يخلق مثلَهم بلى وهو الخلاّق العليم » .

روى ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أن العاص ابن وائل الجاهلي أخذ عظماً من البطحاء ففتّه بيده ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أيحيي الله هذه بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم ْ يُميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم » فنزلت هذه الآيات ردّاً عليه وعلى أمثاله وروي أن القائل ذلك هو أبي بن خلف فجاء الجواب القرآني على هذه الشبهة الفاسدة بوجوه :

١ ــ إن هذا الضالّ استبعد الإعادة والحياة في عظامٍ رفاتٍ

وترك نفسه من الاعتبار فإن الله تعالى الذي خلق الإنسان ونقله من العدم الى الوجود لهو قادر على الإعادة فما لهذا الضليل نسي خلقه بعد العدم فراح ينكر حياته بعد الموت ؟

٢ ــ « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة » فإن إيجاد المبادىء أصعب في مطرد العادة والعرف من ردّ شيء كان الى ما كان عليه من ذي قبل • يعني أن القادر على البداية هو قادر من باب أولى على الإعادة•

٣ ــ « وهو بكلّ شيء عليم » فإن جميع أجزاء الانسان مهما تفرقت وتباعدت فانها معلومة عند الله تعالى محفوظة عنده لا يضلّ ربي ولا ينسى ولا يلتبس عليه شيء •

٤ ــ « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » • وفي هذا دليل على أن هناك قوة تتغلب عـلى المتنافرين المتناقضين وهما الأخضر الحيّ ، والنار اليابسة ، ألا وهي قدرة الله تعالى الذي يستخرج الشيء من ضده بل ومن نقيضه •

٥ ــ إن الذي أبرز النار التي كانت كامنة في الشجر والحجر فأظهرها بالقدح وأشعلها بالنفخ لهو قادر على أن يبرز الميت الدفين في التراب الكامن في الخبايا الأرضية بسبب أنه سبحانه يأمر إسرافيل عليه السلام بالنفخ في الصور والنقر في الناقور •

الطريقة الثانية من الحجج التي أقامها الله تعالى على عباده وأثبت لهم فيها قدرته على إعادة الخلق بعد موتهم هي طريقة الشهود والعيان وهي أن الله تعالى أجرى في ذلك أموراً فعلية حيث أمات فيها طوائف من الانسان ومن الحيوان ومن الطيور ثم أحياهم بعد موتهم عـلى مشهد ومرأى من الناس ليعلموا أن الذي أعاد ذلك بعد الموت لهو قادر على أن يعيد الأموات كلهم بعد موتهم وقد أخبر القرآن عن تلك الوقائع وبين أنها أمور معلومة ومشهودة لدى الأمم الماضية •

فمن ذلك ــ القوم الذين أخبر الله تعالى عنهم بقوله : « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حَذَرَ الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون » • قال الحافظ ابن كثير : ذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم أهل بلدة من زمان بني اسرائيل استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد فخرجوا فراراً من الموت هاربين الى البرية فنزلوا وادياً أفيح ــ واسعاً ــ فملؤا ما بين عَدْوتيه فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادي والآخر من أعلاه فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم ثم إنهم تفرّقت أجزاؤهم وتمزّقت فلما كان بعد دهر مرّ بهم نبيٌّ من أنبياء بني اسرائيل يقال له حزقيل فسأل الله تعالى أن يحييهم على يديه فأجابه الى ذلك وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة ولهذا قال تعالى : « إن الله لذو فضل على الناس » •

أي فيما يُريهم من الآيات الباهرة ، والحجج القاطعة والدلالات الدامغة التي تثبت أن الله تعالى قادر على إعادة الأموات بلا ريب •

ومن ذلك أيضاً ــ السبعون الذين اختارهم موسى عليه الصلاة والسلام للميقات الذي وعده الله تعالى أن يكلمه فيه وينزل عليه التوراة ــ أماتهم الله تعالى ثم أحياهم •

قال تعالى : « وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك » أي بأن الله تعالى أعطاك التوراة أو أن الله تعالى قد كلّمك « حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة » أي نار من السماء أحرقتهم أو صيحة سماوية خرّوا لها صَعِقين ميتين يوماً وليلة « وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » • وكان بعثهم بعد موتهم بسبب دعاء موسى عليه الصلاة والسلام ومناشدته ربه •

ولا يتنافى موت هؤلاء الذين تقدم ذكرهم في الدنيا مرّتين مع قوله تعالى : « ربّنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا » لأن موتهم إذ ذاك لم يكن عن استيفاء آجالهم وإنما هو موت عقوبة فكأنه ليس بموت أي أنه عارض أعقبه حياة في الدنيا نفسها لا في عالم آخر فلا يختلف مع الآية الثانية .

ومن ذلك أيضاً قصة العُزير عليه السلام أماته الله تعالى مائة عام ثم بعثه . قال الله تعالى : « أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال : كم لبثتَ ؟ قال : لبثتُ يوماً أو بعض يوم . قال : بل لبثتَ مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبيّن له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير » .

قال جمهور السلف رضي الله عنهم : إن هذا الذي مرّ على قرية هو العُزَير أحد أنبياء بني إسرائيل مرّ على بلد بيت المقدس بعد ما دخلها بختنصّر وخرّبها فرآها العُزير وهي خاوية على عروشها أي ساقطة على سقوفها باعتبار أن سقوف البيوت تسقط أولا ثم تتهدم الجدران وتتساقط عليها أي على السقوف « قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها » . قال ذلك استعظاماً للأمر وتفخيماً وتعجّباً من عظمة قدرة الله تعالى القدير على كل شيء لا من باب الاستبعاد والإنكار ، وذلك نظير قول زكريا عليه الصلاة والسلام فيما أخبر الله تعالى عنه لما بُشّر بالغلام « قال : ربّ أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغتُ من الكبر عتياً » يعني أن ذلك الأمر عظيم جدير بأن يُتعجب من عظمته وفخامته .

«فأماته الله مائة عام ثم بعثه» أحياه بعد موته «قال كم لبثتَ»وهذا

السؤال ورد لإظهار عجز العُزير وغيره عن الإحاطة بشؤون الله تعالى وعظيم قدرته « قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم » وإنما قال ذلك لأنه مات ضحى النهار وبُعِث بعد المائة قبل الغروب فقال قبل أن ينظر الى الشمس : يوماً • ثم التفت فرأى أن الشمس لم تغرب بل آثار أنوارها على الأماكن العالية فقال : أو بعضَ يوم • على طريق الإضراب « قال بل لبثتَ مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنَّه » أي لم يتغيَّر في هذه المُدَد الطويلة والسنين العديدة وكان طعامه عـلى ما رُوي عنباً وتيناً ، وشرابه عصيراً أو لبناً • « وانظر الى حمارك » كيف نخرت عظامه ، وتفرَّقت أوصاله ، وهكذا أمره الله تعالى أن ينظر أولا الى طعامه وشرابه حيث إنها لم تتغير حتى يبين له أن الذي حفظ له طعامه وشرابه من التغيّر والفساد على طول السنين المائة ــ هو الذي حفظ العُزير من التغيُّر ومن أن تأكله الأرض وتفسده على السنين العديدة بل أبقى له جسمه بعد موته وحفظه من البلى لأن الله تعالى حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء •

وأمره الله تعالى أن ينظر ثانياً الى حماره وقد بلي وتفرّق وتمزق ليزداد يقيناً بأنه مرَّ عليه مائة سنة ، ثم قال تعالى له : « ولنجعلك آية للناس » أي عبرة ودليلا على قدرة الله تعالى على إحياء الأموات وبعثها وأنه سبحانه قادر أن يحفظ أجساد مَن أراد حفظهم وأنه سبحانه قدير على كل شيء ولا يعجزه شيء ثم قال له : « وانظر الى العظام » أي عظـام الحمار البالي المتفرّقة أوصاله وعظامه « كيف ننشزها » أي كيف نرفعها من الارض ونركّبها فوق بعضها ونعيدها لما كانت قبل الموت والتمزق « ثم نكسوها لحماً » أي تستر العظام باللحم كما نستر الجسد باللباس « فلما تبيَّن له » اتضح له اتضاحاً تاماً وعاين كيفية الاحياء « قال أعلم أن الله على كل شيء قدير » وذلك علم رؤية وعيان فوق ما أنا عليه من اليقين والإيمان •

ومن ذلك قصة إحياء الطيور على يد الخليل سيدنا ابراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام وقد ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم بعد قصة العزير عليه السلام •

قال الله تعالى : « وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تحيي الموتى قال : أوَلم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي • قال : فخذ أربعة من الطير فصُرْهُنَّ إليكَ ثم اجعلْ على كلِّ جبلٍ منهنّ جزءاً ثم ادعهنّ يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم » •

اختلفت الأخبار المنقولة عن علماء السلف رضي الله عنهم في سبب سؤال الخليل — على نبينا وعليه الصلاة والسلام — ربَّه أن يريه كيفية إحياء الموتى •

فجاء عن الحسن البصري والضحاك وقتادة وغيرهم أن الخليل عليه الصلاة والسلام سأل ربه ذلك لينتقل من مرتبة علم اليقين الى عين اليقين •

وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والطبراني والحاكم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس الخبر كالمعاينة إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومُه في العجل فلم يُلقِ الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت » •

وروي عن ابن عباس والسدي وسعيد بن جبير أن الملك بشَّر الخليل عليه السلام بأن الله تعالى قد اتخذه خليلا وأنه يجيب دعوته وأنه يحيي الموتى بدعائه فلذلك سأل الله ما سأل •

وروي عن محمد بن اسحاق أن سبب سؤال الخليل ذلك — هو منازعة النمرود إياه في إحياء الموتى حين قال له الخليل : « ربي الذي يحيي ويميت » وردَّ على النمرود زعمه أن العفو عن المجرم هو إحياء

له وأن تنفيذ القتل فيه إماتة له ، وراح النمرود يتوعّد الخليل بالقتل إن لم يحيِ الله الموتى على يد الخليل بحيث يشاهد النمرود ذلك فدعا سيدنا الخليل ربه حينئذ فقال : « ربّ أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن » أي ألم تعلم وتؤمن بأني قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألني عنه ؟

أولم تؤمن بأني قد اتخذتك خليلا ، أولم تؤمن بأن الجبار النمرود لا يستطيع أن يقتلك « قال بلى » أي أنا مؤمن بذلك إيماناً لا شك فيه « ولكن ليطمئنّ قلبي » بانضمام رؤية العيان الى الإيمان والايقان بأنك القادر على ذلك وليطمئن قلبي بالخلّة التي تفضّلت بها عليّ وأكرمتني بها وبلوازمها من إجابة الدعاء وما وراء ذلك . أو ليطمئن قلبي بأن الجبار لايقتلني بعد مايشاهد كيفية إحيائك للموتى على يديّ .

وعلى كلٍّ فسؤال الخليل لم يكن عن شكّ أصلا بدليل قوله : « أولم تؤمن قال بلى » أي أنا مؤمن « ولكن ليطمئن قلبي » .

وقد قطع النبي صلى الله عليه وسلم دابر الوهم الذي يتلاعب في بعض الخواطر فيخيّل إليها أن الخليل عليه السلام قد اعتراه بعض الشك فلذلك سأل ما سأل فإن نبينا صلى الله عليه وسلم قطع دابر الوهم الباطل بقوله على سبيل التواضع والتبرئة كل البراءة فقال كما في الصحيحين عن أبي هريرة : « نحن أحق بالشك من إبراهيم عليه السلام إذ قال ربّ أرني كيف تحيي الموتى » ويعني بذلك صلى الله عليه وسلم أنا لم نشكّ أصلا فلم يشك إبراهيم الخليل أصلا فكأنه صلى الله عليه وسلم يقول : إن شكّ إبراهيم فنحن أحقّ بالشك ولكنا نحن لم نشكّ فإبراهيم لم يشكّ صلوات الله تعالى على حبيبه وخليله وآلهما أجمعين .

قال سبحانه : « فخذ أربعةً من الطير » أي مختلفة الأنواع ، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها : الغرنوق والطاووس والديك والحمامة وروي غير ذلك وعلى كل فإن المقصود أربعة من الطير متنوعة وإنما خصّ الطير بذلك لسهولة ما يُفعل بها من التجزئة والتوزيع والتفرقة على الجبال ولما فيها من مزيد قابليَّة تفرق أجزائها من الريش ونحوه ففي جمعهـا وإعادتها واحيائهـا مزيد ظهور لقدرته سبحانه « فصُرْهنَّ » أي قطّعهن أجزاء واضممهن « إليك » واجمعهـن « ثم اجعل على كل جبل منهنَّ جزءاً » وبهذا أمر الله تعالى الخليل عليه السلام أن يذبح تلك الطيور ويقطعها إرَباً إرباً ويجزئها ما استطاع من التجزئة ويخلطها الى بعضها ثم يجعل على كل جبل منهن جزءاً ، واختلف في عدة الجبال التي فرقها عليها فروي أنها أربعة وروي سبعة وروي أنها عشرة « ثم ادعهنَّ يأتينك سعياً » أي ساعياتٍ مسرعاتٍ في العَدْوِ والعودة إليك ، والحكمة في سعي الطيور إليه مشياً دون الطيران إليه هي أنها لو طارت لتوهم مُتوهِّم أنها غير تلك الطيور الميتة التي ذبحها وفرقها أو أن أرجلها أو بعضها غير سليمة ولذا قال سبحانه : « يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم » غالب لا يعجـزه شيء حكيم يضع الأشياء في مواضعها وفي هذا دلالة على أن هذا الأمر كان على مشهد من الناس وعلى مرأى من النمرود وملائه ليكون حجة للخليل عليه السلام قائمة على النمرود وأتباعه ولذلك جاءت هذه القصة بعد ماذكر الله تعالى المحاجة التي جرت بين الخليل والنمرود قال سبحانه : « ألم تر الى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يُحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت » الآية فهذه وقائع ثابتة أجراها الله تعالى وأوقعها ليقيم الحجة على العباد وليبين لهم أنه قادر على إحياء الموتى سبحانه ، وإعادتهم الى حياة جديدة في عالمٍ آخر يوم القيامة أي « يوم يقوم الناس لرب العالمين » .

شُبَه المنكرين للاعادة و بطلانها

لقد أزال الله تعالى شبه المنكرين للإعادة وأبطلها كلّها وذلك أن شبه المنكرين للإعادة ترجع الى ثلاثة أنواع :

الأول : اختلاط أجزاء الأموات بأجزاء الارض واختلاطها بأجزاء أخرى فكيف يحصل التمييز بينهما ؟

الثاني : أن القدرة لا تتعلق بذلك في زعم المنكرين وأن ذلك غير ممكن في زعمهم .

الثالث : زعْم المنكرين أن الإعادة لا فائدة منها وأنّ الحكمة تقتضي دوام هذا النوع الانساني جيلا بعد جيل هكذا أبداً على وجه البقاء . فجاءت براهين القرآن المثبتة للمعاد مبنيّة على ثلاثة أصول بها أزاح الله تعالى شبهات المنكرين ومزاعمهم الباطلة :

أولاً : تقرير القرآن الكريم سَعَةَ عِلم ربّ العالمين وإحاطته بكل شيء وأنه لا يخفى عليه شيء ولا يلتبس عليه شيء ، فقال سبحانه : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » أي فلا يلتبس علينا شيء ولا يغيب عنا جزء بل نحن بكل جزء عالمون وله حافظون في عالم عندنا فتلك الأجزاء وإن غابت عن أبصارهم فهي لاتغيب عنا بل هي محفوظة لدينا .

ثانياً : تقرير القرآن الكريم كمال قدرة ربّ العالمين وأنه لا يُعجزه شيء قال تعالى : « أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاّق العليم » أي فالذي خلق

ما هو أكبر من الانسان وأشد وهو السماوات والأرض هو قادر على إعادة هذا الانسان لأن إعادته ليست أكبر من بدايته ولئن فرض أنها أعظم من البدء فلقد خلق ما هو أعظم وأكبر من الإنسان وهو السماوات والأرض المشهودة بالعيان •

« إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كُن فيكون » •

ثم إنه أرانا أموراً واقعية مشهودة في الانسان والحيوان والطيور أماتها وفرّق أجزاءها ثم أعادها وأحياها ، فذكر لنا قصة الذين أماتهم وهم ألوف ثم أحياهم وقصة السبعين كما تقدم وقصة العزَير عليه السلام ونحوها كما تقدم ليكون ذلك حجة مشهودة دالّة على قدرته سبحانه على إحياء الموتى •

ثالثاً : تقرير القرآن الكريم كمال حكمة ربّ العالمين وأن من مقتضى حكمته أن يعيد الخلق ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا وليميز الله الخبيث من الطيب ، وليأخذ الحقّ من الظالم للمظلوم ، ومن الباغي لمن بُغي عليه ، وهذا مقتضى العدل والحكمة بلا ريب فهو سبحانه لم يخلق العالَم عبثاً بل خلق العالم بالحقّ ولا بدّ أن ينتهي أمر العالم للحقّ •

قال تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » •

وقال تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحقّ وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل » •

وقال تعالى: « أفحسبتم أنما خلقناكم عَبَثاً وأنكم إلينا لاترجعون. فتعالى الله الملك الحقّ » •

وقال تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم

كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » .

يعني أن الحكم بالتساوي بين المتناقضين هو حكم سيِّئ مردود عند أهل الحكمة المخلوقة الجزئية فكيف عند حكمة الخالق التي لا تتناهى ؟ فكما أنه لا يتساوى ظلام الليل مع ضياء النهار ، ولا يتساوى الأعمى والبصير ، ولا الذين يعلمون والذين لا يعلمون فلا يتساوى المسيئون مع المحسنين ولا الطالح مع الصالح بل لا بدّ من التمييز بينهما في عالَم آخر تظهر فيه النتائج وتبرز فيه الدقائق ، وتحقّ فيه الحقائق . وهو يوم الحاقّة وما أدراك ما الحاقة ؟

قال تعالى : « الحاقّة ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة » .

* * *

كيفية البعث

قال الله تعالى : « ويوم ينفخ في الصور ففزع مَنْ في السموات ومن في الأرض إلا مَن شاء الله وكلٌّ أتوه داخرين » •

وقال الله تعالى: « ونُفخ في الصور فصعِق مَن في السموات ومَن في الارض إلا مَن شاء الله ثم نُفِخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »•
والبحث في ذلك له عدّة أطراف :

أولاً : اختلف العلماء في عدد النفخات في الصُور ؟ فذهب كثير من العلماء الى أن النفخات ثلاثة : نفخة فَزَع وهي السابقة على غيرها ، ونفخة صعْق أي إماتة ، ونفخة إحياء ،

فعند نفخة الفَزَع يفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ثم يُنفخ نفخة الصعق « أي الإماتة » فصعِق من في السموات والأرض إلا من شاء الله ثم بعد ذلك بمدة طويلة يُنفخ نفخة الإحياء فإذا هم قيام الى ربهم ينظرون •

وذهب قسم من العلماء الى أن هناك نفختين : نفخة إماتة ونفخة إحياء •

ثانياً : أما الذين استثناهم الله تعالى من الفزع والصعق حين يُنفخ في الصُور فقد اختُلف فيهم فقيل هم جبرئيل ، وإسرافيل ،

وميكائيل ، وملك الموت على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، وقيل هم الأنبياء والى ذلك جنح البيهقي كما في الفتح ، وقيل هم الشهداء أي ومن باب أولى وأجدر استثناء الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقيل هم الحور العين وخزنة الجنة وخزنة النار ، وعلى كلّ من الاقوال فالواجب اعتقاد أن هناك مَن استثناهم الله تعالى وإني لا أريد الآن أن أطيل البحث في تحقيق ذلك لأنه يحتاج الى بسط وبيان فربما نأتي عليه في غير هذا الموضع إن شاء الله تعالى .

ثالثاً : وأما المدة فيما بين النفختين : الإماتة والإحياء ، وكيفية إحياء الموتى فقد جاء في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مابين النفختين أربعون» . قالوا لأبي هريرة : أربعون يوماً ؟ قال : أبَيْتُ (أي لا أجزم بذلك) قالوا : أربعين شهراً ؟ قال : أبيت (أي لا أجزم بأنها أربعون شهراً) قالوا : أربعين سنة ؟ قال : أبيت ـــ ثم يُنزِل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل . قال صلى الله عليه وسلم : وليس شيء من الانسان إلا يَبْلى إلاّ عظماً واحداً وهو عَجْب الذَنَب ومنه يُركّب الخلق يوم القيامة » .

ففي هذه الرواية لم يجزم أبو هريرة بتعيين الأربعين ما هي ؟ ولكن جاء في رواية لأبي داود أنها أربعون سنة .

وفي رواية لمسلم قال صلى الله عليه وسلم : إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً منه يركّب الخلْق يوم القيامة . قالوا : أيّ عظم هو يا رسول الله ؟ قال : عجب الذَنَب .

وفي رواية مالك وأبي داوود والنسائي : « كلّ ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب منه خُلِق ومنه يُركّب » .

وعجب الذنب هو كما قال الامام النووي بفتح العين وسكون الجيم ـ العظم اللطيف الذي هو في أسفل الصلب وهو رأس العصعص ـ ويقال له عجم بالميم وهو أول ما يخلق من الارض في ابن آدم وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه كما أوضحه النووي رضي الله عنه ٠

وفي هذا الحديث الشريف بيان لكيفية إعادة الله تعالى الخلائق بعد موتها وبعثها من قبورها وذلك أن الله تعالى ينزل من السماء ماء على ذلك الجزء الباقي من ابن آدم وهو عجب الذنب ، ويجمع الله تعالى ما تفرق من تراب ذلك الجسم وتربو أجسامهم حتى تصير مستعدة لتلبس الروح فيها ثم إن الله تعالى يأمر الملك فينفخ في الصور نفخة الإحياء فهنالك تتطاير كلّ روح الى جسمها الذي كانت تعمره « فإذا هم قيام ينظرون » ٠

قال الله تعالى : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً » ٠

وقال الله تعالى : « إنا نحيي ونميت وإلينا المصير ٠ يوم تشقّق الأرض عنهم سِراعاً ذلك حشر علينا يسير » ٠

فالبعث عبارة عن إخراج ذلك الدفين في خبايا الأرض وبثّ الروح فيه ومن هنا نرى أن الله تعالى يشبّه أمر البعث والإعادة بإنباته الزروع والاشجار وإحيائه الأرض بالمطر بعد موتها ٠

قال الله تعالى : « وهو الذي يرسل الرياح بُشْراً بين يديْ رحمته حتى إذا أقلّتْ سحاباً ثقالا سُقناه لبلدٍ ميّتٍ فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نُخرج الموتى لعلكم تذكّرون » ٠

وقال تعالى : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّتْ وربَتْ وأنبتت من كلّ زوج بهيج • ذلك بأن الله هو الحقّ وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير • وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث مَن في القبور » • فهو سبحانه كما ينشىء تلك الشجرة العظيمة والزروع الخصيبة ـ بإنزال المطر على تلك النواة والحبة الدفينة في بطن الأرض كذلك يخرج الله تعالى هذه الاجسام البشرية من تلك الذراري والأجزاء الدفينة في بطن الارض بإنزال ماء عليها ثم بثّ الروح فيها بسبب نفخة الصُور •

وهذا الماء الذي يحيي به الله تعالى الأجسام البشرية بعد موتها هو ماء الحياة المشتمل على جميع العناصر الوجودية الأربعة وهو المذكور في قوله تعالى : « أولم يرَ الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رَتْقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ أفلا يؤمنون » •

فكانت السموات والأرض رَتقاً أي جملة مجملة في الماء ففتقها سبحانه أي فصّل وجودهما : أولا : الى مرحلة تبخير الماء وتكثيفه فمن بخار الماء اللطيف خلق السموات ومن كثيف الماء خلق الأرض والأجرام ـ ثم فصّلهما الى سبع سموات وسبع أرضين ، ثم أمطر السماء وأنبت الارض •

قال تعالى : « وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ » أي الماء الذي كانت السموات والأرض رتقاً فيه جعلنا من ذلك الماء كل شيء حي « أفلا يؤمنون » •

ومما يدل على ذلك ويبين المقصود من ذلك الماء الوارد في الآية الكريمة ـ الحديث الذي رواه الامام أحمد وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قلتُ يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرّت

عيني فأخبرني عن كل شيء فقال صلى الله عليه وسلم : « يا أبا هريرة كلّ شيء خلق من ماء » .

وهذا الحديث بيان للآية الكريمة .

ومن ذلك الماء أيضاً ما جاء في الصحيحين من حديث الشفاعة أن العصاة حين يخرجون من جهنم يُلْقون في نهر الحياة فينبتون نبات الحِبَّة في حَمِيل السيل الحديث .

رابعاً : البحث في الصّور والنافخ فيه بأمر الله تعالى :

أما الصور فهو كما قال الجمهور من العلماء العارفين : هو عالَم عظيم من عوالم الله تعالى تجتمع فيه الأرواح بعد مفارقتها للأجسام وتختلف في منازلها على حسب اختلاف مراتبها ودرجاتها وقد ورد أن شكل عالم الصور يشبه القرن في ضيق أعلاه وسعة أسفله فهو ليس كروي الشكل كالأرض ونحوها بل قرني الشكل .

قال الامام الترمذي في سننه : باب ما جاء في شأن الصور ، ثم أسند الى عبد الله بن عمرو قال : جاء أعرابي الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما الصّور يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « قرن يُنفخ فيه »(١) .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أنعَم وقد التقم صاحب القرن القرنَ ، وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يُؤمر فينفخ ، فكأنّ ذلك ثقل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : كيف نفعل أو كيف نقول ؟

---

(١) قال في الترغيب: رواه أبو داوود والترمذي وابن حبان في صحيحه ا هـ.

فقال صلى الله عليه وسلم: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»(١).

وأما صاحب القرن أي الصور الذي يُنفخ فيه فهو إسرافيل عليه السلام كما جاء مصرَّحاً به في جملة من الأحاديث.

قال في الفتح: اشتهر أن صاحب الصور هو إسرافيل عليه السلام ونقل فيه الحليمي الإجماع، ووقع التصريح به من حديث وهب بن منبه، وفي حديث أبي سعيد عند البيهقي وفي حديث أبي هريرة عند ابن مردويه وكذا في حديث الصور الطويل الذي أخرجه عبد بن حميد والطبري وأبو يعلى في الكبير والطبراني في المطولات وعلي بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية والبيهقي في البعث من حديث أبي هريرة. الخ اهـ.

فبعد ما ينبت الله تعالى هذه الاجسام ويجعلها قابلة للروح ـ يأمر الملك أن ينفخ في الصور نفخة الاحياء فتتصل كلّ روح بجسمها ولا تخطئه فما أشبه الإعادة بالبداءة قال الله تعالى «كما بدأنا أول خلقٍ نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين» وقال تعالى: «منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى» وقال تعالى: «والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً».

---

(١) قال في الترغيب: رواه الترمذي واللفظ له قال حديث حسن وابن حبان في صحيحه ورواه أحمد والطبراني من حديث زيد بن أرقم ومن حديث ابن عباس أيضاً. اهـ.

عالـم الحشر

الحشر في لغة العرب معناه الجمع ، والمراد بالحشر جمع الخلائق كلهم الى الموقف بعد بعثهم وإخراجهم من بطن الأرض . قال الله تعالى : « ويوم نسيِّر الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نُغادر منهم أحداً » أي فلم تترك منهم واحداً وذلك أن الله تعالى يسيِّر فيه الجبال بعد ما كانت ثابتة راسخة في أماكنها وإذا بها طرأت عليها حالة أنها سُيِّرت فكانت سراباً ، وهذه الحالة هي من جملة الاحوال التي ذكرها الله تعالى عن الجبال يوم القيامة .

قال العلامة الفخر الرازي رحمه الله تعالى : إن الله تعالى ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة ــ أي يوم القيامة ــ ويمكن الجمع بينها بأن نقول : أول أحوالها الاندكاك وهو قوله تعالى : « وحُملت الارض والجبال فدكّتا دكّةً واحدة » أي مُسحت الأرض وجبالها ودُقّ بعضها ببعض والحالة الثانية : أنها تصير كالعهن المنفوش وهو قوله تعالى : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » أي تصير بعد أن كانت صلبة تصير كالصُوف المندوف .

والحالة الثالثة : أن تصير كالهباء المنبثّ في الهواء قال تعالى : « وبُسّت الجبال بساً فكانت هباء منبثاً » أي فتّتت حتى صارت كالدقيق المبسوس أي المبلول .

والحالة الرابعة : أن تنسفها الرياح عن وجه الارض فتطيرها في الهواء وهو قوله تعالى:« ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً» .

والحالة الخامسة : أن تصير سراباً أي لا شيء كما يرى السراب من بعيد وهو قوله تعالى : « وسيِّرت الجبال فكانت سراباً » اهـ .

وقال الله تعالى : « واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير يوم تشقَّق الأرض عنهم سِراعاً ذلك حشر علينا يسير » . وهذا المنادي هو إسرافيل عليه السلام فإنه ينادي بالأموات عن أمرٍ من الله تعالى ـ من مكان قريب من ذاتهم وجميع ذراتهم قائلا : « يا أيتها العظام البالية والأوصال المتقطِّعة ، واللحوم المتمزِّقة والشعور المتفرقة إن الله تعالى يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء » .

وفي هذا يقول سبحانه : « فتولَّ عنهم يوم يدعُ الداع الى شيء نُكُر . خُشَّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث (أي القبور) كأنهم جراد منتشر . مهطعين (أي مسرعين) الى الداع يقول الكافرون هذا يوم عَسِر » .

ثم قال سبحانه : « يوم يسمعون الصيحة بالحق » وتلك النفخة الثانية التي يكون بها الإحياء « ذلك يوم الخروج » من القبور « إنا نحن نحيي ونميت » أي لا شريك لنا في ذلك « وإلينا المصير » مصير العالم ورجوع الخلائق إلينا لأجل الحساب والجزاء « يوم تشقَّق الارض عنهم سِراعاً ذلك حشر علينا يسير » والمعنى أنهم يخرجون من القبور مسرعين الى المحشر وأول من تنشقّ عنه الارض هو السيِّد الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم الذي خُصَّ بالأوليات في جميع العوالم .

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة . وأنا أوّل من ينشقّ عنه القبر . وأنا أوّل شافعٍ وأول مشفَّعٍ » .

وإنما ذكر سيادته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة مع أنه هو سيد ولد آدم في كل العوالم ــ ذلك لأن يوم القيامة هو يوم مجموع له الناس فتظهر فيه سيادته لكل امرىء عياناً بلا إنكار منكر ، فلا ينافي أن سيادته صلى الله عليه وسلم ثابتة في الدنيا وفي جميع العوالم ، وأطلق في الوصف بذلك أي بسيادته صلى الله عليه وسلم ولد آدم لإفادة العموم لأولي العزم وغيرهم من الأنبياء والمرسلين وتخصيص ولد آدم ليس للاحتراز إذ هو صلى الله عليه وسلم أفضل حتى من خواص الملائكة إجماعاً كما أوضح ذلك المحققون العلماء .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة و لافخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبيٍّ يومئذ آدم فمَنْ سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشقّ عنه الأرض ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفّع ولا فخر »(١) .

أي هو يقول ذلك صلى الله عليه وسلم شكراً لا فخراً بل شكراً لله تعالى وتحدثاً بنعمته وإعلاماً للأمة أنه مما يجب عليه تبليغه ليعتقدوا فضله على من سواه صلى الله عليه وسلم . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أول مَن تنشقّ عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر ثم آتي أهل البقيع فيُحشرون ثم انتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين » رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

* * *

(١) قال الحافظ الزرقاني : رواه الترمذي وقال حديث صحيح وكذا رواه ابن ماجه والامام أحمد .

صفة أرض المحشر

قال الله تعالى : « فإنما هي زجرة واحدة فاذا هم بالساهرة » .

والمعنى فإنما هي الرادفة التي هي النفحة الثانية التي بها احياء الأموات : « زجرة واحدة » يجمعون بها جميعاً ولا يتخلف منهم أحد. « فإذا هم بالساهرة » أي صاروا كلهم على وجه أرض المحشر وإنما وصفها بالساهرة لسعة أطرافها وتباعد أكنافها ، وشدة مخاوفها ، ومتالفها ، فلذا كان شأن من حلّ فيها أن يكون ساهراً لا ينام لشدّة الفزع والخوف إلا من آمنه ورحمه الله تعالى .

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن سهل بن سعيد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُحْشَر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء(١) كقرصة النقيّ(٢) ليس فيها عَلَم لأحد » . وفي رواية : « ليس فيها مَعْلَم لأحد » (٣). أي ليس فيها علامة لأحدٍ من أبنية مرتفعة أو قصور ممتعة أو تلول أو جبال ممتنعة.

---

(١) قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : العَفَر بياض يضرب الى حمرة قليلاً ومنه سمي عفر الارض وهو وجهها . ا هـ .

(٢) قال في الفتح : النقي بفتح النون وكسر القاف أي الدقيق النقيّ من الغش والنخال قاله الخطابي .

(٣) العَلَم والمعلم واحد . قال القاضي عياض: والمراد أنها ليس فيها علامة سكن ولا بناء ولا أثر ولا شيء من العلامات التي يهتدى بها في الطرقات كالجبل والصخرة البارزة ، وفيه تعريض بأرض الدنيا وأنها ذهبت وانقطعت العلاقة منها .

قال في الفتح : وفيه ــ أي الحديث المتقدم ــ إشارة الى أن أرض الدنيا اضمحلّت وأعدِمت° وأن أرض الموقف تجدّدت ٠

قال : وقد وقع للسلف خلاف في المراد بقوله تعالى : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات » ؛ هل المراد بتبديلها ــ تغيير ذاتها وصفاتها ؟ أو تغيير صفاتها فقط ؟

قال الحافظ : وحديث الباب يؤيّد الاول٠ وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والطبري في تفاسيرهم والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض » الآية ٠ قال تبدل الارض أرضاً كأنها فضّة لم يُسفك فيها دم حرام ولم يعمل عليها خطيئة ٠

قال الحافظ ورجاله رجال الصحيح وهو موقوف ولأحمد من حديث أيوب « أرض كالفضة البيضاء » ٠ وذكر الحافظ عــدة من الآثار في ذلك ثم قال :

وأما مَن ذهب الى أن التغيير إنما يقع في صفات الأرض دون ذاتها فمستنده ما أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال : إذا كان يوم القيامة مُدّت الأرض مدّ الأديم وحُشر الخلائق ٠

ومن حديث جابر رفعه : تمدّ الارض مدّ الاديم ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه ٠ قال : ورجاله ثقات إلا أنه اختلف على الزهري في صحابيه وساق آثاراً تدل على هذا القول ثم قال : وهذا وان كان ظاهره يخالف القول الاول فيمكن الجمع بأن ذلك كله يقع لأرض الدنيا لكنّ أرض الموقف غيرها ٠ ا هـ ملخصاً ٠

ونقل في تفسير الالوسي رحمه الله تعــالى عن بعض العلماء أن الأرض تُبدّل أولا صفتها ثم تبدل ذاتها وتبدّل الذات يكون بعد أن

تحدّث الأرض أخبارها . قال : ولا مانع أن يكون هناك تبديلات على أنحاء شتى . اهـ .

وقد جاء في الحديث أن الارض حين تبدّل غير الارض يكون الناس على الصراط فقد روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هـذه الآية « يوم تبدّل الأرض غير الأرض » : أين يكون الناس حينئذٍ ؟ قال : على الصراط . وفي رواية الترمذي : قال على جسر جهنم » ولأحمد من طريق ابن عباس عن عائشة رضي الله عنها قال : على متن جهنم . وأخرج مسلم من حديث ثوبان قال صلى الله عليه وسلم : « هم في الظلمة دون الجسر » .

قال الحافظ وقد جمع البيهقي — أي بين ما تقدم — بأن المراد بالجسر الصراط وان في قوله : على الصراط — مجازاً لكونهم يجاوزونه لأن في حديث ثوبان زيادة يتعيَّن المصير إليها لثبوتها ، وكان ذلك عند الزجرة التي تقع عند نقلهم من أرض الدنيا الى أرض الموقف الخ.. اهـ.

وهكذا يحشر الله تعالى الخلائق في أرض مستوية لا ترى فيها عوجاً أي انخفاضاً ولا أمتاً أي ارتفاعاً . بحيث إن الناظر إليهم ينظرهم والداعي لهم يسمعهم وقد ازدحمت عليهم الشدائد والأهوال وحلَّت فيهم الكُرُبات والهموم فأحاطت بهم النار من شتى نواحيهم ودنت الشمس منهم قدرَ ميل وساورتهم الهموم والغموم ومهما كانت كربات الدنيا عظيمة ، وشدائدها أليمة ، فإن كربات الآخرة أعظم وشدائدها أدهى وأمرّ ، ومهما كانت هموم الدنيا ثقيلة فإن همَّ الآخرة أثقل إلا مَن أمنه الله وسلَّمه .

قال تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى شدة كربات يوم القيامة وأنها أعظم من كربات الدنيا حيث قال : « مَن نفَّس عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا نَفَّس ــ أي فرج ــ الله عنه كربة من كُرَب يوم القيامة »، أي وما كُرُبات الدنيا في جانب كربات الآخرة إلا شيء يسير من كثير .

* * *

صفات أهل المحشر

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنهـا أنها قالت : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يُحشَر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً » قالت عائشة رضي الله عنها : قلتُ يا رسول الله : الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم الى بعض ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: « يا عائشة الأمر أشـدّ من أن ينظـر بعضهم الى بعض » . وعنـد النسائي فقالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله : فكيف بالعورات ؟ فقال صلى الله عليه وسلم لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » . يعني أن كل واحد منهم هو مشغول بأحواله أو بأهواله عن التطلع والنظر الى غيره . اللهم أجِرْنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة بجاه حبيبك الأكرم صلى الله عليه وسلم .

وروى الترمذي بتحسين وتصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تُحشرون حُفاة عُراة غُرلاً ، فقالت امرأة أيُبصر أو يَرى بعضنا عورة بعض فقال صلى الله عليه وسلم : « يا فلانة لكلِّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

والغُرل جمع أغرل وهو الأقلف أي غير مختون .

ولذا قال العلماء في قوله صلى الله عليه وسلم (غرلاً) إشارة الى أن الله تعالى يعيد الى الانسان حين يبعثه جميع الأجزاء والأعضاء الزائلة في الدنيا المنفصلة عنه وفيه تأكيد لإعادة أجزاء الانسان كله وذلك لأن القُلفة كانت واجبـة الإزالة في الدنيا فغيرها من الاشعار والأظفار والأسنان ونحوها المنفصلة أولى أن تعاد .

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون الى الله تعالى حفاة عراة غُرلاً ثم قرأ : « كما بدأنا أوّل خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » ألا إن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام ألا إنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يا ربّ أصحابي فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : « وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلما توفيتَني كنتَ أنت الرقيب عليهم • وأنت على كل شيء شهيد • إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » • قال : فيقال : إنهم لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتَهم » •

قال العلماء : وإنما كان الخليل أول مَن يكسى يوم القيامة لأنه أول من كسى الفقراء وأول من عُرِي في ذات الله تعالى حين ألقي في النار لا لأنه أفضل من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بل الحقّ أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم يحشر كاسياً فهو صلى الله عليه وسلم يخرج من قبره الشريف بثيابه التي دُفن فيها صلى الله عليه وسلم فتكون أولية الخليل في الكسوة بالنسبة للخلائق لا بالنسبة له صلى الله عليه وسلم ويشهد لذلك أنه صلى الله عليه وسلم قد أكرمه الله تعالى وحفظه من أن يُجرّد من ثيابه حتى إنه لما قام الصحابة لغسله بعد وفاته صلى الله عليه وسلم رأوا أن يغسلوه وعليه ثيابه • وذلك تكرمة وحرمة له صلى الله عليه وسلم كما جاء في سنن أبي داوود ومسند أحمد ومستدرك الحاكم بأسانيد صحيحة عن عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : سمعت عائشة رضي الله عنها تقول : لما أرادوا غَسْل رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : لا ندري أنجرّد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثيابه كما نجرّد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه فلما اختلفوا ألقى

الله تبارك وتعالى عليهم النوم حتى إنه ما منهم رجل إلا وذقنه في صدره ثم كلّمهم مكلّم من ناحية البيت لا يدرون من هــو ! اغسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بثيابه فقاموا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغسلوه وعليه ثيابه يصبّون المــاء فوق القميص ويدلكونه بالقميص دون أيديهم » . أي ثم جيء بثلاثة أثواب بيض كما في حديث مسلم عن عائشة رضي الله عنهــا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفن في ثلاثة أثواب بيض .

كما أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو أول من يكسى من حُلَل الجنة .

فقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري » . صلى الله عليه وسلم .

★ ★ ★

أهوال موقف الحشر وكُرُباته الشديدة المديدة

قال الله تعالى : « ألا يظنّ أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم • يوم يقوم الناس لربّ العالمين » فهو يوم عظيم الهول والمخاوف حتى إن أهل الموقف من شدة الكرب الذي أحاط بهم ليعرق أحدهم عرقاً يغيب في رشحه الى أنصاف أذنيه •

روى الشيخان واللفظ للبخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقوم الناس لربّ العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه ــ أي عرقه ــ الى أنصاف أذنيه » •

ورواه الإمام أحمد ولفظه : « يقوم الناس لربّ العالمين لعظمة الرحمن عز وجل يوم القيامة حتى إن العرق ليلجم الرجال (أي الأقوياء الأشد) الى أنصاف آذانهم » •

وروى مسلم عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل (قال سليم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين) ؟ قال فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم مَن يكون الى كعبيه ، ومنهم من يكون الى ركبتيه ، ومنهم من يكون الى حَقْوَيه(١) ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الى فيه » •

---

(١) تثنية حقو وهو موضع شدّ الازار وهو الخاصرة •

وروى ابن أبي حاتم بإسناده الى أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبشير الغفاري : « كيف أنت صانع في يوم يقوم الناس فيه ثلاثمائة سنة لرب العالمين ــ من أيام الدنيا ــ لا يأتيهم خبر من السماء ولا يؤمر فيهم بأمر ؟ قال بشير : المستعان الله . قال له صلى الله عليــه وسلم : فإذا أويتَ الى فراشك فتعوَّذ بالله من كرب يوم القيامة وسوء الحساب » .

وجاء في سنن الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه بعد فراغه من صلاة قيام الليل : اللهم يا ذا الحبل الشديد والأمر الرشيد أسألكَ الأمنَ يوم الوعيد والجنــةَ يوم الخلود مع المقرَّبــين الشهود الركَّع السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وإنك تفعل ما تريد . الحديث بطوله . وهذا تعليم لأمته صلى الله عليه وسلم أن يسألوا الله تعالى الأمن يوم الوعيد لأنه يوم عظيم شديد فإنه مَن خاف الله تعالى وسلك الطريق الذي شرعه الله تعالى وسأل الله تعالى الأمان يوم الوعيد أمَّنه الله تعالى . فقد روى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربّه جلَّ وعلا أنه قال : « وعزّتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنــين إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة ، وإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة » .

وقد أخبر الله تعالى أن المتقين تزلَف لهم الجنة أي تقرب إليهم في مواقف الآخرة بحيث يرونها قريبة منهم ويكونون على مشهد منها لكي يستبشروا ويبتهجوا بأنهم المحشورون إليها وبذلك تطمئن قلوب المتقين ، وتذهب عنهم الهموم والغموم . قال تعالى : « وأزلِفت الجنة للمتقين غير بعيد » وقال : « وأزلِفت الجنة للمتقين . وبرِّزت الجحيم للغاوين » أي جعلت الجحيم بارزة للغاوين في موقف الحشر بحيث

يرونها مع ما فيها من شدّة الاهوال وفظاعة الاحوال وبذلك يتحسّرون على انهم المساقون اليها وإنما قيل في الجنة أُزلفت أي قربت وفي النار بُرّزت أي أظهرت لأن النار قريبة من أرض المحشر لأن الصراط منصوب على متن جهنم فلا تحتاج الى تقريب بخلاف الجنة فإنها وراء الصراط فإن مَن جاوز الصراط بقناطره كلها سالماً انتهى الى الجنة فالوصول الى جهنم أولاً ثم الى الجنة آخراً بواسطة العبور على الصراط الطويل سالماً وهذا ظاهر في القرب والبعد كما بينه علماء التفسير • هذا وإن قرب جهنم لأرض المحشر إنما هو بالنسبة لبعد الجنة الى ما وراء الصراط فلا ينافي هذا بُعدُ جهنم عن أرض المحشر • قال تعالى في الكفار « إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً » يعني أن النار إذا اطّلعت على أهلها وهم في المحشر واطلع عليها أهلها وتراءيا سمعوا تغيظها وزفيرها وشاهدوا فظائعها وأهوالها وهناك تمتدّ منها امتدادات الى الكفار في الموقف وتخرج منها أعناق هي كالمقدّمات للعذاب الأكبر الذي سيصْلَونه عما قريب •

روى الإمامان الترمذي وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يَخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران وأذنان تسمعان ولسان ينطق يقول : إني وكّلتُ بثلاثة : بكلّ جبار عنيد ، وبكلّ من دعا مع الله إلهاً آخر ، وبالمصوّرين » •

وجاء في سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفتتح قيام الليل يكبّر عشراً ويحمد عشراً ويسبح عشراً ويستغفر عشراً ويقول : اللهم اغفر لي واهدني وارزقني وعافني ويتعوّذ من ضيق المقام يوم القيامة •

والمقصود أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول ذلك حين يستيقظ لقيام الليل وفي هذا تنبيه الى شدة هول موقف يوم القيامة ولذلك

ينبغي أن يتعوّذ الانسان من كرب ذلك اليوم وهَوْله في أقرب أوقات الإجابة ألا وهو جوف الليل حين يقوم متهجّدا .

وقال الله تعالى : « فإذا جاءت الصاخّة يوم يفرّ المرء من أخيه . وأمّه وأبيه . وصاحبته وبَنيه . لكلّ امرىء منهم يومئذ شأن يُغنيه » .

والصاخة هي صيحة يوم القيامة التي صاح بها إسرافيل عليه السلام ودعاهم بها عن أمر الله تعالى كما تقدم .

وسُميت بذلك لأنها تصخُّ الأسماع أي تبالغ في إسماعها حتى إنها تكاد تصمّ الآذان والأسماع ، وهناك يفر المرء من أحبابه وأقربائه . قال عكرمة مولى ابن عباس : يَلقى الرجل يوم القيامة زوجته فيقول لها يا هذه أيّ بعْل ــ زوج ــ كنت لك ؟ فتقول نعِمَ البعلُ كنتَ وتُثني بخير ما استطاعتْ فيقول لها فإني أطلب إليك اليوم حسنة واحدة تهبينها لي لَعلّي أنجو مما تَريْن فتقول له ما أيسرَ ما طلبتَ ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئاً ؟ أتخوّف مثل الذي تخاف . قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلّق به فيقول يا بُنيّ أيّ والد كنتُ لك ؟ فيثني بخيرٍ فيقول له يا بنيّ إني احتجت الى مثقال ذرّة من حسناتك لعلّي أنجو بها مما ترى فيقول ولده يا أبتِ ما أيسرَ ما طلبتَ ولكن أتخوّف مثل الذي تتخوف منه فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً »[1] .

* * *

(1) انظر تفسير الحافظ ابن كثير وغيره .

شدة الحر على أهل الموقف الا من أظله الله تعالى بظله

ثبت بالأحاديث النبوية ان أهل الموقف يشتد عليهم الحر وتدنو الشمس منهم ، وتحيط بهم النيران ، ويسيل عرقهم في الأرض ويبلغون من الهم ما لا يطيقون ولا يحتملون حتى يفتح باب الشفاعة العظمى على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، ففي الطبراني بإسناد صحيح عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : تعطى الشمس يوم القيامة حر عشر سنين ثم تدنى من جماجم الناس قال فذكر الحديث ثم قال : فيأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون يا نبي الله أنت الذي فتح الله لك . الحديث كما في ترغيب المنذري .

وفي حديث الشفاعة الذي رواه الامام أحمد وابن حبان في صحيحه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « عرض علي ما هو كائن من أمر الدنيا والآخرة فجمع الأولون والآخرون في صعيد واحد حتى انطلقوا الى آدم عليه السلام والعرق يكاد يلجمهم » . الحديث بطوله .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعي ، وتدنو الشمس منهم فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون » الحديث . فهذه الأحاديث تدل على عظم الموقف وشدة حره وكربه ، وكل من أهل الموقف يشعر بذلك على حسب مقام إيمانه إلا من أظله الله تعالى بظله ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم عدة كثيرة من الاعمال

الصالحة تكون سبباً في إظــلال الله تعالى لعبده يوم القيامة ونذكر أطرافاً منها :

١ ــ روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سبعة يظلّهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله : الامام العادل ، وشابٌ نشأ في عبادة الله عزّ وجلّ ، ورجل قلبه معلّق بالمساجد ، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرّقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصبٍ وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضتْ عيناه » •

قال الحافظ الزرقاني في شرح الموطأ : ورواه أبو نعيم وغيره من وجه آخر عن أبي هريرة رضي الله عنــه فقال بدل (وشاب نشأ في عبادة الله) : « ورجل كان في سَرِيَّة مع قوم فلقوا العــدوّ فانكشفوا فحمى آثارهم ، وفي لفظ أدبارهم حتى نجوا ونجا أو استشهد » • قال الحافظ حديث حسن غريب جداً • قال ورواه الحاكم والبيهقي من وجه آخر عن سليمان موقوفاً وحكمه الرفع إذ لا يقال رأياً فقال بدل الامام والشابّ : ورجل يراعي الشمس لمواقيت الصلاة ورجل إن تكلّم تكلّم بعلم وإن سكت سكت عن حلم • اهـ •

٢ ــ ومن الذين يظلهم الله تعالى في ظله : الوقّافون عند الحق لهم أو عليهم :

روى الامام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون مَن السابق الى ظل الله يوم القيامة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : الذين إذا أعطوا الحق قبلوه وإذا سُئلوه بذلوه ، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم » • قال الحافظ ابن حجر : غريب وفيه ابن لهيعة • اهـ •

٣ ــ ومنهم مَنْ أنظر معسراً أو وضع له :

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أنظر معسراً أو وضع له أظله الله يوم القيامة تحت ظلّ عرشه يوم لا ظل إلا ظله »(١) ورواه ابن ماجه والحاكم عن أبي اليَسَر ولفظه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أنظر معسراً أو وضع له أظلّه الله في ظله » ورواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن •

٤ ــ ومنهم واصِل الرحم والمرأة تحبس نفسها على تربية أولادها الأيتام :

عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثة في ظل العرش يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله : واصل الرحم يزيد الله في رزقه ويمدّ له في أجله ، وامرأة مات زوجها وترك عليها أيتاماً صغاراً فقالت لا أتزوج أقيم على أيتامي حتى يموتوا أو يغنيهم الله ، وعبد صنع طعاماً فأضاف ضيفه وأحسن نفقته فدعا عليه اليتيمَ والمسكينَ فأطعمهم لوجه الله عزّ وجلّ »(٢) •

٥ ــ ومنهم المراقب لربه الذي يعلم أن الله معه حيثما توجّه :

روى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة في ظل الله عز وجل يوم لا ظل إلا ظله : رجل حيث توجّه علم أن الله تعالى معه ، ورجل دعته امرأة الى نفسها فتركها من خشية الله ، ورجل أحبّ لجلال الله » •

---

(١) قال المنذري : رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ومعنى وضع له أي ترك له شيئاً مما له عليه • ا هـ •

(٢) رواه أبو الشيخ والأصبهاني والديلمي في الفردوس كما في الفتح الكبير•

٦ ـ ومنهم أهل الخُلُق الحسن :

روى الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أوحى الله الى إبراهيم عليه السلام : يا خليلي حَسِّن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار إن كلمتي سبقتْ لمن حسَّن خلقه أن أظله تحت العرش ، وأن أسقيه من حظيرة قدسي وأن أُدْنيه من جواري »(١) .

٧ ـ ومنهم حملة القرآن الكريم :

روى ابن النجار عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أدِّبوا أولادكم على ثلاث خصال : حب نبيكم ، وحب أهل بيته ، وقراءة القرآن فان حملة القرآن في ظـل ّ الله يوم القيامة يوم لا ظلَّ إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه »(٢) .

٨ ـ ومنهم المكثرون للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم روى الديلمي عن أنس مرفوعاً : « ثلاث تحت ظل العرش يوم القيامة : مَنْ فرَّج عن مكروب من أمتي وأحياء سنتي وأكثر الصلاة عليّ »(٣) .

٩ ـ ومنهم المطعمون للجياع :

عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كُنَّ فيه أظلَّه الله تحت ظله : الوضوء على المكاره ، والمشي الى المساجد في الظُلَم ، وإطعام الجائع » . قال في الفتح : رواه أبو الشيخ في الثواب والأصبهاني في الترغيب .

---

(١) انظر ترغيب المنذري .
(٢) انظر شرح الزرقاني على الموطأ والفتح الكبير وعزاه أيضاً الى الشيرازي ومسند الفردوس .
(٣) انظر شرح الزرقاني على الموطأ .

١٠ ــ ومنهم الطاهرة قلوبهم البريئة أبدانهم :

روى الامام أحمد عن عطاء بن يسار أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى : مَنْ تؤويه في ظل عرشك ؟ قال : هم الطاهرة قلوبهم ــ أي من الغلّ والحقد ــ البريئة أبدانهم ــ أي من الخبث والدنس ــ الذين إذا ذكرتُ ذكروا بي ، وإذا ذكروا ذكرتُ بهم ، الذين ينيبون الى ذكري ويَغضبون لمحارمي ، ويكلَفون بحبّي ــ زاد ابن المبارك في روايته : الذين يَعمرون مساجدي ويستغفرونني بالأسحار » .

وروى الديلمي عن أنس مرفوعاً يقول الله تعالى : « قربوا أهل لا إله إلا الله في ظلّ عرشي فإني أحبهم »(١) اللهم أظلّنا في ظلّك يوم لا ظلّ إلا ظلك آمين .

* * *

(١) وقد صنف العلماء أجزاء خاصة جمعوا فيها أحاديث الظلال كالحافظ السخاوي ثم السيوطي وغيرهما .

طُول الموقف يوم القيامة

قال تعالى : « سأل سائل بعذاب واقعٍ • للكافرين ليس له دافع • مِن الله ذي المعارج • تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألفَ سنةٍ فاصبر صبراً جميلا• إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً • يوم تكون السماء كالمُهل وتكون الجبال كالعِهْن ولا يسأل حميم حميماً » •

والمعنى لا يسأل قريب قريبه ولا الصاحب صاحبه : كيف حالك ولا يكلِّمه لهَول ذلك اليوم وشدته أو المراد ولا يسأله الإحسان إليه ولا الرفق به كما كان يسأله في الدنيا لشدة الأمر وهول يوم القيامة •

قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد : باب خِفَّة يوم القيامة على المؤمنين ثم روى عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قيل : يا رسول الله يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده إنه ليخفَّف على المؤمن حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا » رواه أحمد وأبو يعلى واسناده حسن على ضعف في راويه ا هـ •

وعند الطبراني من حديث ابن عمر : ويكون ذلك اليوم أقصر على المؤمن من ساعة من نهار •

وللحاكم والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً وموقوفاً : « يوم القيامة على المؤمنين كمقدار ما بين الظهر والعصر » وعند أبي يعلى برجاله الصحيح : « فيهوَّن ذلك للمؤمن كتدلّي الشمس للغروب الى أن تغرب » • قال الحافظ الزرقاني : وطريق الجمع بين هذه الأحاديث أن ذلك يختلف باختلاف درجات إيمان المؤمنين » • ا هـ •

وروى ابن المبارك في كتاب الزهد وابن أبي شيبة في المصنف واللفظ له بسند جيد عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : « تعطى الشمس يوم القيامة حرّ عشر سنين وتدنو من جماجم الناس حتى تكون قاب قوسين فيعرقون حتى يرشح العرق في الأرض ثم يرتفع حتى يغرغر الرجل » .

زاد ابن المبارك في روايته : « ولا يضر حرّها يومئذ مؤمناً ولا مؤمنة » ا هـ .

قال العلماء : وظاهر بعض الاحاديث يعمّ جميع أهل الموقف ولكن هناك أحاديث أخرى تدل على أن العرق وأهوال الموقف تعمّ الكفار والمذنبين وأشدهم الكفار ثم أصحاب الكبائر ثم مَن دونهم في الذنوب ثم وثم على قدر ذنوبهم . وأما الانبياء فهم في أمان من جميع ذلك وكذلك أتباعهم من الشهداء والصديقين والصالحين وأهل الظلال كما تقدم .

قال تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » . قال الحسن البصري رضي الله عنه في قوله تعالى « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » : هو يوم القيامة .

قال المفسرون : وأراد أن موقفهم للحساب حتى يفصل بين الناس هو في مقدار خمسين ألف سنة من سني الدنيا . ا هـ .

أقول ويشهد لذلك ما رواه الامام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من صاحب كنزٍ لا يؤدي حقَّه إلا جُعل ـ أي الكنز ـ صفائح يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جبهته وجبينه وظهره حتى يحكم الله تعالى بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدّون ثم يرى سبيله إما الى الجنة وإما الى النار . الحديث ورواه مسلم كما سيأتي بتمامه إن شاء الله تعالى .

عموم الحشر لجميع الثقلين
والزمان والمكان والحيوان والطيور

قال الله تعالى : « ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس : ربّنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجّلتَ لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم » .

دلت هذه الآية على أن الله تعالى يجمع الإنس والجن ويسألهم عما جرى بينهم في الدنيا من التضليل والإغواء ، ومن الاستمتاع والانتفاع على الوجه المحرّم فيقول سبحانه : « يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس » أي أضللتم كثيراً من الإنس وجعلتموهم أتباعكم في الضلال ، والمراد هنا بالجنّ الشياطين أولي الضلال « وقال أولياؤهم من الإنس : ربّنا استمتع بعضنا ببعض » .

أما استمتاع الإنس بالجن فهو ما كانوا يلقون إليهم من استراق السمع والسحر والكهانة وتزيينهم الأمور التي كانوا يهوونها واستمتاع الجن بالإنس هو طاعة الإنس للجن في الضلالة والغواية والمعاصي والشرك والكفر .

وهكذا تحشر الأزمنة ، كما جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « تُحشر الأيام على هيئتها . وتحشر الجمعة زهراء منيرة أهلها يحتفون بها كالعروس تُهدى الى خدرها تضيء لهم، يمشون في ضوئها ، ألوانهم كالثلج بياضاً ، وريحهم كالمسك . يخوضون في جبال الكافور وينظر إليهم الثقلان ، لا يطرفون

ـ أي لا يَدعُون النظر إليهم ـ تعجباً حتى يدخلوا الجنة ، لا يخالطهم أحد إلاّ المؤذّنون المحتسبون »(١) •

وكذلك تحشر الارض وما عليها من مَدَرٍ وحجر وشجر من رطب ويابس لأجل أن تشهد على مَن عمل على ظهرها •

قال الله تعالى إخباراً عن الأرض يوم القيامة : « يومئذ تحدث أخبارها بأن ربّك أوحى لها » • قال أبو هريرة رضي الله عنه قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « يومئذ تحدّث أخبارها » قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال أن تشهد على كلّ عبدٍ وأمةٍ ـ أي على كل ذكر وأنثى ـ بما عمل على ظهرها تقول : عملت يوم كذا وكذا فهذه أخبارها » • رواه الترمذي وقال : حسن صحيح •

وروى البخاري عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة أن أبا سعيد رضي الله عنه قال له : أراك تحبّ الغنَم والبادية فإذا كنتَ في غنمك وباديتك فأذّنتَ للصلاة فارفع صوتك بالنداء فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌ ولا أنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة » • قال أبو سعيد سمعتُه من رسول الله صلى الله عليه وسلم • ورَواه مالك والنسائي وابن ماجه وزاد : « ولا حجر ولا شجر إلاّ شهد له » •

ورواه ابن خزيمة في صحيحه بلفظ : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يسمع صوت المؤذن شجر ولا مَدَر ، ولا حجر ، ولا جنّ ولا إنس الاّ شهد له » ، وعند أبي داوود : ويشهد له كلّ رطبٍ ويابس » •

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني وابن خزيمة في صحيحه • اهـ •

أما حشر الحيوانات : قال الله تعالى : « وإذا الوحوش حُشرت » وقال تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون » فأخبر أن جميع ما ذكره يحشر الى الله تعالى ، وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لتؤدُّنَّ الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد – أي يُقتصّ – للشاة الجَلْحاء من الشاة القرناء » .

ورواه الامام أحمد بلفظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُقتصّ للخلق بعضهم من بعض حتى للجمَّاء من القرناء ، وحتى للذرَّة من الذرّة » ورواته رواة الصحيح كما في الترغيب .

فالله تعالى يحشر الحيوانات ليقتصَّ من بعضها لبعض فيقتص من الشاة القرناء التي نطحت الجلحاء – التي لا قرون لها .

وروى النسائي وابن حبان في صحيحه عن الشريد رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَن قتل عصفوراً عبَثاً عجَّ – أي العصفور – إلى الله تعالى يقول : يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً ، ولم يقتلني منفعة » . فلا يجوز قتل العصفور ونحوه عبثاً أي لهواً ولعباً إلا لمنفعة أكلٍ أو نحوه . كما روى النسائي والحاكم وصحح إسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من إنسان يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقِّها إلا يسأل الله عنها يوم القيامة . قيل : يا رسول الله وما حقُّها ؟ قال صلى الله عليه وسلم : أن تذبحها فتأكلها ولا تقتطع رأسها فترميَ به » .

وروى الامام أحمد في مسنده عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى شاتين تنتطحان فقال « : يا أبا ذر أتدري فيما

تنتطحان قال : قلت : لا ، فقال صلى الله عليه وسلم : لكنّ الله يدري وسيقضي بينهما » .

ومما يدل على حشر الحيوانات حديث مانع زكاة الإبل والبقر والغنم وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها حتى يُقضى بين العباد . الحديث في الصحيحين وسيأتي نصه إن شاء الله تعالى في موضعه .



حشر كلّ انسان مع محبوبه

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم متى الساعة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: « وما أعددت لها ؟ فقال : لا شيء إلا أني أحبّ الله ورسوله . فقال صلى الله عليه وسلم أنت مع مَن أحببتَ » . وفي رواية للبخاري قال : ونحن كذلك؟ فقال صلى الله عليه وسلم نعم » .

قال أنس : فما فرحنا بشيء فرَحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنت مع من أحببتَ » . قال أنس : فأنا أحبّ النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم .

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث هنّ حقٌ : لا يجعل الله مَن له سهم في الاسلام كمَن لا سهم له ، ولا يتولّى الله عبداً فيولّيه غيره ، ولا يحبّ رجل قوماً إلا حُشر معهم » .

رواه الطبراني في الصغير والكبير بإسناد جيد كما في الترغيب وغيره .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « ثلاثة أحلف عليهن : لا يجعل الله من له سهم في الاسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الاسلام ثلاثة : الصلاة والصوم والزكاة ، ولا يتولى الله عبداً في الدنيا فيولّيَه غيره يوم القيامة ، ولا يحبّ رجل قوماً الا

جعله الله معهم » الحديث(١) •

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كلّ نفس تُحشر على هواها فمن هَوِيَ ـ أي أحبّ ـ الكفرة فهو مع الكفرة ولا ينفعه عمله شيئاً »(٢) •



(١) قال الحافظ المنذري : رواه أحمد بإسناد جيد • ا هـ • وعزاه في الفتح الكبير الى النسائي وأحمد والحاكم والبيهقي •
(٢) عزاه في الفتح الكبير الى الطبراني في الاوسط •

لواء الحمـــد

لقد ثبت بالأحاديث النبوية أن لسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء عالياً على جميع ألوية الشرف والكرامة ، واسعاً كلَّ السعة يأوي إليه ويدخل تحته جميع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم معهم صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين .

ويسمى لواء الحمد وهو بيده جامع أنواع السيادة والمحبة صلى الله عليه وسلم .

روى الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبيٍّ آدم فمَن سواه إلا تحت لوائي ، وأنا أول من تنشقّ عنه الأرض ولا فخر » الحديث .

وروى الترمذي والدارمي وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه قال : فخرج صلى الله عليه وسلم حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم :

فقال بعضهم : عجباً ان الله اتخذ من خلقه خليلا ، اتخذ ابراهيم خليلاً ؛ وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى كلمه الله تكليماً ، وقال آخر : فعيسى كلمـــة الله وروحه ، وقال آخر : آدم اصطفـــاه الله تعالى .

فخرج عليهـــم رسول الله صلى الله عليـــه وسلم فسلَّم ، وقال : « سمعتُ كلامكم وعجبكم ان ابراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى

نجيّ الله وهو كذلك ، وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ، قال صلى الله عليه وسلم : ألا وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافعٍ وأول مشفّعٍ يوم القيامــة ولا فخر ، وأنا أول مَن يُحرّك حلَق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر » .

ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم في ذلك ولا فخر ـ أنه لم يقل ذلك فخراً وكبراً وإنما قال ذلك تحدثاً بنعمــة الله تعالى وشكراً له وامتثالا لأمر الله تعالى حيث قال له : « وأما بنعمة ربك فحدّث » .

وأخرج أبو نعيم وابن عساكر عن حذيفة بن اليمان قال : قال الصحابة رضي الله عنهم : يا رسول الله ، ابراهيم خليل الله ، وعيسى كلمة الله وروحه ، وموسى كلّمه الله تكليماً فماذا أُعطيت أنت ؟ فقال : « ولد آدم كلّهم تحت رايتي يوم القيامة ، وأنا أول مَن تُفتح له أبواب الجنة » .

وروى الترمذي والدارمي وأبو يعلى وغيرهم عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا ، وأنا قائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وأنا شافعهم إذا حُبسوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، الكرامــة والمفاتيح يومئذ بيدي ، ولواء الحمد بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولافخر، يطوف عليّ ألف خادم كأنهم اللؤلؤ المكنون » هذا لفظ الدارمي .

قال الحافظ الزرقاني : وأضيف اللواء الى الحمد الذي هو الثناء على الله تعالى بما هو أهله لأنه منصبه صلى الله عليه وسلم في الموقف وهو المقام المحمود المختصّ به ، قال : والعرف جارٍ بأن اللواء يكون مع كبير القوم ليعرف مكانه إذ موضوعه أصالةً شهرة الرئيس . اهـ .

وقد تكلّم الشيخ الأكبر محيي الدين نفعنا الله تعالى به وبأهل الله أجمعين ــ حول لواء الحمد وبيّن وجه تسميته بلواء الحمد أنه التوَت أي اجتمعت فيه المحاميد التي يحمد بها ربّ العالمين ، فهو لواء جامع لجميع المحامد الإلهية فلا يخرج عنه حمد ، وإنما يأخذ منه كل حامدٍ حمده ليحمد به ربّ العالمين سبحانه وتعالى .

وإن الحمد لله تعالى لا يكون إلا بالأسماء الإلهية فإنها بها يثنى عليه سبحانه وبها يُحمد ، وإن جميع تلك الاسماء الإلهية التي بها يحمده الحامدون ويثنون بها على ربهم ــ جمعها الله تعالى في لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فإلى ظلّ لوائه صلى الله عليه وسلم يأوون وعنه يأخذون صيغ حمدهم ، ولذلك عمّ ظلّ لوائه صلى الله عليه وسلم جميع الحامدين كما قال صلى الله عليه وسلم : « ما من نبيٍّ آدم فمَن دونه إلا تحت لوائي » .

فالأنبياء وأتباعهم كلهم في ظلّ لوائه صلى الله عليه وسلم الذي اجتمعت فيه جميع أنواع المحامد ، ومنه يتلقّى كل حامد .

وإن أحمد الحامدين لرب العالمين سيدنا أحمد صلى الله عليه وسلم الذي فتح الله ويفتح عليه من محامده وحسن الثناء عليه مالم يفتحه على أحد غيره كما جاء في أحاديث الشفاعة المتقدمة حيث قال صلى الله عليه وسلم : « فيفتح الله تعالى عليّ أي يوم القيامة حين يقيمه الله في المقام المحمود ــ فيفتح الله تعالى عليّ محامده وحسن الثناء عليه مالم يفتحه على أحد قبلي وقال : فأحمده بمحامد لا أعلمها الآن يُلهمنيها الله تعالى » .

حشرنا الله تعالى في جملة رفقائه صلى الله عليه وسلم ، وجمعنا تحت لواء حمده ، وراية مجده ، ونفحنا بنفحاته وأفاض علينا من بركاته صلى الله عليه وسلم .

عالم الحوض

قال الله تعالى : « إنَّا أعطيناك الكوثر ، فصلِّ لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر » . في هذه السورة الكريمة يذكر الله تعالى فضله العظيم على رسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويعلن له هذا العطاء الكبير الذي خصَّه به .

فقال سبحانه : « إنا أعطيناك الكوثر » إنا بعظمة صفاتنا ومجد أسمائنا الفياضة بالخيرات والبركات أعطيناك علـى وجهٍ خاصٍّ بك (الكوثر) أي الخـير الكثير العـامّ الطامّ لعوالم الدنيا والبرازخ والآخرة ومن ذلك الخير الكثير الحوض في الموقف والكوثر في الجنة « فصلِّ لربك وانحر » شكراً لربك على هذا العطاء الكثير والخـير الوفـير « إن شانئك » أي مبغضك يا رسول الله « هو الأبتر » أي الأقطع من [illegible] خير والمعنى : لقد أعطيناك الكوثر الجامع لكل خير ، والفائض بكل فضلٍ وبرٍّ فمَن أحبك واتبعك يا رسول الله نَهَل من ذلك الخير ونال حظه الوافر من ذلك الفضل العظيم والكرم والبرِّ على حسب حبه لك واتباعه لك ومن لم يحبك يا رسول الله فلا نصيب له من ذلك بل هو الأقطع المحروم من كل خير وبرّ وسعادة في الدنيا والآخرة لأن الله تعالى جمع لك جميع أنواع الخير يا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « إنا أعطيناك الكوثر » .

فهو صلى الله عليه وسلم مجمع الخير كلِّه والفضل والبرِّ والفـلاح والنجاح فلا يُبتغى الخير ولا ينال البرّ إلا من معدنه ومعينه صلى الله عليه وسلم وذلك بحبه صلى الله عليه وسلم واتباعه ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « وإنما أنا قاسم والله يعطي » .

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر : هو الخير الكثير الذي أعطاه الله إيّاه • قال أبو بشير : قلت لسعيد بن جبير : فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة ؟ فقال سعيد : النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أعطاه الله إياه •

وقال مجاهد : الكوثر هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة • فالكوثر هو على وزن فوعل وهو يدل على المبالغة والكثرة •

وروى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد إذ أغفى إغفاءةً ـ أي اعترته حالة الوحي ـ ثم رفع رأسه ضاحكاً فقيل له : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « نزلت عليّ سورة آنفاً ـ الآن ـ فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر حتى ختمها قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : إنه نهر وَعَدنيه ربي عزّ وجلّ عليه خير كثير وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة : آنيته عدد نجوم السماء فيُختلَج العبد منهم فأقول : ربِّ إنه من أمتي ، فيقول : ما تدري ما أحدث بعدك » •

فذلك النهر العظيم هو في الجنة يسمَّى كوثراً ويمتدّ منه الى الموقف فيسمَّى الحوض ترد عليه أمّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم •



سعة حوض النبي صلى الله عليه وسلم
وكثرة آنيته وحلاوة مائه وبياض لونه

روى الامام مسلم وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حوضي مسيرة شهر ، وزواياه سواء وماؤه أبيض من الوَرِق ــ أي الفضة ــ وريحه أطيب من المسك، وكيزانه ــ أي كؤوسه ــ كنجوم السماء فمن شرب منه فلا يظمأ بعده أبداً » .

روى مسلم أيضاً عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلتُ : يا رسول الله ، ما آنية الحوض ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها ألا في الليلة المظلمة المصحية ، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ ، عرضه مثل طوله ما بين عمّان الى أيْلة(١) ، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل » .

وروى الامام مسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم قال : « قدرُ حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن وان فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء » .

---

(١) قال الامام النووي في شرحه أيلة بفتح الهمزة واسكان المثناة تحت وفتح اللام مدينة معروفة في عراق الشام على ساحل البحر متوسطة بين مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودمشق ثم قال : أمّا عمّان فبفتح العين وتشديد الميم وهي بلدة بالبلقاء في الشام . ا هـ .

وفي الصحيحين وسنن الترمذي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما بين ناحيتي حوضي كما بين صنعاء والمدينـة » .

وفي رواية : « مثل ما بين المدينة وعَمّان » .

وفي رواية أخرى : « ترى فيه أباريق الذهب والفضة كعدد نجوم السماء » زاد في رواية : « أو له أكثر من عدد نجوم السماء » .

وفي رواية : « ان قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء اليمن وأن فيه الأباريق كعدد نجوم السماء » .

واختلاف هـذه المسافات التي ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثلة لعرض حوضه الشريف هذا الاختلاف جاء لإعلام المخاطبين بسعة الحوض فإن منهم من يعرف ما بين أيلة وصنعاء ومنهم من يعرف مسافات أخرى غير تلك فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثلة لسعة الحوض كما جاء في بقية روايات أحاديث الحوض ، والقليل من هذه المسافات داخل تحت الكثير ، والكثير باق على ظاهره . كما قال الامام النووي : وليس في القليل من هذه منع الكثير والكثير ثابت على ظاهر الحديث ولا معارضة والله أعلم . اهـ .

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : وهذا الاختلاف في قدر عرض الحوض ليس موجباً للاضطراب أي في أحاديث الحوض فإنه ــ أي الاختلاف ــ لم يأت في حديث واحد بل في أحاديث مختلفة الرواية عن جماعـة من الصحابة سمعوها في مواطن مختلفة ضرب لها النبي صلى الله عليه وسلم في كل واحد منها مثلا لبعد أقطار الحوض وسعته وقرّب ذلك من الأفهام لبعد ما بين البلاد المذكورة لا على التقدير الموضوع للتحديـد بل للإعلام بعظم هـذه المسافة فبهذا تجمـع الروايات . اهـ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم على حوضه ينتظر الواردين عليه من أمته (جعلنا الله تعالى من المقبولين)

روى الشيخان عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً وصلّى على شهداء أُحدٍ صلاته على الميت ثم انصرف الى المنبر فقال : « إني فَرَط لكم وأنا شهيد عليكم وإني والله لأنظر الى حوضي الآن وإني قد أعطيتُ خزائن الارض ، أو مفاتيح الأرض وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تتنافسوا فيها » . وفي رواية لمسلم عن عقبة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم: « إني فرطكم على الحوض ». وعند مسلم عن جندب سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا فرطكم على الحوض » . وروى أبو نعيم بإسناده عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال : لما صدر النبي صلى الله عليه وسلم عن حجة الوداع قال : « يا أيها الناس إني فرطكم على الحوض وانكم واردون على حوض عرضه ما بين بصرى وصنعاء فيه آنية عدد النجوم »(1) .

وروى الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنا آخذ بحجزكم عن النار أقول : إياكم وجهنم وإياكم والحدودَ ، فإذا متُّ فأنا فرطكم وموعدكم الحوض فمن ورد أفلح » الحديث .

(1) وروى الطبراني في كتاب السنة نحوه كما في شرح الاحياء للعلامة الزبيدي .

قال الإمام النووي : قال أهل اللغة : الفَرَط بفتح الفاء والراء والفارط هو الذي يتقدّم الواردين ليصلح لهم الحياض والدلاء ونحوها من أمور الاستقاء ، قال فمعنى قوله صلى الله عليه وسلم : « فرطكم على الحوض » ينتظر أمته الواردين عليه المتبعين له وذلك ليستقبلهم ويسقيهم ، سقانا الله تعالى من كفه الشريفة شربة لا نظمأ بعدها أبداً بجاهه وبوجاهة وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم عند ربه تعالى .

وهكذا أحاديث الحوض بلغت حد التواتر فيجب الإيمان به قطعاً بلا شك .

جاء في سنن أبي داوود أن عبيد الله بن زياد قال لأبي برزة الأسلمي رضي الله عنه جئت إليك لأسألك عن الحوض هل سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر فيه شيئاً فقال أبو برزة رضي الله عنه : نعم ، لا مرّة ولا مرتين ولا ثلاثاً ولا أربعاً ولا خمساً قال فمن كذّب به فلا سقاه الله منه » الحديث .

وفي هذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان كثيراً ما يُحدّث أصحابه رضي الله عنهم عن الحوض وأوصافه ولذلك جاءت أحاديث الحوض عن جم غفير من الصحابة في مناسبات متعددة ، ومن ثَمّ ذكره علماء التوحيد في جملة العقائد الإيمانية .

قال العلامة اللقاني رحمه الله تعالى :

إيماننا بحوض خير الرسل حَتْم كما قد جاءنا في النقل
ينال شرباً منه أقوام وفوا بعهدهم وقل يُذاد مَنْ طغوا

والمعنى أن الذين يشربون من حوض النبي صلى الله عليه وسلم دون مانع يمنعهم — هم الموفون بعهدهم مع الله تعالى ومع رسوله صلى

الله عليه وسلم وأما مَن بغى وطغى وارتدّ ورجع القهقرى فإنهم يمنعون عن الشرب من حوضه صلى الله عليه وسلم .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بينا أنا قائم (أي على الحوض يوم القيامة) فإذا زمرة (أي جماعة) حتى إذا عرفتهم خرج رجل (أي مَلَك على صورة رجل) من بيني وبينهم فقال : ــ أي قال لهم ــ هلمّ فقلتُ : أين ؟ (أي الى أين تدعوهم) قال : الى النار والله ، قلتُ : وما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتُهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال : هلمّ (أي فقال للجماعة تلك أقبلوا) قلتُ : أين ؟ قال : الى النار والله ، قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدّوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، فلا أراه يخلص منهم (أي من تلك الزمرة) إلا مثل هَمَل النعم » .

قال الحافظ المنذري وغيره : همل النعم هي ضوالّها ومعناه أن الناجي قليل كضالّة النعم بالنسبة الى جملتها . اهـ .

وكان ابن أبي مليكة يقول : اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن عن ديننا . اهـ آمين

* * *

رسول الله صلى الله عليه وسلم يستقبل أمته على الحوض ويعرفهم بسيماهم من بين الأمم

روى الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تَرِد عليَّ أمتي الحوض ، وأنا أذود عنه الناس كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله ، قالوا : يا نبيَّ الله أتعرفنا ؟ قال : نعم ، لكم سيما (أي علامة) ليست لأحد غيركم : تردون عليَّ غُرّاً محجَّلين من آثار الوضوء ، ولتُصدَّنَّ عني طائفة منكم فلا يصلون إليَّ ، (أي لا يصلون إليَّ بل يمنعون) فأقول : يا ربِّ هؤلاء من أصحابي ، فيجيبني مَلَكٌ تبدل فيقول : وهل تدري ما أحدثوا بعدك ؟ » .

وروى مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن حوضي لأبعدُ من أيْلة من عَدنَ ، والذي نفسي بيده إني لأذود عنه (أي أمنع عن الحوض) الرجال (أي من غير أمتي) كما يذود (كما يمنع) الرجل الإبل الغريبة ، قالوا : يارسول الله وتعرفنا ؟ قال : نعم ، تردون عليَّ غرّاً محجَّلين من آثار الوضوء ، ليست لأحد غيركم » .

والغُرّ جمع أغرّ وهو ذو الغرَّة ؛ والمحجَّلون جمع محجَّل . قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : قال أهل اللغة : الغرّة : بياض في جَبْهَة الفرس ، والتحجيل : بياض في يديها ورجليها . قال العلماء : سمي النور الذي يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة غرَّةً وتحجيلاً ــ تشبيهاً بغرَّة الفرس ــ والله أعلم . اهـ .

فهذه الأمة المحمدية لها سيما (أي علامة) يوم القيامة ، يُعرفون بها ، وهي الغرّة والتحجيل من آثار الوضوء الذي كانوا يفعلونه في الدنيا .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : وقد استدل جماعة من أهل العلم من هذا الحديث على أن الوضوء من خصائص هذه الأمة . ـ زادها الله تعالى شرفاً ـ .

وقال آخرون : ليس الوضوء مختصاً بها وإنما الذي اختصّت به هذه الأمة الغرّة والتحجيل ، واحتجوا بالحديث الآخر (أي قوله صلى الله عليه وسلم) هـذا وضوئي ووضوء الأنبياء قبلي ، وأجاب الأولون عن هذا بجوابين : أحدهما أنه حديث ضعيف معروف الضعف، والثاني لو صحّ احتمل أن يكون الأنبياء اختصّت بالوضوء دون أممهم إلا هذه الأمة ، والله أعلم . ا هـ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، ودِدْتُ أنا قد رأينا إخواننا ، قالوا : أوَلسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال : أنتم أصحابي[1] ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ ، فقالوا : كيف تعرف مَن لم يأت بعدُ عن أمتك يا رسول الله ؟ فقال : لو أن رجلاً له غرّة محجّلة بين ظهري خيلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : فإنهم يأتون غرّاً محجّلين من الوضوء ، وأنا فرطهم على الحوض ، ألا ليُذادَنّ رجال عن حوضي

---

(١) أي أنتم إخواني وأصحابي ، ولكن الذين يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني هم إخواني وليسوا بأصحابي ، فودّ صلى الله عليه وسلم أن لو لقيهم في الحياة الدنيا وهم أحياء في الدنيا فلا ينافي ذلك لقاءهم حين عرضوا عليه مع بقية الامم السابقة كما في البخاري وغيره .

كما يُذاد البعير الضال ، أناديهم ألا هلمّ ، فيقال : إنهم قد بدّلوا بعدك ، فأقول : سُحْقاً سحقاً » أي بعداً لكم بعداً لكم .

وقد ذهب أكثر العلماء الى أن هؤلاء الذين يُمنعون عن حوض النبي صلى الله عليه وسلم هم المنافقون الذين أظهروا الاسلام ، وأبطنوا الكفر ، وكذلك المرتدّون الذين أسلموا أولاً ثم كفروا وماتوا وهم كفار .

قال العلماء : فيجوز أن يحشر هؤلاء بالغرة والتحجيل باعتبار أن المنافقين كانوا مسلمين بالظاهر،ومُصلّين بالظاهر ، وكذا المرتدّون، فإنهم كانوا مسلمين في أول أمرهم ومصلين ، فيناديهم النبي صلى الله عليه وسلم للسيما التي عليهم ، فيقال : ليس هؤلاء مما وُعدتَ بهم (إن هؤلاء بدّلوا بعدك) ؛ أما المنافقون فإنهم لم يموتوا على ما ظهر من إسلامهم ، وأما المرتدّون فإنهم بدّلوا حيث كفروا بعد إيمانهم .

وهذا الحديث لا يتنافى مع الحديث الدالّ على عرض أعمال الأمة على النبي صلى الله عليه وسلم ، كما تقدم في قوله صلى الله عليه وسلم : « تُعرَض عليّ أعمالكم ، فما رأيت من خير حمدت الله ، وما رأيت غير ذلك استغفرت لكم » . فإن الذي يعرض عليه صلى الله عليه وسلم هو أعمال أمته المؤمنين به حقاً ليستغفر لهم ويدعوَ الله لهم ، وأما الكفار من أمته ـــ ومنهم المنافقون والمرتدون ـــ فان أعمالهم لا تعرض هذا العرض على النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم ليسوا أهلاً لأن يستغفر لهم ، ويدعو لهم ، فلا فائدة في عرض أعمالهم على النبي صلى الله عليه وسلم .

قال أهل المعرفة : والحكمة في ذوده صلى الله عليه وسلم بقية الأمم عن حوضه هو إرشاد كل واحد من سائر الأمم الى حوض نبيه ، فيكون هذا من إنصافه صلى الله عليه وسلم ، ورعايته إخوانه النبيين ،

وتكريمه لهم ، لا أنه يطردهم عن حوضه بخلا منه ، فانه صلى الله عليه وسلم أجود بني آدم ، وأكرم خلق الله تعالى أجمعين •

ويشهد لذلك ما رواه الترمذي عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن لكل نبيٍّ حوضاً ، وإنهم يتباهون أيُّهم أكثر واردةً وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة » •

قال الحافظ : رواه الترمذي وقال : غريب • وقال : وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا . ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصحّ • ا هـ •

قال العلاّمة الزبيدي : قلتُ : ووصله الطبراني كذلك ، وأشار الترمذي الى وصله ، وصحح إرساله ، والمرسل أخرجه ابن أبي الدنيا بسند صحيح عن الحسن رفعه : « إن لكلِّ نبيٍّ حوضاً ، وهو قائم على حوضه ، بيده عصا ، يدعو من عرف من أمته ، ألا وإنهم يتباهَون أيُّهم أكثر تبعاً ، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً » • قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي وهو أكثريّة أتباعه الواردين على حوضه الشريف) صلى الله عليه وسلم قال : فلْيرجُ كل عبدٍ أن يكون في جملة الواردين ، ولْيحذر أن يكون متمنياً ومغترّاً وهو يظن أنه راجٍ ، فإن الراجي للحصاد مَنْ بَذَرَ ونقّى الأرض (أي حرثها وسقاها الماء) ثم جلس يرجو فضل الله تعالى بالإنبات ، ودفع الصواعق الى أوان الحصاد •

قال رضي الله عنـــه : فأما مَن ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله تعـــالى أن ينبت له الحبَّ والفاكهة ــ فهذا مغترٌ وليس من الراجين في شيء ؛ وهكذا رجاء أكثر الخلق ، وهو غرور الحمقى ، نعـــوذ بالله من الغرور والغفـــلة ، فإن الاغترار بالله تعالى أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى : « فلا تغرنكم

الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » انتهى كلام الغزالي رضي الله عنه .

يعني أن من كان يرجو أن يكون من الواردين على حوض النبي صلى الله عليه وسلم فعليه أن يتبعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به وليعمل بشريعته صلى الله عليه وسلم ، وعلى قدر ورود الانسان شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحققه بها وعمله بمقتضاها — سوف يكون وروده على حوضه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، وذلك لأن قضايا الآخرة تظهر فيها حقائق ما كان عليه الانسان في الدنيا ، من العقائد والأعمال والأقوال ؛ فمن كان في الدنيا قد أُشرِب في قلبه الإيمان المحمديّ والشرع المحمدي صلى الله عليه وسلم أُذِنَ له في الشرب يوم القيامة من حوض النبي صلى الله عليه وسلم مشرباً رويّاً سائغاً هنيئاً لا يظمأ بعده أبداً .

ومن لم يتشرَّب قلبه الإيمان والشَّرع المحمدي فلا نصيب له من حوضه صلى الله عليه وسلم، كالمنافقين والمرتدين ، وقد تقدم الحديث فيهم أنهم يُمنعون من الحوض الشريف .

موقع الحوض الشريف :

قال العلامة الزبيدي في شرح الإحياء : فصل في محل الحوض . قال القرطبي في التذكرة : ذهب صاحب القوت وغيره الى أن الحوض يكون بعد الصراط ، وذهب آخرون الى العكس ، والصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم له حوضان أحدهما : في الموقف قبل الصراط ، والآخر داخل الجنة ، وكلٌّ منهما يسمى كوثراً .

قال الزبيدي وتعقبه الحافظ في الفتح : بأن الكوثر نهر داخل الجنة ، وماؤه يصبّ في الحوض ، ويطلق على الحوض كوثراً لكونه يُمَدّ منه .

فغاية ما يؤخذ من كلام القرطبي أن الحوض يكون قبل الصراط ، لأن الناس يردون الموقف وهم عطاش ، فيرد المؤمنون الحوض ، وتتساقط الكفار في النار بعد أن يقولوا : ربنا عطشنا ، فترفع لهم جهنم كأنها سراب ، فيقال لهم : ألا تردون فيظنونها ماء فيتساقطون فيها إلخ ... اهـ .

* * *

الشفاعة وأنواعها

الشفاعة هي كما قال الحافظ الزرقاني : هي انضمام الأدنى — أي لجوؤه وقصده — الى الأعلى ، ليستعين به على ما يرومه — أي في جلب منفعةٍ ، أو دفع مضرّة عن المشفوع به .

والشفاعة عند الله تعالى لا يتقدّم إليها أحد إلا بإذنه سبحانه ، قال تعالى : « مَنْ ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه » فهو سبحانه يأذن لمن يشاء ، ويشفعه بمَنْ شاء ، قال تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » .

والشفاعة يوم القيامة على أنواع متعددة :

أوّلها وأعظمها وأعمّها — الشفاعة العظمى ، وتسمى الشفاعة الكبرى ، وهي الشفاعة العامة التي تعمّ جميع أهل الموقف على مختلف أديانهم ، وبها يتخلصون من أهوال الموقف وكرباته بعد اشتدادها وطولها ، ثم ينفضّ أمرهم الى عالم العرض والحساب والميزان ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

والشفاعة العظمى هي من خصائص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أول الشفاعات ، وهي باب الشفاعات كلها ، وهي المقام المحمود الذي يقوم به صلى الله عليه وسلم كما وعده تعالى بذلك في قوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » .

وإنما سمي مقام شفاعته صلى الله عليه وسلم العظمى — سمي مقاماً محموداً لأن أهل الموقف كلهم ، برهم وفاجرهم ، سعيدهم

وشفيهم يحمدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويثنون عليه لمّا يشفع بهم وينقذهم من أهوال الموقف وشدائده .

قال البخاري : « باب قوله تعـالى عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » ثم أسند الى ابن عمر رضي الله عنهما قال : « إن الناس يصيرون يوم القيامة جثى[1] ، كل أمةٍ تتبع نبيها ، يقولون : يا فلان اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلي، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود».

وسبب هـذه الشفاعة العامة أن أهل الموقف لما تشتد عليهم الأهوال ويطول ذلك عليهم ، حتى إن الكافر يتمنى أن ينفضّ أمره ولو الى النار ، كما في الحديث الذي رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الرجل ـ وفي رواية موقوفة : إن الكافر ـ ليلجمه العرق يوم القيامة فيقول : ياربّ أرحني ولو الى النار »[2] .

فحـين يطول ذلك عليهم ويشتدّ ويمتد يلتمسون شفيعاً لهم ينقذهم من تلك المآزق ، ويخرجهم من هاتيك المضايق ، فيفزعون الى أبيهم آدم عليـه السلام ثم الى نوح عليه السلام ، وكلٌّ من الرسل يعتذر ، ثم وثم حتى ينتهي الأمر الى الحبيب الأكرم صلى الله عليه وسلم الذي أهّله الله تعالى لذلك المقام وأكرمه به ، فيقول : أنا لها ، أنا لها صلى الله عليه وسلم .

---

(١) قال الحافظ الزرقاني : وجثى بضم الجيم وفتح المثلثة المخففة منوناً ومقصوراً ، وقال الحافظ في الفتح : جمع جثوة ، مثل خطى جمع خطوة ، قال : وحكى ابن الأثير أنه روي بكسر المثلثة وشدّ التحتية جمع جاثٍ ، وهو الذي يجلس على ركبتيه ، وقال ابن الجوزي : عن ابن الخشاب : إنما هو جُثًا بفتح المثلثة وتشديدها جمع جاث مثل غاز وغزًّا أي جماعات . ا هـ .

(٢) كما في مجمع الزوائد .

روى الشيخان والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في دعوةٍ ، فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه فنهس منها نهسةً وقال : « أنا سيِّد ولد آدم يوم القيامة ، هل تدرون ممَّ ذلك ؟ يجمع الله الأولين والآخرين على صعيد واحد ، فيبصرهم الناظر ، ويسمعهم الداعي ، وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس من الغمِّ والكرب مالا يُطيقون ولا يحتملون فيقول الناس : ألا ترون الى ما أنتم فيه ألا ترون الى ما بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم ، فيأتونه فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا الى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه ، فيقول : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيتُ ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى غـيري ، اذهبوا الى نوح ، فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح أنت أوَّل الرسل الى أهل الأرض ، وقد سمَّاك الله عبداً شكوراً ، ألا ترى الى ما نحن فيه ، ألا ترى الى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا عند ربك ؟ فيقول : إنَّ ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كان لي دعوة دعوتُ بها على قومي ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى ابراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون : أنت نبيّ الله وخليله من أهل الأرض ، اشفعْ لنا عند ربك ، أما ترى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني كنتُ كذبت ثلاث كذباتٍ ، فذكرها ؛ نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى غـيري ، اذهبوا الى موسى ، فيأتون موسى ، فيقولون : أنت رسول الله فضلك الله برسالاته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا الى ربك ، أما ترى الى ما نحن فيه ؟ فيقول : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله

مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قتلت نفساً لم أومَرْ بقتلها ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى عيسى ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم ، وروح منه ، وكلّمتَ الناس في المهد ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي رواية لهما : ولكن ائتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر ، وجاء في رواية لمسلم عن جابر : « فيؤتى عيسى فيقول : لستُ لها ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم » وفي رواية لهما عن أنس : فيقول عيسى : لستُ هناكم ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم عبداً غفر الله ما تقدّم من ذنبه وما تأخر » وفي رواية لأحمد والنسائي من حديث ابن عباس : « فيقول عيسى : إني اتّخِذتُ إلهاً من دون الله » وفي رواية لأحمد : « أنّ كل نبي يقول : إنه لا يهمني اليوم إلا نفسي (من آدم الى عيسى عليه السلام) » وفي حديث أنس عند سعيد بن منصور نحوه ، وزاد فقال : آدم فمن بعده : « وأن يغفر لي اليوم حسبي » فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : يا محمد أنتَ رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ، ألا ترى الى ما نحن فيه ؟ اشفع لنا الى ربك ، قال : فأستأذن على ربي فيؤذن لي ، فإذا أنا رأيته وقعت له ساجداً فيدعني ما شاء الله ؛ وفي رواية : فأنطلق فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي » .

وفي رواية للبخاري : « فيلهمني الله محامد لا أقدر عليها الآن ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك ، وسلْ تعط واشفع تشفّع ، فأرفع رأسي فأقول : يا ربّ أمتي أمتي ، فيقال :

يا محمد أدخِل الجنة من أمتك مَن لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، قال صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده إنَّ بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهَجَر ، أو كما بين مكة وبصرى » .

وروى الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيهتمُّون لذلك ، وفي رواية : فيلهمون لذلك ، فيقولون : لو استشفعنا الى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا ، قال : فيأتون آدم فيقولون : أنتَ آدم أبو الخلق ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، إشفع لنا عند ربك حتى يُريحنا من مكاننا هذا ، فيقول : لستُ هناكم ، فيذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحيي ربَّه منها ، ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله الى أهل الأرض ، قال : فيأتون نوحاً ، فيقول : لستُ هناكم ، فيذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحيي ربَّه منها، ولكن ائتوا إبراهيم الذي اتَّخذه الله خليلا ، فيأتون إبراهيم ، فيقول : لستُ هناكم ، وذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحي ربَّه منها ، ولكن ائتوا موسى الذي كلَّمه الله تعالى ، وأعطاه التوراة ، قال : فيأتون موسى ، فيقول : لستُ هناكم ، ويذكر خطيئته التي أصاب ، فيستحي ربَّه منها ، ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى روح الله وكلمته ، فيقول : لستُ هناكم ، ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فيأتونني ، فأستأذن على ربي ، فيؤذن لي ، فإذا أنا رأيته وقعتُ له ساجداً فيدعني ما شاء الله ، فيقال : يامحمد ارفع ، قل يُسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفَّع ، قال : فأرفع رأسي ، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ، ثم أشفع فيحدُّ لي حداً ، فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، قال الراوي : فلا أدري في الثالثة أو في

الرابعة ، فأقول : ياربّ ما بقي من النار إلا مَنْ حبسه القرآن ، أي وجب عليه الخلود » •

وقد يشكل على الإنسان أن أول هذه الأحاديث وأمثالها جاءت في سياق الشفاعة العامة ، لإنقاذ جميع أهل الموقف ، وأن آخرها جاء في سياق الشفاعات الخاصة بمن لا حساب عليه ، ومنها الشفاعة بأهل الذنوب ، كما تقدم في رواية للشيخين •

والجواب على ذلك كما قاله الشيخ أحمد بن نصر الداوودي في شرحه على البخاري : إن هذا من باب إدخال حديث في حديث آخر ، وذلك أن أول الحديث ذكر الشفاعة في إراحة الخلائق من أهوال الموقف ، ثم بعد التحول عن الموقف وانتقالهم للحساب والميزان وما هنالك ، جاءت الشفاعات الخاصة بأنواعها •

وقد أجاب عن ذلك أيضاً الإمام النووي وقبله القاضي عياض في شرحهما لمسلم كما نبّه إليه ، ويدل على ذلك ما جاء في رواية مسند البزار : قال صلى الله عليه وسلم : « فأرفع رأسي (أي من ذلك السجود الطويل تحت العرش) فأقول : يا ربِّ عَجِّل على الخلق الحساب » فهو صلى الله عليه وسلم يسأل أولاً تعجيل الحساب على كافة الخلق ، ثم بعد التحول من الموقف تأتي الشفاعات الخاصة[1] •

* * *

(١) انظر ذلك في شرح النووي على مسلم ، وفتح الباري ، وفي شرح المواهب وشرح الاحياء •

بيانات وايضاحات هامّة

حول أحاديث الشفاعة المتقدمة

أولاً : قوله صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » فيه إعلان بمقام سيادته ، وإعلام لجميع الأنام بسؤدده العامّ ، وذلك من باب تحدثه بنعم ربه وتكريمه إياه ، لا من باب المفاخرة ؛ قال تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدّث » ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، آدم فمَنْ دونه تحت لوائي ولا فخر » .

وإنما خصّ ذكر يوم القيامة بذلك مع أنه صلى الله عليه وسلم له السيادة على ولد آدم كلهم في الدنيا والآخرة ، ولكنه إنما ذكر ذلك في الآخرة لأن الناس كلهم يومئذ يقرّون بسيادته ، ويعترفون بفضله ؛ الأبرار والفجار ، السعداء والأشقياء ، وأما في الدنيا فلا يقر بذلك إلا مَنْ آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم حقاً . ومن المعلوم أن سيد القوم هو كريم القوم وشريفهم الذي يهتمّ بشأنهم ، ويسعى لما فيه صلاح أمرهم ، يفزعون إليه في المهمّات ، ويقصدونه في النائبات ، ويرجون خيره وبرّه في الشدائد والضائقات .

ولذا أعلن صلى الله عليه وسلم بمقام سيادته ليقصدوه في أشدّ الحالات والكربات ، ألا وهي كربات الموقف وأهواله ومضايقه ، وبيَّن صلى الله عليه وسلم أنه لا ينقذهم من أهوال ذلك الموقف وشدائده إلا سيدهم صلى الله عليه وسلم وحينذاك كلّهم يرون مقام سيادته ، ويقرّون له بذلك .

ثانياً : قال الإمام النووي رضي الله عنه في شرح مسلم: والحكمة في أن الله تعالى ألهمهم (أي ألهم أهل الموقف) سؤال آدم ومَنْ بعده من الرسل صلوات الله تعالى عليهم في الابتداء (أي ليشفعوا بهم) ولم يلهَموا سؤال نبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والحكمة في ذلك هي — والله أعلم — إظهار فضيلة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنهم (أهل الموقف) لو سألوه الشفاعة ابتداءً لكان يحتمل أن غيره من الرسل يقدر على هذا ويحصله ، وأما إذا سألوا غيره من رسل الله تعالى وأصفيائه فامتنعوا ثم سألوه فأجاب وحصل غرضهم فهو النهاية في ارتفاع المنزلة ، وكمال القرب وعظيم الإدلال والأنس ، قال : وفيه تفضيله صلى الله عليه وسلم على جميع المخلوقين من الرسل والآدميين والملائكة ، فإن هذا الأمر العظيم — وهي الشفاعة العظمى — لا يقدر على الإقدام عليه غيره صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين. والله أعلم. اهـ.

وإنما لم يقدر أحد من الرسل أن يتقدم للشفاعة العظمى لأن التجلِّي وقتئذ بالغضب الشديد ، ولذا قال كل رسول : إنَّ ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولذلك لم يستطع أن يتقدم للشفاعة إلا أحبّ حبيبٍ الى الله تعالى ، وأقرب مقرَّب ، ألا وهو السيِّد الأكرم صلى الله عليه وسلم .

قال الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه : وإنما أخبرنا صلى الله عليه وسلم بأنَّه أول شافعٍ وأول مشفَّعٍ شفقةً علينا — أمة محمد صلى الله عليه وسلم المتبعين له — لنستريح من التعب الحاصل بالذهاب الى نبيٍّ بعد نبيّ في ذلك اليوم العظيم ، وكلٌّ منهم يقول : نفسي نفسي لا يهمّني اليوم إلا نفسي ، فأراد صلى الله عليه وسلم إعلامنا بمقامه يوم القيامة لنصير في مكاننا مستريحين حتى تأتي نوبته صلى الله عليه وسلم ، ويقول : « أنا لها أنا لها » قال : فكلّ مَنْ لم

يبلغه هذا الحديث أو بلغه ونسيه ــ أي لشدة تلك الاهوال في الموقف ــ لا بدّ من تعبه . وذهابه الى نبي بعد نبي ؛ بخلاف من بلغه ذلك الحديث ودام معه الى يوم القيامة فلم ينسه ؛ فإنه لا يتعب ، فصلى الله تعالى عليه وسلم ما أكثر شفقته على الأمّة ! ا هـ .

جعلنا الله تعالى ممّن بلغه هذا الحديث فلم ينسه أبداً آمين .

ثالثاً : إن الانسان قد يتوهّم من أحاديث الشفاعة المتقدم بعضها ، وفيها أن كلاً من آدم ونوح وإبراهيم وموسى يقول : لستُ هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربّه منها ، وفيها أن كلاً من هؤلاء أيضاً يذكر ذنبه ، ويتوقف عن التقدم للشفاعة ، فقد يتوهّم من ذلك أن الأنبياء صلوات الله عليهم قد وقعوا في ذنوب وخطيئات كبقية المذنبين والعُصاة ممن ليسوا بأنبياء ، وهذا الوهم مدفوع ومرفوع من وجهين :

الوجه الأول : إن من واجب الإيمان بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام الاعتقاد بعصمة الله تعالى لهم من الذنوب والمعاصي ، لثبوت ذلك بالأدلة نذكر جملة منها :

أولاً : إن الله تعالى أمر العباد بطاعة الرسل واتباعهم صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم فقال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلاّ ليُطاع بإذن الله » الآية . أي بأمر الله تعالى وإرادته ، فلو جاز أن يقع من الرسل ذنب أو شيء من الفواحش والمحرمات لكان الناس مأمورين باتباعهم في ذلك الذنب أو الفاحشة ، لأن الله تعالى أمر الناس باتباع الرسل اتباعاً مطلقاً ، وكيف تتبعهم الناس في ذنوبهم أو مخالفاتهم ــ لو فرض أنهم يصدر عنهم ذلك ــ في حين أن الله تعالى لا يأمر بالذنوب ولا بالفحشاء ، بل نهى عن ذلك سبحانه ، قال الله تعالى : « وإذا فعلوا

بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون » .

فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما تعلمون » .

فلو جاز أن تقع الرسل في الذنوب والفواحش لكان الناس مأمورين باتباعهم في ذلك والله لا يأمر بذلك بل نهى عن ذلك .

ثانياً : لو صدر من الرسل ذنب أو مخالفة شرعية لكان حالهم في استحقاق الذم عاجلاً ، والعقاب آجلا أشدّ من حال عصاة الأمة ، وذلك باطل شرعاً وعقلاً وذلك أنّ مَنْ كانت نعمة الله عليه أعظم وفضل الله تعالى عليه أكبر ـ كان صدور الذنب والمخالفة منه أفحش ، ولذا كان حدّ العبد نصف حدّ الحرّ .

ثالثاً : لو صدر منهم مخالفة شرعية لما قبلتْ شهادتهم ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتبيّنوا ـ وفي قراءة ـ فتثبّتوا » الآية .

فقد أمر الله تعالى بالتثبّت والتوقف في خبر الفاسق .

رابعاً : إن الرسل صلوات الله تعالى وسلامه على رسولنا وعليهم كانوا يأمرون الناس بفعل الطاعات وترك المعاصي والمخالفات ، فلو أنهم فعلوا المعصية والمخالفة الشرعية لدخلوا في جملة الملومين والمذمومين الذين قال الله تعالى فيهم: « أتأمرون الناس بالبرّ وتنسون أنفسكم » الآية بل لتناولهم اللوم والعقاب الشديد في قوله سبحانه : « لمَ تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » وحاشاهم من ذلك ، فإنهم أبرياء أصفياء أتقياء أنقياء ، قد أثنى الله تعالى عليهم ، ومدحهم ورفع شأنهم على غيرهم ، قال تعالى بعد أن ذكر طائفةً من رسله صلوات الله عليهم بالمدح والثناء ـ قال : «وإنهم عندنا لمن المصطَفين الأخيار » .

فقد وصفهم الله سبحانه بأنهم مصطَفون ، وأنهم أخيار ، وهذان الوصفان يشتملان على جميع الأفعال الحسنة ، وينفيان جميع الأفعال القبيحة .

وقال تعالى في وصف رسله صلوات الله تعالى على رسولنا وعليهم : « إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » فنزّه سبحانه جانب الرسل عن الدنس والمخالفة .

خامساً : إن الله تعالى أخبر عن رسله أنه هو سبحانه أخلصهم ، فهم المخلَصون والمخلِصون قال تعالى : « إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » وقال تعالى : « واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلَصاً وكان رسولاً نبياً » وقال في يوسف : « إنه من عبادنا المخلَصين » . وقد أخبر سبحانه أن إبليس لا سبيل له الى إغواء المخلَصين قال تعالى إخباراً عن إبليس : « قال فبعزّتكَ لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلَصين » .

وأعظم خلق الله تعالى إخلاصاً واستخلاصاً هم رسل الله تعالى ، الذين أخبر عنهم أنه هو سبحانه أخلصهم إليه فلا سبيل لإبليس إليهم ، ولا سلطان له عليهم ، ولا تأثير له في إيقاعهم فيما هو محرّم عليهم ، وذلك كله مما يوجب القطع بعصمة الرسل عن المعاصي والمخالفات .

سادساً : إن الله تعالى جعل الرسل عليهم الصلاة والسلام أئمة هدى فلا يصدر عنهم إلا الهدى والتقى ، قال تعالى : « وجعلناهم أئمةً يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » .

فلو جاز عليهم الذنوب والمخالفات الشرعية لوجب على الأمة أن تتبعهم في مخالفاتهم ، وحينذاك يخرجون عن كونهم أئمة هدى بل

الأمر بالعكس ؛ وحاشاهم صلوات الله عليهم ، وعلى كلّ حالٍ فليس هذا موضع تفصيل هذا البحث ، وإنما تأتي تفاصيل ذلك في كتابنا (الإيمان بالرسل صلوات الله تعالى عليهم) ــ إن شاء الله تعالى ــ .

الوجه الثاني : في الجواب عما ورد من نسبة الذنوب للأنبياء صلوات الله تعالى عليهم في بعض الآيات والأحاديث النبوية كحديث الشفاعة المتقدم ، وبيان مفاهيم تلك الذنوب .

فنقول : ــ وبالله التوفيق ــ لقد أجاب العلماء المتقدمون عما أضيف الى الأنبياء من نسبة الذنوب ، بعد أن دلّ الكتاب والسنة دلالة قطعية على عصمتهم من المخالفات والمحرمات ؛ وكلٌ من العلماء المتقدمين ــ نفعنا الله بهم ــ أجاب بجواب فيه بيان نزاهة الأنبياء ، وبيان كمالهم وشرافتهم وبراءتهم من الفواحش والقبائح ، ولولا خشية الإطالة وباعتبار أن هذا البحث ليس موضع تفصيله هنا ، لذكرنا تلك الأقوال مفصلة ، ولكن نذكر الآن قولاً منها مشهوراً بين العلماء والعرفاء قريب التناول ، مذكوراً في كتب علماء الظاهر ، ومبين في كتب علماء الباطن . وهو أن الذنوب المضافة للأنبياء صلوات الله عليهم الوارد ذكرها في الآيات والأحاديث هي ليست كذنوب غيرهم أصلا ، بل ذلك من باب القاعدة المقررة المشهورة بين جميع طبقات العلماء والعرفاء ، سلفاً وخلفاً : حسناتُ الأبرار سيئات المقرّبين ، ومباحات العوامّ سيئات الأبرار .

فما ورد من إضافة الذنب الى الأنبياء في آية أو حديث فهو يعدّ ذنباً بالنسبة لمقامهم العالي ، وبالنسبة لمنزلة قربهم الخاصّ بهم ، وإن ذلك بالنسبة لغيرهم لا يعدّ ذنباً أصلاً بل يعتبر حسنة .

ومن المقرّر أن الوزير المقرّب للملك حكمه غير أحكام السُوقة

بل واجب التعظيم ومراسيم الأدب مع الملك والنزول عند رغبته وأمره كل ذلك هو في الوزير أقوى وأشد في المسؤولية من غيره .

وبناء على ذلك فهذه الأكلة من الشجرة التي قال الله تعالى فيها : « وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » ويسميها آدم خطيئة وهي أكلة من الشجرة .

هذه الأكلة لو صدرت من آحاد الأمة غير الانبياء صلوات الله تعالى عليهم لكانت حسنة لوجوه :

١ ــ إن آدم عليه السلام نسي العهد الذي عهده إليه ربه ، وهو أن لا يقرب هذه الشجرة ، قال تعالى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبلُ فنسي ولم نجد له عزماً » . قال العلامة النسفي في تفسيره : « فنسي » أي النهي ، والأنبياء عليهم السلام يؤاخذون بنسيان الذي لو تكلفوه لحفظوه « ولم نجد له عزماً » أي قصداً الى الخلاف لأمره . اهـ .

يعني أن ذلك وقع منه نسياناً ، ولم يقع منه قصداً للمخالفة وارتكاب النهي .

٢ ــ إن إبليس قاسمه وقاسم حواء زوجته ، وحلف لهما الأيمان المكررة بأنه لهما لمن الناصحين في أكلهما من الشجرة ، ولم يعهد آدم أبداً بأن أحداً يحلف بالله كاذباً ، لأنه لم يقع له سابقة ، فلذلك وقع قسم إبليس من آدم موقع الصدق والقبول .

٣ ــ إن إبليس اللعين أتى آدم عليه السلام من طريقة يدلّه على ما يحبه آدم ويتمنى حصوله والظفر به ، وهو الخلود والبقاء في الجنة مجاورا لربه الكريم سبحانه ، مستظلاً بظلال الخير والنور الإلهي الدائم ، فقال لآدم : « هل أدلكَ على شجرة الخُلد وملكٍ لا يبلى ؟ »

فهنا يجتهد آدم عليه السلام في هذا الموقف طويلاً ، فيؤدّيه اجتهاده الملاحظ فيـه نسيانه للنهي عن قرب الشجرة ، والملاحظ فيه تكرار حلف إبليس ، والملاحظ فيه بغية آدم الخلد في جوار ربه الكريم، فيؤديه نظره الى أن يتقدم فيأكل من الشجرة ، لا بقصد المخالفة لما نهاه الله عنه ، لأن الله تعالى قال : « ولم نجد له عزماً » على الذنب ، ولا قصداً الى المخالفة ، بل كان ذلك على خطإٍ ونسيان ، وقصد البقاء في الجوار الكريم ؛ وهـذا المعنى قد جاء عن ابن عباس وغـيره من الصحابة وعن ابن زيـد . ونقله المفسرون عن جماعاتٍ من السلف الصالح(١) .

فلو أن مثل هذا وقع لأحدٍ من الأمة غير الانبياء لما عُدّ ذنباً بالنسبة له ، لصدوره عن نسيانٍ ، وتغرير عدوٍّ ، وعن نية حسنة ، ولكن عُدّ بالنسبة لمقام النبوة ذنباً . لأن للأنبياء أحكاماً خاصة بينهم وبين ربهم ، حتى إنهم ليؤاخذون على مالا يؤاخذ عليه غيرهم ، كما تقدم في كلام العلامة النسفي حول الآية .

وأما اعتـذار سيدنا نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام عن التقدم للشفاعة بسبب سؤاله ربه بغير علم ، فهو كما قال الله تعالى : « ونادى نوح ربّه » أي في نجاة ابنه . كما جرى عليه المحققون من المفسرين « فقال ربِّ إن ابني من أهلي » أي هو بعض أهلي ، لأنه كان ابنه من صلبه ، بدليل قوله تعالى : « ونادى نوح ابنه وكان في معزلٍ » فالله تعالى وصفه بأنه ابنه ، ومَنْ أصدق من الله قيلاً ؟ فهو ابنه من صلبه حقيقة خلافاً لمن توهّم غير ذلك «وإن وعدك الحقّ » أي لا شكّ في إنجـازه والوفاء به ، وقد وعدتني أن تنجي أهلي ، فما بال ولدي « وأنت أحكم الحاكمين » أي فأنت أعلم الحكام بالحِكَم والأحكام ،

---

(١) انظر تفسير النسفي والخازن والآلوسي وغيرها .

وأعدلهم في القضاء والحكم « قال يا نوح إنه ليس من أهلك » نفى كونه من أهله ثم بين علة النفي بقوله سبحانه : « إنه عمل غير صالح ».

قال العلامة النسفي في تفسيره : قال الشيخ أبو منصور رحمه الله تعالى : كان عند نوح عليه السلام أن ابنه كان على دينه ، لأنه كان ينافق ، وإلا لا يحتمل أن يقول ــ نوح ــ ابني من أهلي ، ويسأل ربه نجاته وقد سبق منه النهي عن مثله ، بقوله تعالى : « ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » فكان نوح عليه السلام يسأل ربه نجاة ابنه على الظاهر الذي عنده ، كما كان أهل النفاق يظهرون الموافقة لنبينا عليه الصلاة والسلام ، ويضمرون الخلاف له ، ولم يعلم صلى الله عليه وسلم بذلك حتى أطلعه الله تعالى عليه ، وقوله تعالى : « ليس من أهلك » أي ليس من الذين وعدت النجاة لهم ، وهم المؤمنون حقيقة في السر والظاهر . اهـ .

والمعنى أنه متظاهر بالإسلام معك ، ولكنه مبطن للكفر ، منافق بالواقع ، فهو ليس من أهلك ، لقطع النسب بين المؤمن والكافر « فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إني أعظك أن تكون من الجاهلين ، قال ربّ إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم » أي من أن أطلب منك في المستقبل مالا علم لي بصحته ، تأدّباً بأدبك واتعاظاً بموعظتك «وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين . قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممَّنْ معك » الآية ، وفي هذا سلام من الله تعالى وبركات على نوح عليه السلام ، وعلى مَنْ معه ، وعلى كل مؤمن الى يوم القيامة .

وقد جاء في بعض روايات البخاري ومسلم ــ اعتذار نوح عليه السلام بغير ما سبق ، بل بقول نوح عليه السلام : إن لي دعوةً دعوتُ

بها على قومي . وقد جمع الحافظ في الفتح بين الروايتين بأن نوحاً على نبينا وعليه الصلاة والسلام اعتذر بأمرين :

أحدهما : نهيُ الله تعالى له أن يسأله ما ليس له به علم بعد أن سأل نجاة ابنه فخشي ــ نوح ــ أن تكون شفاعته لأهل الموقف من ذلك .

ثانيهما : أن له دعوةً محققة الاجابة ، أي بالنسبة لما يتعلق بكافة أمته ، وقد استوفاها بدعائه على أهل الأرض ، فخشي أن يطلب فلا يجاب . اهـ .

قلتُ : وهذا يشير الى ما ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكلِّ نبيٍّ دعوة مستجابة فتعجَّل كلّ نبيّ دعوته . وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة » الحديث .

وأما ما ورد في حديث الشفاعة من اعتذار الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام بسبب الكذبات ، فإنما هي كذبات صورة لا حقيقة ، لأنها من باب المعاريض ، وقد جاء في الأدب المفرد للبخاري وفي السنن للبيهقي وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن في المعاريض لمندوحةً عن الكذب » يعني أن في المعاريض متسعاً وفسْحَةً تغني الانسان عن اللجوء الى الكذب . والمعاريض كما قال في شرح المواهب : هي جمع مِعراض كمفتاح من التعريض ، وهو خلاف التصريح . وعرفه المتقدمون بأنه ذكر لفظ محتمل يفهم منه السامع خلاف ما يريده المتكلم . فمن ذلك تعريضات الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام الثلاثة :

الأولى : حين قدم أرض جبّارٍ ومعه زوجته سارّة ، وكان الجبار يغتصب الزوجات الحسان من أزواجهن ، وقد كانت زوجة الخليل سارّة باسمها ووصفها وهيئتها ، فقال الخليل عليه الصلاة والسلام :

إذا سألك فقولي إنك أختي ــ أي ولا تقولي له إني زوجته ــ فإنك أختي في الإسلام » •

وهذا صريح في أن الخليل سلك مسلك التعريض في الكلام ، فإنه قال لزوجته : قولي للجبار إنك أختي ، وهذا يوهم أنها آخته نسباً ، ولكنه قصد أخوة الاسلام وعلى هذا المنوال جاءت بقية الأجوبة الثلاثة ، عرّض فيها تحفظاً من كيد أعدائه وإيذائهم •

والثانية : حين أراد قومه أن يخرج معهم الى عيد لهم ، قال لهم : « إني سقيم » أوهمهم أنه سقيم ، أي مريض الجسم ، ولكنه أراد سقم النفس وغمّها وضيقها ونفرتها من كفرهم ، وهذا السقم أشدّ على النفس من سقم الجسم ، وقصد من وراء هذا التعريض أن يخلو بأصنامهم ، وقد فعل ذلك ولم يترك منها سوى صنم واحد وهو أكبرها، وعلّق الفأس برأس هذا الصنم الكبير •

فلما جاؤوا « قالوا مَنْ فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين » فقالت طائفة منهم « قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم » أي كان يذكر الأصنام بسوء وتضليل وسمعناه يحلف أنه ليكيدنّهم ، فهو الذي كسّرها •

« قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلّهم يشهدون » أي أحضروه على رؤوس الأشهاد في الملأ الأكبر من الناس لعلهم يشهدون بفعله وقوله ذلك . ثم يشهدون عقوبته الشديدة بفعله ذلك ، وكان هذا الجمع والحفل الكبير هو المقصود للخليل عليه السلام ، ليبيّن لهم في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم ، وقلة عقلهم في عبادة الاصنام ، التي لاتدفع عن نفسها ضراً ، ولا تملك لهـا نَصْراً فكيف يُطلب منهـا شيء من ذلك ؟

« قالوا ءأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » وهذا الموضع الثالث الذي سلك فيه الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام مسلكاً تعريضياً يؤدّي به الى مقصده الذي هو إلزامهم الحجة على ألطف وجهٍ وأحسنه ، ويحملهم على التأمل في شأن آلهتهم مع ما فيه من التوقّي من الكذب ، وقد ذكر علماء التفسير كالنسفي والآلوسي وغيرهما في ذلك وجوهاً من التعريض نذكر بعضاً منها :

١ ـ إن الخليل عليه السلام أبرز كبير الاصنام قولاً في معرض المباشر لفعل الكسر بإسناد الفعل إليه إسناداً مجازياً عقلياً ، كما أبرزه في ذلك المعرض فعلاً بجعل الفأس في عنقه أو في يده ، وقد قصد الخليل عليه السلام إسناد الفعل الى كبير الأصنام بطريق التسبب ؛ حيث رأى الخليل تعظيمهم لهذا الصنم الكبير أشدّ من تعظيمهم لبقية الأصنام المصطنعة حول هذا الكبير ، فغضب لذلك زيادة الغضب ، فأسند الفعل الى كبير الأصنام إسناداً مجازياً عقلياً ، باعتبار أنه الحامل الأكبر له على فعل التكسير ، وإنما لم يكسر كبير الاصنام وإن كان مقتضى غضبه أن يفعل ذلك ليظهر لهم الحجة والبرهان على أن هذا الصنم الذي يعبدونه ويعظمونه كل التعظيم هو حجر أصمّ أبكم أعمى لا يعي ولا ينطق •

٢ ـ إن نسبة فعل التكسير الى كبير الأصنام جاء من الخليل عليه السلام حكاية لما يلزم من مذهب قومه الذين هاموا في عبادته •

قال العلامة النسفي : فكأنه قال لهم ما تنكرون أن يفعله كبيرهم ، فإن من حقّ من يُعبَد ويدعى إلهاً ـ كبيراً ـ أن يقدر على هذا ، ويحكى أنه عليه السلام قال : فعله كبيرهم هذا ، لأنه غضب أن تُعبَد هذه الأصنام الصغار معه وهو أكبر منها • اهـ •

٣ ــ إنه عليه السلام لم يقصد بقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » إلا إثبات الفعل لنفسه على الوجه الأبلغ ، مضمناً فيه الاستهزاء بعبّاد الأصنام ، والتبكيت عليهم وملزماً لهم الحجة . كما إذا قال لك رجل أمي ّ . وقد كتبْتَ كتاباً بخط رشيق أنيق ، وأنت شهير بحسن الخط ، فقال الأمي ّ : أأنتَ كتبتَ هذا ؟ فقلتَ له : بل كتبته أنت ، فإنك لم تقصد نفيه عن نفسك وإثباته للأمي ، وإنما قصدت إثباتــه وتقريره لنفسك مع الاستهزاء بمخاطبك ، وهو الأمي ّ .

٤ ــ إن الكلام قد تم ّ عند قوله « بل فعله » والضمير المستتر فيه يعود على فتى ً ، أو الى إبراهيم المتقدم ذكره .

وقد حكى العلامة النسفي وغيره عن الكسائي الوقف على قوله تعالى : « بل فعله » قال النسفي : وجاز أن يكون الفاعل مسنداً الى الفتى المذكور في قوله : « سمعنا فتى ً يذكرهم » أو إلى إبراهيم في قوله : « يا إبراهيم » ثم قال : « كبيرهم هذا » وهو مبتدأ وخبر . قال : والأكثر أنه لا وقف ، والفاعل كبيرهم إلخ .. اهـ .

وهذه الوجوه من التعريض مذكورة في معظم التفاسير ، وهي مفصلة في تفسير النسفي والآلوسي وغيرهما ، وهناك وجوه أخرى لهــذا التعريض عدلْنا عنها مخافــة الإطالة ، وفيما ذكرناه كفاية إن شاء الله تعالى .

وأما اعتذارُ سيدنا موسى الكليم على نبينا وعليه الصلاة والسلام عن التقدم للشفاعة بسبب قتله النفس وعد ّ ذلك خطيئة كما تقدم :

فقد بيَّن الله تعالى ذلك في قوله : « ودخل المدينة على حين غفلةٍ من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته » شايع موسى على دينه من بني إسرائيل .

« وهذا من عدوّه » قبطي من مخالفي موسى « فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه فوكزه موسى » قال العلاّمة النسفي : ضربه بجمع كفّه أو بأطراف أصابعه « فقضى عليه » أماته « قال هذا من عمل الشيطان إنه عدوّ مضلٌّ مبين » فالاشارة بقوله « هذا من عمل الشيطان» تعود الى القتل الحاصل بغير قصد،وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسمّاه ظلماً لنفسه واستغفر منه : لأنه قتله قبل أن يُؤذن له في القتل ، ويدلّ على ذلك قول موسى عليه السلام حين طُلبتْ منه الشفاعة : وإني قتلتُ نفساً لم أؤمر بقتلها . الحديث كما تقدم . ولذا قال ابن جُريج : ليس لنبيٍّ أن يَقتل ما لم يُؤمر . اهـ .

وقيل : إن الإشارة في قوله : « هذا من عمل الشيطان » تعود الى عمل المقتول لا إلى عمل موسى نفسه ، والمعنى : أن عمل هذا المقتول من عمل الشيطان ، والمراد من ذلك بيان كونه مخالفاً لأمر الله سبحانه وتعالى مستحقاً للقتل . « قال ربِّ إني ظلمتُ نفسي » أي : بقتل القبطيِّ الكافر من غير أمرٍ «فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم».

فلو أن هذا القتل لتلك النفس الكافرة التي حاولت إيذاء المسلم وقتله ـ صدر من غير موسى عليه الصلاة والسلام ومن غير الأنبياء : لم يكُ يُعدّ خطيئة أصلا .

قال العلاّمة القاضي عياض رضي الله عنه : وانظر هذه الخطايا التي ذُكرت للأنبياء من أكل آدم عليه الصلاة والسلام من الشجرة ناسياً ، ومن دعوة نوح عليه الصلاة والسلام على قومه على قومٍ كفّار ، ومن قَتْل موسى صلى الله تعالى على نبينا وعليه الكافرَ ولم يُؤمر بقتله، ومدافعة إبراهيم صلى الله عليه وسلم الكفار بقول عرّض به هو فيه من وجهٍ صادق ، وهذه كلّها في حقّ غيرهم ليست بذنوب ، لكنهم

أشفقوا منها إذ لم تكن عن أمر الله تعالى ، وعُتِب على بعضهم فيها بقدر منزلتهم في معرفة الله تعالى . ا هـ .

وأما اعتذار سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام : فيقول : لستُ هناكم ، ويقول مهتماً بنفسه : نفسي نفسي نفسي ، لا يهمني اليوم إلا نفسي إلا نفسي ، ويقول : إني اتّخذت إلهاً من دون الله ، وفي رواية : عُبدتُ من دون الله ، ويقول : أن يَغفر الله لي حسبي . إلى آخر الروايات كما تقدم .

وقول عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام : لست هناكم ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، عبداً قد غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر : في هذا ما يدل على اعتراف الجميع بفضل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإقرارهم بكمال أهليته للشفاعة حينذاك في الوقت الذي كان التجلي فيه بالغضب وكانوا كلهم مهتمين بأنفسهم ، فإذا به صلى الله عليه وسلم يقول : « أنا لها أنا لها » وفي هذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم أحبّ المحبوبين وأقرب المقرّبين الى رب العالمين ، وذلك أنه لم يؤذن لأحد من مقربي البشر ولا من مقربي الملائكة عليهم الصلاة والسلام — أن يتقدم في ذلك الموقف المهيب الرهيب فيشفع عند رب العزة إلا السيد الأكرم صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً — في معنى أن عيسى عليه السلام كلمة الله ألقاها الى مريم وروح منه .

أما كونه كلمة الله : فالمراد أنه وُجِد بكلمة الله « كن » من غير أب ، كما قال تعالى في الجواب لوالدته السيدة مريم : « قالت ربِّ أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ؟ قال : كذلكِ الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » .

وقال تعالى : « إنّ مَثَل عيسى عند الله كمثل آدم » يعني أن صفة عيسى عليه السلام وشأنه العجيب كصفة آدم عليه السلام في خلقه من غير أبوين « خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » فعيسى خُلق بلا أب وآدم خلق بلا أبٍ وأمّ ، فحال آدم في خلقه وشأنه أغرب وأعجب من حال عيسى عليهما السلام ؛ وفي هذا إفحام للخصم وقطع لشبهته في شأن عيسى ابن مريم عليه السلام . فعيسى عليه السلام أثر كلمة الله التكوينية وهي قوله « كن » وهذا من باب اطلاق اسم المصدر وإرادة اسم المفعول نظير قوله سبحانه : « وأما الذين ابيضَّت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون » . فالمراد هنا برحمة الله تعالى : الجنة ، وليس المراد بذلك أنها هي ذات الرحمة الإلهية التي اتصف الله تعالى بها، بل المراد أن الجنة أثر رحمة الله تعالى التي هي صفة الله تعالى .

وقال سبحانه : « وهو الذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته » والمراد برحمته هنا المطر ، فإنه أثر رحمته سبحانه ، وذلك قوله سبحانه : « فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها » .

وقد يقال : إذا كان كذلك فإن جميع الأشياء الموجودة إنما وُجدت بقولة « كن » فيلزم من ذلك أن يكون العالم كله كلمات الله تعالى ؛ أي : آثار كلماته التكوينية . قلنا في الجواب : نعم ، ولكن إنما اشتهر عيسى عليه السلام بذلك ووُصف بذلك ، باعتبار أنه أولى وأحقّ ، حيث إن تخليقه كان على غير الطريقة المعتادة في غيره . بل على وجه خارق للعادة ، فَحَقَّ له أن يُخصَّص بما يميّزه عن غيره ، ولينبّه على أن كلمة « كن » من رب العالمين لا يُعجزها شيء ولا يجاوزها شيء . فعيسى أثر كلمة الله « كن » ولذلك قال الله تعالى :

« وكلمته ألقاها الى مريم » فإن الملقى الى مريم هو أثر كلمة « كن » وهو عيسى المخلوق بـ « كن » فلو كان عيسى نفس الكلمة أي نفس الصفة القائمة به سبحانه فكيف تلقى الى مريم ؟ إذ الصفة لا تفارق الموصوف الى غيره ولا تلقى الى غير من اتصف بها .

وأما أنه روح منه : فالمعنى أن عيسى عليه السلام روح ابتدىء خلقها من الله تعالى لا من غير الله ، ولا أنه بعض من الله ! فـ « مِن » ابتدائية وليست تبعيضية . وهذا نظير قوله تعالى : « وسخَّر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعاً منه . إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون » يعني أن ابتداء خلق ذلك كلِّه من الله سبحانه لا من إله غيره .

فمن توهَّم أن عيسى من الله بعضاً وجزءاً يجب عليه أن يحكم على العالم كله بسماواته وأرضه أنه بعض من الله وجزء منه سبحانه ! لأن هذا ورد أنه منه ، وذلك ورد أنه منه سبحانه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل هو الله الأحد الصمد ، وأنه هو سبحانه الذي بدأ الخلق ثم يعيده .

قال تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يُنشىء النشأةَ الآخرة إن الله على كل شيء قدير » .

وقال تعالى : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده » الآية فالعالَم بدأ خلقه من الله تعالى ثم الله يعيده ، ومنه روح عيسى عليه السلام بَدَأَ الله تعالى خلقها كما بدأ خلق الأرواح كلها سبحانه ، وكما بدأ خلق الأشباح كلها سبحانه ، وكما بدأ خلق السماوات والأرض . وفي ذلك ردٌ على من زعم أن عيسى إله كلاَّ بل هو عبد الله ورسول الله وبَدْءُ خلقه من الله تعالى .

* * *

أنواع الشفاعات الخاصة

الشفاعات الخاصة أنواعها كثيرة :

منها شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوم ، فيدخلهم الله تعالى الجنة بغير حساب ، ويدل على ذلك ما تقدّم في آخر حديث أبي هريرة قوله صلى الله عليه وسلم : « فأرفع رأسي فأقول : يارب أمتي أمتي . فيقال : يا محمد أدخِل من أمتك مَن لا حساب عليهم من الباب الأيمن ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب » .

ومنها الشفاعة في قوم حوسبوا واستحقّوا العذاب — أن لا يعذّبوا . ويدل على ذلك ما رواه مسلم عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله تبارك وتعالى الناس فيقوم المؤمنون حتى تزلف (أي تقرّب) لهم الجنة ، فيأتون آدم فيقولون : يا أبانا استفتح لنا فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ لستُ بصاحب ذلك إذهبوا الى إبراهيم خليل الله تعالى .

قال فيقول ابراهيم : لستُ بصاحب ذلك إنما كنت خليلا من وراء وراء(١) اعمدوا الى موسى الذي كلمه الله تكليماً .

---

(١) قال الامام النووي في شرحه لمسلم : قال صاحب التحرير : هذه كلمة تذكر على سبيل التواضع أي لستُ بتلك الدرجة الرفيعة . قال : وقد وقع لي معنى مليح فيه وهو معناه (أي معنى كلام الخليل) أن المكارم التي أعطيتها كانت بواسطة سفارة جبريل صلى الله عليه وسلم ولكن ائتوا موسى فانه حصل له سماع الكلام بغير واسطة قال وانما كرر

فيأتون موسى فيقول لستُ بصاحب ذلك إذهبوا الى عيسى كلمة
وروحه فيقول عيسى لست بصاحب ذلك •

فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقوم فيؤذن له ـ أي الشفاعة ـ وتُرسل الأمانة والرحم ، فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً (أي تقومان لتطالبا المارّين على الصراط بحقهما) فيمر أولكم كالبرق • قال : قلت بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله : أي شيء كالبرق ؟

قال : ألم تروا الى البرق كيف يمرّ ويرجع في طرفة عين ؟ ثم كمرّ الريح ، ثم كمرّ الطير وشدّ الرجال تجري بهم أعمالهم •

ونبيّكم قائم على الصراط يقول : ربِّ سلِّم سلِّم • حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً ، قال : وفي حافتَي الصراط ـ أي على جانبيه ـ كلاليب معلقة مأمورة تأخذ من أُمرت به ، فمخدوش ناجٍ ، ومكدوس في النار •

والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً »(١) •

المخدوش الناجي : هو المجروح الذي خدش ولكنه نُجّي من الوقوع في النار ، والمكدوس هو الموقوع في النار •

وراء وراء لكون نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حصل له السماع بغير واسطة وحصل له الرؤية فقال ابراهيم صلى الله عليه وسلم أنا وراء موسى الذي هو وراء محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين • هذا كلام صاحب التحرير • ا هـ كلام النووي • وفي هذا بيان فضل سيدنا محمد صلى الله وسلم على الجميع •

(١) قال الامام النووي : ووقع في معظم الأصول والروايات لسبعين بالياء وهو صحيح أيضاً • أما على مذهب من يحذف المضاف ويبقي المضاف إليه على جره فيكون التقدير سير سبعين خريفاً • وأما على أن قعر جهنم مصدر يقال قعرت الشيء اذا بلغت قعره ويكون سبعين ظرف زمان وفيه خبر إن والتقدير إن بلوغ قعر جهنم لكائن في سبعين خريفاً • والخريف : هو السنة والله أعلم • اهـ •

وروى ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوضع للأنبياء منابر من نور يجلسون عليهـا ويبقى منبري لا أجلس عليه ـ قائماً بين يَدَيْ ربي مخافة أن يُبعث بي الى الجنة وتبقى أمتي بعدي • فأقول : يا ربِّ أمتي أمتي • فيقول الله عزّ وجل : يا محمد ما تريد أن أصنع بأمتك ؟

فأقول : يارِبِّ عَجِّلْ حسابهم • فيُدعى بهم فيُحاسبون فمنهم مَن يدخل الجنة برحمته ، ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي ، فما أزال أشفـع حتى أُعطى صِكاكاً ـ أي كتباً ـ برجال قد بُعث بهم الى النار ، حتى إن مالكاً خازن النار ليقول : يا محمد ما تركتَ لغضب ربك في أمتك من نقمة »(١) •

وعن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشفع لأمتي حتى يناديني ربي تبارك وتعالى فيقول : أقَدْ رضيتَ يا محمد ؟ فأقول : أيْ ربِّ قد رضيت »(٢) •

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خُيِّرتُ بين الشفاعة أو يَدخُل نصف أمتي الجنة ؟ فاخترت الشفاعة ، لأنها أعمّ وأكفى أما إنها ليست للمؤمنين المتقدمين ولكنها للمذنبين الخطّائين المتلوثين »(٣) •

ومن أنواع الشفاعة الخاصة : الشفاعة في إخراج عصاة المؤمنين من النار •

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في الكبير والاوسط والبيهقي في البعث وليس في إسنادهما متروك • ا هـ •

(٢) قال في الترغيب: رواه البزار والطبراني واسناده حسن إنشاء الله اهـ•

(٣) قال في الترغيب : رواه أحمد والطبراني واللفظ له وإسناده جيد ، ورواه ابن ماجه من حديث أبي موسى بنحوه • ا هـ •

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكلِّ نبي دعوة مستجابة ، فتعجّل كلُّ نبيٍّ دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً » • والمراد أن لكل نبي دعوة تتعلق بعامة أمته محققَّقة الإجابة ، كما بيَّن ذلك القاضي عياض رحمه الله تعالى فإن أدعية الأنبياء مجابة •

قال الامام النووي رضي الله عنه : وفي هذا الحديث بيانُ كمال شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على أمته ورأفته بهم واعتنائه بالنظر في مصالحهم المهمة ، فأخَّر دعوته لأمته الى أهمِّ أوقات حاجاتهم •

قال : وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « فهي نائلة إن شاء الله تعالى مَن مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً » : ففيه دلالة لمذهب أهل الحق أن كل من مات غير مشرك بالله تعالى لم يخلد في النار وإن كان مُصراً على الكبائر •

قال رحمه الله تعالى : وقوله صلى الله عليه وسلم : « إن شاء الله تعالى » هو على جهة التبرُّك والامتثال لقول الله تعالى : « ولا تقولنَّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » والله أعلم • ا هـ •

وروى البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يخرج قوم من النار بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة يُسَمَّون الجهنميين » •

وعن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يخرج من النار قوم بالشفاعة كأنهم الثعارير» قلنا: وما الثعارير ؟قال: الضغابيس »(١) •

---

(١) الثعارير : جمع ثعرور كعصافير جمع عصفور • والضغابيس : جمع ضغبوس وهي صغار القثّاء •

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدخل من أهل هذه القبلة النار مَن لا يحصي عددهم إلا الله بما عصوا الله واجترؤوا على معصيته وخالفوا طاعته . قال صلى الله عليه وسلم : فيُؤذَن لي في الشفاعة فأثني على الله ساجداً كما أثني عليه قائماً فيقال لي : ارفع رأسك وسل تعطهْ واشفع تُشفَّع »(١) .

* * *

(١) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في الكبير والصغير بإسناد حسن . ا هـ .

حال العُصاة في جهنم

روى الامام مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لايموتون فيها ولا يَحيَون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم — أو قال : بخطاياهم — فأماتتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً أُذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائرَ ضبائرَ فبثّوا على أنهار الجنة ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم . فينبتون نبات الحِبّة تكون في حَميل السيل » .

فقال رجل من القوم : كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان بالبادية .

قال الامام النووي : والظاهر — والله أعلم — من معنى هـذا الحديث أن الكفار الذين هم أهل النار والمستحقون للخلود لا يموتون فيها ولا يحيون حياةً ينتفعون بها ويستريحون معها . كما قال الله تعالى : « لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفّف عنهم من عذابها » وكما قال الله تعالى : « ثم لا يموت فيها ولا يحيى » .

وهذا جارٍ على مذهب أهل الحق أن نعيم أهل الجنة دائم وأن عذاب أهل الخلود في النار دائم (أي خلافاً للجهمية في ذلك) .

قال رحمه الله تعالى : وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « ولكن ناس أصابتهم النار » الى آخره فمعناه أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله تعالى إماتة بعد أن يعذّبوا المدة التي أرادها الله تعالى ، وهـذه الإماتة إماتة حقيقية يذهب معها الاحساس ويكون عذابهم على قدر

ذنوبهم ثم يميتهم ثم يكونون محبوسين في النار من غير إحساس ــ المدة التي قدرها الله تعالى ــ ثم يخرجون من النار موتى قد صاروا فحماً فيحملون ضبائر ضبائر (أي جماعاتٍ جماعاتٍ) كما تحمل الأمتعة ويلقون على أنهار الجنة فيصبّ عليهم ماء الحياة فيحيون وينبتون ــ أي تنبت أجسادهم ــ نبات الحِبَّة في حميل السيل في سرعة نباتها وضعفها فتخرج لضعفها صفراء ملتوية ، ثم تشتدّ قوتهم بعد ذلك ويصيرون الى منازلهم وتكمل أحوالهم •

قال رحمه الله تعالى فهذا هو الظاهر من لفظ الحديث ومعناه •

قال : وحكى القاضي عياض رحمه الله تعالى فيه ــ أي في معنى الحديث ــ وجهين : أحدهما أنها إماتة حقيقية ــ أي كما تقدم تفصيله ــ. والثاني: ليست بموت حقيقي ولكن يغيب عنهم إحساسهم بالآلام (أي بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « فأماتتهم إماتة » أي نوعاً من الإماتة غير الموتة المعهودة) ، قال : ويجوز أن تكون آلامهم أخفّ (يعني أن تحسّس العُصاة بالعذاب يكون أخف من تحسس الكفار بسبب الإيمان في قلوبهم فإن النار لا تطّلع على أفئدتهم ، بخلاف الكفار فان النار تعمّ كلّ ذرةٍ فيهم حتى إنها تطلع على أفئدتهم عياذاً بالله تعالى) •

قال الامام النووي : فهذا كلام القاضي • والمختار ما قدّمناه والله أعلم • اهـ •

* * *

الشفاعة في عُصاة المؤمنين واخراجهم من النار على طبقات مختلفة في المُدّة

روى الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم الى بعض ، فيأتون آدم فيقولون : اشفع لنا الى ربك ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بابراهيم فإنه خليل الرحمن ، فيأتون ابراهيم فيقول : لستُ لها ، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله ، فيأتون موسى فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته فيأتون عيسى فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم

فيأتوني فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويُلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن ، فأحمده بتلك المحامد وأخِرّ له ساجداً فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يُسمع لك ، وسلْ تعطه ، واشفع تشفّع ، فأقول : يا ربّ أمتي أمتي ! فيقال : انطلق ، فأخْرِجْ منها — أي النار — مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد وأخِرّ له ساجداً فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يُسمع لك ، وسلْ تعطهْ ، واشفع تشفع ، فأقول : يا ربّ أمتي أمتي! فيقال: انطلقْ فأخرِج مَن كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخِرّ له ساجداً فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسل تعطهْ، واشفع تشفع، فأقول : يارب أمتي أمتي ! فيقال : انطلقْ فأخرِج مَن كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبّة خردلةٍ من إيمان فأخرِجهْ من النار ،

فأنطلق فأفعل ، ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد وأخرّ له ساجداً فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل تسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأقول : يا ربّ إئذن لي فيمن قال لا إله إلا الله ، قال : ليس ذلك لك ، ولكن وعزّتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأُخرجنّ منها مَن قال لا إله إلا الله » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلتُ : يا رسول الله ماذا ردّ إليك ربك في الشفاعة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسُ محمدٍ بيده لقد ظننتُ أنك أول من يسألني عن ذلك من أمتي لِما رأيت من حرصك على العلم ، والذي نفس محمد بيده : لَمَا يهمني من انقصافهم[1] على أبواب الجنة أهمّ عندي من تمام شفاعتي لهم ، وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً وأن محمداً رسول الله، يصدّق لسانُه قلبَه وقلبُه لسانه »[2].

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : قلت : يا رسول الله مَن أسعد الناس بشفاعتك يومَ القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولُ منك لِما رأيت من حرصك على الحديث . أسعدُ الناس بشفاعتي يوم القيامة مَن قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه » .

---

(١) قال ابن الأثير في النهاية مفسراً لهذه الجملة : يعني استسعادَهم بدخول الجنة ــ أي حصول السعادة لهم بدخول الجنة ــ وأن يتمّ لهم ذلك : أهمّ عندي من أن أبلغ أنا منزلة الشافعين المشفّعين ، لأن قبول شفاعته صلى الله عليه وسلم كرامة له فوصولهم الى مبتغاهم ــ وهو الجنة ــ آثر عنده من نيل هذه الكرامة لفرط شفقته على أمته صلى الله عليه وسلم . ا هـ .

(٢) رواه الامام أحمد وابن حبان في صحيحه ، كما في ترغيب المنذري .

شفاعته صلى الله عليه وسلم في رفعة الدرجات في الجنة

ورد في الأحاديث النبوية أن هناك شفاعة خاصة معلقة على أسباب خاصة فمن جاء بذلك السبب نال تلك الشفاعة ، فإن كانت له ذنوب ومعاصٍ لم يتب منها غفر الله تعالى له بتلك الشفاعة حسب مشيئة الله تعالى وحكمته ، وإن لم تكن له ذنوب ومعاص رفعت درجاته في الجنة بسبب تلك الشفاعة .

فمن تلك الأسباب :

سؤال الدعاء بالوسيلة والمقام المحمود عقب الأذان .

روى مسلم وأصحاب السنن عن ابن عمرو رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ ، فإنه مَن صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فانها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلّت له الشفاعة » .

وروى البخاري وأصحاب السنن عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَن قال حين يسمع النداء : اللهمّ ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلّت له شفاعتي يوم القيامة » وزاد البيهقي في روايته : « إنك لا تخلف الميعاد » .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا سمع المؤذن : « اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صلِّ على محمدٍ وأعْطه سُؤْله يوم القيامة » وكان يُسمعها مَن حوله ، ويُحبُّ صلى الله عليه وسلم أن يقولوا مثل ذلك إذا سمعوا المؤذن . قال : « ومَن قال مثل ذلك إذا سمع المؤذن وجبتْ له شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة(١) .

ومن أسباب شفاعته الخاصة زيارته الكريمة صلى الله عليه وسلم :

فعن حاطب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي ، ومن مات بأحد الحرمين بُعث من الآمنين يوم القيامة »(٢) .

وعن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَن زار قبري — أو قال : من زارني — كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة ، ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله من الآمنين يوم القيامة »(٣) .

وروى البيهقي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن مات في أحد الحرمين بُعث من الآمنين يوم

---

(١) قال المنذري : رواه الطبراني في الكبير والأوسط . ا هـ .

(٢) قال الحافظ المنذري : رواه البيهقي عن رجل من آل حاطب ولم يسمعه من حاطب ا هـ .

(٣) قال المنذري : رواه البيهقي وغيره عن رجل من آل عمر لم يسمعه عن عمر . ا هـ .

القيامة(١) ، ومَن زارني محتسباً الى المدينة كان في جواري يوم القيامة »(٢) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من زار قبري وجبتْ له شفاعتي »(٣) . أي يخصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بشفاعة ليست لغيره إما بزيادة نعيم ، أو تخفيف هول ذلك اليوم عنه ، أو دخول الجنة بغير حساب ، أو رفع درجاته في الجنة ، أو بزيادة شهود الحق تعالى والنظر إليه ، أو بغير ذلك من أنواع الإنعام والإكرام .

وفي المعجم الكبير للطبراني عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَن جاءني زائراً لا تُعمله (أي لا تحمله على العمل حاجة) إلاّ زيارتي كان حقاً عليَّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة »(٤) .

ويكفي بهذه الأحاديث التي ذكرناها وتنوّع رواياتها وكثرة طرقها دليلا صريحاً في مشروعية زيارة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحثه عليها ، وترغيبه صلى الله عليه وسلم فيها ، وبيانه لفضائل زيارته الكريمة . نسأل الله العظيم قبولها واستمرارها بجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الله تعالى .

ومن أسباب شفاعته الخاصة صلى الله عليه وسلم : الموتُ في

---

(١) وفي هذا بشرى لمن مات في أحدهما بالموت على الاسلام إذ لا يبعث من مات على غير الاسلام آمناً .

(٢) قال الحافظ الزرقاني : أي كان في أماني وعهدي فلا يناله مكروه . والمراد أن له منزلة رفيعة في الآخرة . اهـ .

(٣) قال في المواهب وشرحها : رواه الدارقطني وأبو الشيخ وابن أبي الدنيا كلهم من حديث ابن عمر ، ورواه عبد الحق في أحكامه الصغرى والوسطى وسكت عنه ، وسكوته عن الحديث فيه دليل على صحته . اهـ.

(٤) قال القسطلاني: صححه ابن السكن وهو من كبار الحفاظ النقاد. اهـ.

مدينته الطيبة ، والصبر على لأوائها ، زادها الله تعالى شرفاً ورفعةً ونفحنا الله تعالى بنفحاتها الطيبة .

روى الترمذي عن ابن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَن استطاع أن يموت بالمدينة فليمتْ بها فإني أشفع لمن يموت بها » .

ورواه ابن ماجه بلفظ : « من استطاع منكم أن يموت بالمدينة فليفعل ، فاني أشهد لمن مات بها » .

وروى الطبراني بإسناد حسن عن امرأة يتيمة كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها ، فإن مَن مات بها كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة » .

وروى مسلم عن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إني أحرِّم ما بين لابَتَي المدينة (أي حرَّتيْها وطرفيها) أن يُقطَع عِضاهها[1] أو يُقتل صيدها » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، لا يدعها أحد رغبةً عنها إلا أبدل الله فيها مَن هو خير منه ، ولا يثبت أحد على لأوائها[2] وجَهدها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة ».

وزاد مسلم في رواية : « ولا يريد أحد أهلَ المدينة بسوء إلا أذابه الله تعالى في النار ذوب الرصاص أو ذوب الملح في الماء » .

---

(١) قال في الترغيب : العضاه بكسر العين المهملة وبالضاد المعجمة وبعد الألف هاء ـ جمع عِضَاهة ، وهي شجرة الخمط ، وقيل : بل كل شجرة ذات شوك ، وقيل : مَا عظم منها أ هـ .

(٢) اللأواء بالهمز والمدّ هي شدة الضيق . ا هـ ترغيب .

وعن عبد الله بن عبّاد قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « أول من أشفـع له أهلُ المدينة ، ثم أهل مكة ، ثم أهل الطائف »(١) .

ومن أسباب شفاعته الخاصة كثرة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :

روى الترمذي وابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أولى الناس بي يوم القيامة ــ أي أحقهم بشفاعتي وبإكرامي ــ أكثرُهم عليّ صلاةً » .

وعن رويفع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن قال اللهم صلِّ على محمد وأنزله المقعد المقرّب عندك يوم القيامة وجبتْ له شفاعتي »(٢) .

والمراد هنا بالمقعد المقرّب : أعلى منازل الجنة، وهو مقام الوسيلة، فإنها أعلى منزلة في الجنة .

وروى الامام أحمد عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رجلا قال : يا رسول الله أرأيتَ إن جعلتُ صلاتي كلـّهـا عليك ؟ (أي جعلت دعائي كلّه صلاة عليك) فقال صلى الله عليه وسلم : « إذاً يكفيك الله تبارك وتعالى ما أهمّك من دنياك وآخرتك »(٣) .

---

(١) رواه البزار في مسنده وابن شاهين، وأخرجه ابن بكار من طريق أخرى، كما في شرح المواهب .

(٢) قال المنذري : رواه البزار والطبراني في الكبير والاوسط ، وبعض أسانيدهم حسن . ا هـ .
وقال في المواهب وشرحها قال ابن كثير : وإسناده حسن ولم يخرجوه ا هـ . أي لم يخرجه أصحاب السنن ونحوهم ، ولا يضر ذلك إسناده .

(٣) قال الحافظ المنذري : وإسناده جيد . ا هـ قلت : وهذا الحديث جاء بروايات أطول من هذه في سنن الترمذي مع تصحيح له ، والطبراني وتحسينه والحاكم .

وأخرج الطبراني بسند جيد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن صلى عليّ حين يصبح عشراً ، وحين يمسي عشراً : أدركته شفاعتي يوم القيامة » .

وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثروا الصلاة علي يوم الجمعة ، وليلة الجمعة ، فمن فعل ذلك كنت له شهيداً أو شافعاً يوم القيامة »(1).

* * *

(1) انظر الخصائص الكبرى .

شفاعات الأنبياء والملائكة والصدّيقين والعلماء والشهداء والصالحين

قال الله تعالى في الكفار : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » .

وفي مفهوم هذه الآية دلالة على أن هناك شفعاء يشفعون ، وأن المسلمين ينتفعون بشفاعتهم ، ولكن الذي يفتح باب الشفاعة للشفعاء ــ وهو شفيــع الشفعاء ــ هو : سيدنا محمــد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى الدارمي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا ، وأنا قائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وأنا شافعهم إذا حُبسوا ، وأنا مبشِّرهم إذا أيسوا ، ولواء الكرم بيدي ، ومفاتيح الجنة بيدي ، ولواء الحمد بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر ، يطوف عليَّ ألفُ خادم كأنهم اللؤلؤ المكنون » .

ورواه الترمذي والبيهقي وأبو يعلى كما في الخصائص الكبرى .

وجاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والبزار وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وفيه : فيقول صلى الله عليه وسلم : « أيْ ربِّ جعلتني سيِّد ولد آدم ولا فخر ، وأولَ من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر ، حتى إنه ليرد عليَّ الحوض أكثر ما بين صنعاء وأيلة ، ثم يقال : ادعوا الأنبياء فيجيء النبي

ومعه العصابة (أي الجماعة الكثيرة) والنبي معه الخمسة والستة ، والنبي ليس معه أحد ، فيشفعون ثم يقال : ادعوا الصديقين فيشفعون ، ثم يقال : ادعوا الشهداء فيشفعون فيمن أرادوا .. » الحديث كما في ترغيب المنذري .

وجاء في الحديث الطويل المتفق عليه وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين .. » الحديث .

وروى ابن ماجه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ليدخلنّ الجنة بشفاعة رجل ليس بنبيّ مثلُ الحيَّيْن ربيعة ومضر » فقال رجل : يا رسول الله وما ربيعة من مضر ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إنما أقولُ ما أُقوّل »(١) .

وقد ذكر في شرح الاحياء نقلا عن الحافظ فيما رواه في جزء أبي عمرو بن السماك وفيه : فكان المشيخة يرون أن ذلك الرجل هو عثمان ابن عفان قال : وإسناده حسن . اهـ .

وروى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من عدد مضر ، ويشفع الرجل في أهل بيته ، ويشفع على قدر عمله »(٢) .

---

(١) قال في الترغيب : رواه أحمد بإسناد جيد اهـ .

(٢) انظر شرح الاحياء للزبيدي .

وروى الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن من أمتي مَن يشفع للفئام (أي للجماعات والقبائل) ومنهم مَن يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للعُصبة ، ومنهم من يشفع للرجل ، حتى يدخلوا الجنة » . ورواه الامام أحمد .

وروى الترمذي وابن ماجه عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فاستظهره (أي أجاد حفظه) فأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه : أدخله الله الجنة وشفَّعه في عشرة من أهل بيته قد وجبت لهم النار » .

وروى ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُصَفُّ أهل النار فيمرُّ بهم أهل الجنة فيقول الرجل منهم (أي من أهل النار) يا فلان : أما تعرفني ؟ أنا الذي سقيتك شربة ، وقال بعضهم : أنا الذي وهبت لك وَضوءاً (أي ماء للوضوء) فيشفع له (أي ذلك المؤمن الصالح) فيدخله الله الجنة » .

قال في المرقاة : وعلى هذا القياس : من لقمةٍ وخرقة أو نوع إعانة أو جنس عطية ، ولو بشق تمرة ، أو كلمة طيبة ، فإن الغريق يتعلَّق بكل حشيش .

ثم قال : وفيه تحريض على الإحسان مع المسلمين لا سيما مع الصلحاء والمجالسة معهم ومحبتهم فإن محبتهم زين في الدنيا ونور في العقبى . اهـ .

وقد أوضح في «المرقاة»أن المراد بأهل النار هنا هم عصاة المؤمنين، فإنهم يُصفّون حتى يمرَّ بهم أهل الجنة من العلماء الأخيار والصلحاء الأبرار . قال وتكون هيئة العصاة على هيئة المساكين السائلين في طريق الأغنياء في هذه الدار .

★ ★ ★

العرض على ربّ العالمين

قال الله تعالى : « وعُرضوا على ربك صفّاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أوّل مرة ، بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً » .

والمعنى : أن العباد يُعرَضون على ربهم مصطفّين صفاً صفاً ويقال للكافرين المنكرين للحشر : « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » أي حُفاة عراة ليس معكم شيء مما كنتم تفتخرون به من الأموال والخدم والحشم « بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً » أي زعمتم وأنتم في الدنيا أن لن نجعل لكم وقتاً لحسابكم وسؤالكم .

روى الديلمي وابن منده ـ واللفظ له ـ عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى ينادي يوم القيامة : يا عبادي إني أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ، أحضروا حجتكم ويسّروا جوابكم فإنكم مسؤولون محاسبون ويقول سبحانه : يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » (١) .

قال الله تعالى : « يومئذ تُعرَضون لا تخفى منكم خافية » .

روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : حاسِبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا ، وزِنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أخف عليكم في الحساب غداً أن تحاسِبوا أنفسكم

---

(١) انظر شرح الاحياء وتفسير الآلوسي .

اليوم ، وتزيّنوا للعرض الأكبر : يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية » • أي فأحسنوا عملكم ، وأصلحوا سرائركم، وطهّروا نفوسكم من كل خبث وفساد ، لأنكم سوف تُعرضون على عالم السرّ وأخفى ، والتزيّن لـذلك العرض إنما يكون بلباس التقوى : تقوى القوالب والقلوب ، تقوى السرّ والعلانية ، التقوى في الخلوات والجلوات ، والتقوى في الجامع والطريق والشارع ، والتقوى عند الميزان ووراء القبّان ، والتقوى في الشرفات والنوافذ على الجيران وفي داخل البنيان•

قال العلامة الشيخ الشعراني رضي الله عنه : وأما العرض عـلى الله يوم القيامة فهو مثل عرض العساكر على الملِك ، فيوقَف العبد بين يدي ربه عزّ وجلّ كما يليق بجلاله ، ويقع السؤال بحسب ما يريد الله عزّ وجلّ بذلك العبد ، فياله من موقف يتساقط لحم الوجوه من شدة الخجل والحياء من الله عزّ وجلّ !! •

وجاء في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخِذ بيمينه وآخِذ بشماله » •

ففي العرضة الأولى يدافعون عن أنفسهم حتى إن الكافر يقول لم تبلّغْنا الأنبياء ، ويُحاجّون ويخاصمون •

قال الله تعالى : « يوم تأتي كل نفسٍ تجادل عن نفسها ، وتُوفّى كلّ نفس ما عملت وهم لا يظلمون » • فكل نفس تأتي يوم القيامة تدافع وتجادل عن نفسها ولا يهمها إلا نفسها ، فلا يهمها شأن غيرها من ولد ووالـد ، وتوفّى كل نفس أي تعطى وافياً كامـلا جـزاء عملها خيراً أو شراً «وهم لايظلمون» بزيادة العقاب ولا بنقص الثواب•

موقف الاختصام

قال الله تعالى : « ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : يخاصم الصادقُ الكاذبَ ، والمظلومُ الظالمَ ، والمهتدي الضالَّ ، والضعيف المستكبر.

وروى الامام أحمد عن عبد الله بن الزبير عن أبيه الزبير رضي الله عنهما قال : لما نزلت هذه السورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » قال الزبير رضي الله عنه : أيْ رسول الله أيُكرَّر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواطر الذنوب ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « نعم ليكرَّرنّ عليكم حتى يُؤدَّى الى كل ذي حقٍّ حقَّه » قال الزبير : والله إن الأمر لشديد . ورواه الترمذي وقال حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أول خصمين ـ أي أول متخاصمين ـ يوم القيامة جاران » .

قال الله تعالى : « ولو ترى إذِ الظالمون موقوفون عند ربهم يَرجع بعضُهم الى بعض القولَ يقول الذين استُضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استُضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين . وقال الذين استُضعفوا للذين استكبروا : بل مكرُ الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ، وأسرّوا الندامة لمّا رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون » .

فالمستَضعفون ــ وهــم الأتباع ــ والمستكبِرون ــ وهــم المتبوعون ــ في الضلال يقفون عند ربهم ويتراجعون القولَ فيما بينهم بالخصام والجدل العنيف ، وكلٌ منهم يُلقي التبعة على غيره ويدفــع الملامة عن نفسه ٠

يقول الأتباع الضعفاء للمتبوعين المستكبرين : لولا أنتم تدعوننا الى الكفــر وتضلّلوننا بزخارف الاقوال لكُنّا مؤمنــين بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، لكن أنتم صددتمونا عن الحق وزينتم لنا الباطل ٠

فيقول المستكبرون عن الإيمان والهــدى للمستضعفين : أنحن صددناكم عن الهدى الذي جاءت به الرسل واضحاً جلياً ثابتاً بالبراهين والأدلة ؟ بل كنتم مجرمين لاختياركم وإيثاركم الضلالَ على الهدى ، وقبولكم للضلال وإعراضكم عن الهدى الــذي جاءكم ، فما نحن كفّرناكم بل أنتم كفرتم بإرادتكم ٠

فيقول المستَضعَفون للمستكبرين : بل مكركم بنا في الليــل والنهار على وجه الاستمرار ٠ أي ماكان إجرامنا من جهتنا بل من جهة مكركم الدائب ليلاً ونهاراً ، وحملكم إيانا على الكفر بالله تعالى ، واتخاذ الأنداد ، وإلباسكم أمتعة التضليل والتسويل حتى كفّرتمونا، وحينذاك كلٌ من الطرفين أسرّ الندامة أي أضمرها ٠

وقيل : المراد أظهروها(١) وهــذا مبني على أن هذا الفعــل من

(١) وقد ذكر هذا القول عدة من المفسرين ومنهم الآلوسي حيث قال : وقيل: أسروا الندامة ، بمعنى أظهروها ، فإن « أسر » من الأضداد إذ الهمزة تصلح للاثبات وللسلب ، فمعنى أسره جعله سراً ، أو أزال سره ، ونظيره أشكيت ٠ ثم قال : وتعقب ابن عطية هذا القول بأنه لم يثبت قط في لغة أن أسر من الأضداد ٠ وأنت تعلم أن المثبت مقــدم على النافي فلا تغفل ٠ اهـ ٠

الأضداد أي : فصاروا كلهم نادمين على ما فعلوا :

ندم البغاة ولات ساعة مندمٍ والبغي مرتع مبتغيه وخيم

وفي المسند أيضاً عن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده إنه ليختصم حتى الشاتان فيمَ انتطحتا ؟ » .

وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاتين ينتطحان فقال : « أتدري فيمَ ينتطحان يا أبا ذر ؟ » قلت : لا، فقال صلى الله عليه وسلم: « لكن الله يدري وسيحكم بينهما » .

قال الحافظ ابن كثير : وقد روى ابن منده في كتاب الروح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : يختصم الناس يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد ، فتقول الروح للجسد : أنتَ فعلتَ ، ويقول الجسد : أنتِ أمرت وأنتِ سوّلت ، فيبعث الله تعالى ملكاً يفصل بينهما فيقول لهما : إن مثلكما كمثل رجل مُقعَد بصير والآخر ضرير ، دخلا بستاناً فقال المقعد للضرير : إني أرى هاهنا ثماراً ولكن لا أصِلُ إليها ، فقال له الضرير : إركبني فتناولها ، فأيهما المعتدي ؟ فيقولان : كلاهما . فيقول لهما الملك : فإنكما حكمتما على أنفسكما »

وروى الترمذي عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف من الأيدي : فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » .

ففي العرضة الأولى يدافعون عن أنفسهم حتى ان الكافر يقول لم تبلغنا الأنبياء ويحاجّون ويخاصمون .

قال الله تعالى : « يوم تأتي كلّ نفس تجادل عن نفسها وتوفّى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » .

فكل نفس تأتي يوم القيامة تدافع وتجادل عن نفسها ولا يهمّها شأن غيرها من ولد ووالد — إلا من أكرمه الله تعالى — وتوفى كل نفس أي تعطى وافياً كاملا جزاء عملها خيراً أو شراً وهم لا يظلمون بزيادة العقاب ولا بنقص الثواب .

وأما العرضة الثانية ففيها يعترفون ويعتذرون بمعاذير مختلفة ، فمن كان عذره صحيحاً قبله الله تعالى ، ومن كان عذره غير صحيح رده الله تعالى ، وذلك لأن الله تعالى يقبل العذر الصحيح كما جاء في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا أحد أحبّ إليه العذرُ من الله تعالى .. » الحديث .

وقد جاء في حديث صاحب البطاقة الذي رواه الترمذي وغيره أن الله تعالى ينشر له تسعةً وتسعين سجلاً كل سجل مدّ البصر ثم يقول له : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب . فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب .. » الحديث .

وأما قوله تعالى: « هذا يومُ لاينطقون، ولايؤذن لهم فيعتذرون»: فهذا يكون في بعض المواقف ، وذلك أن يوم القيامة هو يوم طويل ذو مواطن متعددة ، ومواقف كثيرة، ففي بعضها يتكلمون ويختصمون، وربما يحلف المشركون بالأيمان كذباً ، كما أخبر الله تعالى عنهم « قالوا واللهِ ربّنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم » الآية .

ثم يمرون على بعض المواقف فلا نُطْق ولا عذر ولا كلام ، وقد

جاء هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما في جوابه لابن الأزرق لما سأله عن ذلك[1] ٠

وفي العرضة الثالثة يكون تطاير الصحف وتفرّقها على أهلها بغاية السرعة كما سيأتي بيانه ٠

* * *

(١) انظر تفسير الحافظ عماد الدين ابن كثير والخطيب وغيرهما ٠

السؤال

قال تعالى : « فوربِّك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » .

روى الترمذي وغيره عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تُسألون عن : لا إله إلا الله »[1] والمعنى أنهم يُسألون عن لا إله إلا الله من حيث الاعتقاد بها ومن حيث القول ، ومن حيث العمل ، لأن الوفاء بلا إله إلا الله يقتضي ذلك كله .

وقال تعالى : « فلنسألنَّ الذين أُرسل إليهم ، ولنسألن المرسلين. فلنقصنَّ عليهم بعلمٍ وما كنا غائبين » .

وفي هذا الإخبار من الله تعالى المؤكد ـ عمَّا يُجريه سبحانه من السؤال : تنبيه للعباد أن يستعدوا للجواب ، وذلك أن الله تعالى سوف يسأل الأمم عن مواقفها مع رسلها ، وهل استجابوا لدعوتهم أم لا ؟ وهل أطاعوا ما جاءت به الرسل من عند الله تعالى أم لا ؟ وكيف كان حالهم مع رسلهم ؟ .

قال الله تعالى : « ويوم يناديهم فيقول : ماذا أجبتم المرسلين ؟ فعَميتْ عليهم الأنباء يومئذٍ فهم لا يتساءلون » .

فهو سبحانه يسأل عباده يوم القيامة عن التوحيد والإيمان بالله تعالى ، ويسألهم عن الإيمان بنبيِّهم المرسَل إليهم ، كما سُئلوا في

---

(1) عزاه الحافظ ابن كثير الى الترمذي وأبي يعلى الموصلي وابن جرير وابن أبي حاتم وعزاه الآلوسي في تفسيره الى الترمذي ثم قال وأخرجه البخاري في تاريخه من وجه آخر عن أنس موقوفاً . ا هـ .

قلت : والموقوف في مثل هذا حكمه كالمرفوع لأنه لامجال للرأي فيه كما هو المقرر في أصول الحديث .

قبورهم فقيل لأحدهم : مَنْ ربُّك ومن نبيك وما دينك ؟ فأما المؤمن فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأما الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري ، ولهـذا يأتي الكافر يوم القيامـة ولا جواب له حين يُسأل •

ولهذا قال تعالى في الكفار : « فعَمِيَتْ عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون » أي : فعميت عليهم الأخبار والأعـذار والحجج فهم لا يجيبون ولا يحتجّون ، ولا يسأل أحدهم الآخر لعله يلقنه الجواب ، بل أغلِق عليهم كل باب •

قال تعالى : « ومَنْ كان في هـذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً » • والمراد هنا عمى القلب والبصيرة لا عمى العـين الباصرة • وقال تعالى : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » والمعنى مَنْ كان في الدنيا أعمى القلب عن رؤية آيات الله وآلائـه وحقائق الإيمان به فهـو في الآخـرة أشدّ عمى وأضل سبيلا •

روى الطبراني وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما منكم من أحد إلا سيخلو اللهُ به فيقول : يا ابن آدم ما غرّكَ بي ؟ يا ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ يا ابن آدم ماذا أجبتَ المرسلين ؟ »(١) •

وهكـذا تُسأل العباد عن مواقفهـا مع رسلهـم صلوات الله تعالى عليهم أجمعين •

جاء في صحيح البخاري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « وليلقيَنَّ اللهَ أحدكم يومَ

(١) عزاه في الدر المنثور الى النسائي وابن المبارك في الزهد وابن مردويه وذكره الحافظ ابن كثير في مواضع من تفسيره •

يلقاه ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له فليقولن سبحانه : ألم أبعثْ إليك رسولا فبلَّغك ؟ فيقول العبد : بلى .. » الحديث . أي : فماذا عملتَ بما جاءك به رسولك صلى الله عليه وسلم . « فلنسألنّ الذين أُرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين » .

وهكذا يسأل الله المرسلين : هل بلَّغوا رسالات الله تعالى وأدّوا الأمانة ونصحوا الأمة .

ولاشكّ أن الرسل قد بلَّغت رسالات ربِّهم ، وأدّوا واجبهم على أكمل الوجوه ، ونصحوا الأمة أسعد نصح ، وأن الله تعالى يعلم ذلك كلّه ولا يخفى عليه شيء من ذلك ، ولكن في هذا السؤال والإتيان بالجواب إقامة حجة على المنكرين والمكذبين للمرسلين ، وإعلان للملأ الكبير هناك أنه لا عذر لمعتذر ، ولا حجة لمنكر ، لأن الرسالات الإلهية بلَّغتها الرسل ، وأقامت الحجج والبراهين على حقيِّتها وصدقها . ومن ثمّ لما خطب النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم حجة الوداع في ذلك الجمع العظيم والحفل الكبير نبّه الناس فقال : « أيُّها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون ؟ » قالوا كلهم : نشهد يا رسول الله أنك قد بلَّغتَ وأدّيتَ ونصحتَ . فقال صلى الله عليه وسلم ورفع إصبعه الى السماء : « اللهم اشهد اللهم اشهد » .

وكان صلى الله عليه وسلم يكثر في خطبه من قوله : « ألا هل بلّغت . اللهم اشهد » ولا سيما في خطبته يوم حجة الوداع . صلى الله عليه وسلم .

وفي هذا العالم ــ أي عالَم السؤال ــ تشهد الرسل أنهم قد بلَّغوا أممهم ، وتشهد هذه الأمة المحمدية على نبينا أفضل الصلاة والسلام للرسل قبلهم ، بالتبليغ ، ويكون الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم شهيداً على أمته المتّبعة بالعدالة والتزكية .

موقف شهادة هذه الأمة المحمدية على الناس قبلهم
وشهادة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على هذه الأمة

قال الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

وقد جاء في الأحاديث النبوية بيان المراد من هذه الآية الكريمة .

فقد روى البخاري وأصحاب السنن والإمام أحمد واللفظ له عن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلّغت ؟ فيقول : نعم . فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، وما أتانا من أحدٍ . فيقال لنوح : مَن يشهد لك ؟ فيقول : محمد صلى الله عليه وسلم وأمته . قال : فذلك قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً » – قال : والوسط العدل – . فتُدعَوْن فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم » .

يعني: أنه صلى الله عليه وسلم هو يزكّي أمته المتّبعين له ويعدّلهم ويشهد لهم بالثقة والعدالة حتى تقبل شهادتهم ، فلما ادّعى نوح عليه السلام أنه بلّغ ، طولب بالبيّنة ، وهي الشهود على دعواه ، فلما جيء بالشهود قيل لهم : مَن يزكيكم ويُعدّلكم فقالوا : يزكينا ويشهد لنا بالعدالة سيد العالمين وأكرم الأولين والآخرين على الله تعالى ، وقد استندت شهادة هذه الأمة المتبعة ، على إخبار رسولها صلى الله عليه وسلم عن ربه سبحانه الذي أنزل عليه القرآن ، وأخبره فيه أن نوحاً

وسائر الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم ، وهذا الخبر أقوى في الإثبات من رؤية العيان ، والى هذا نبَّه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الامام أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلّغكم هذا ـ أي نبيكم ـ فيقولون : لا .

فيقال له : هل بلَّغت قومك ؟ فيقول : نعم ، فيقال : مَن يشهد لك؟ فيقول محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، فيقال لهم ـ أي لأمة محمد: هل بلَّغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم ، فيقال ـ أي لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ـ : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلَّغوا . فذلك قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

وإنما كان خبر القرآن الكريم الذي جاء به رسولنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أقوى من العيان : لأن العيان وحده أحد الدليلين في إثبات الأمور إذا صح نظر المعايِن ولم ينقضه البرهان ، ولكن إذا تضافر الدليلان : العيان والبرهان على إثبات أمر ، فليس بعده توقف ولا تبيان ، بل حينذاك لا يختلف فيه اثنان .

ولا ريب أن حقيّة القرآن وثبوت أنه كلام الله تعالى : ذلك أمر ثابت بالبرهان والعيان ، كما أن حقيّة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته ذلك ثابت بالبرهان وبالعيان . أما العيان فهي معجـزاته الظاهرة في السماوات والأرض والأحجـار والاشجـار ، والظاهرة في خَلْقه صلى الله عليه وسلم والظاهرة في خُلُقه الشريف صلى الله عليه وسلم .

أما البرهان العقلي فهناك براهين لا تكاد تحصى نبَّه إليها القرآن

الكريم قال تعالى : « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به ، فقد لبثتُ فيكم عُمُراً من قبله ، أفلا تعقلون » .

ومعنى ذلك أن مَن تعقَّل في أمر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أيقن أنه حقاً نبي الله ورسول الله لا يحتمل أمره غير ذلك ، فإنه صلى الله عليه وسلم نشأ أمياً لم يتعلم القراءة والكتابة ، ولا استمع الى عالم أو معلّم ، بل كان ينعزل عن البشر وقد رعى الغنم أياماً خالياً بنفسه مع ربه ، ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، وهكذا مضت عليه أربعون سنة لم يأت بآية واحدة ، ولم يقرأ عليهم شيئاً من القرآن ، ثم بعد ذلك على تمام الاربعين سنة يأتيهم بهذا القرآن المعجز ويتلوه على الناس على أسلوب خاص ٍّ غير معروف عند قومه ، ولا بين كافة الناس ويأتي بهذا القرآن الجامع لأنواع العلوم التي لا تحصى ، والمخبر عن العوالم التي لا تستقصى ، والمبين لجميع الأحكام الشرعية المشتملة على ما فيه صلاح الدنيا وسعادة الآخرة على أكمل نظام وأبدع إحكام . قال تعالى : « ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » الآية .

فعند ذلك لا ينبغي أن يختلف اثنان بعد البرهان والعيان الدالين على صدق هذا الرسول الكريم سيد ولد عدنان صلى الله عليه وسلم تسليماً .

ثم إن ذلك المنصب ـــ وهو منصب شهادة هذه الأمة على الأمم قبلها ـــ هو منصب عالٍ شريف ، خصّت به هذه الأمة المحمدية المتبعة لرسولها صلى الله عليه وسلم ، جعلنا الله تعالى منهم . ولهذا تقف هؤلاء الشهود يوم القيامة في مكان عالٍ مشرف على الخلائق كلهم .

روى ابن مردويه وابن أبي حاتم عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنا وأمتي يوم القيامة على كَوْم مشرفين على الخلائق ، وما من الناس أحد إلا ودّ أنه منا ، وما من

نبيٌّ كذَّبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلَّغ رسالة ربِّه عزّ وجلّ»(١).

ولما كان هذا المنصب شريفاً منيفاً كان حقيقاً بأن يُدعى به ويُسأل من الله تعالى نيله . قال تعالى : « وإذا سمعوا ما أُنزل الى الرسول ترَى أعينَهم تفيض من الدمع ممَّا عرفوا من الحق يقولون : ربّنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : أي فاكتبنا مع محمد صلى الله عليه وسلم وأمته وهم الشاهدون الذين يشهدون لنبيهم أنه قد بلَّغ ، ويشهدون للرسل أنهم قد بلَّغوا (٢) .

* * *

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير عند الآية .

(٢) قال ابن كثير : رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصحح إسناده . اهـ .

موقف شهادة الرسل على أممهم

قال الله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ؟ يومئذ يودّ الذين كفروا وعَصَوا الرسول لو تُسوَّى بهم الأرض ولا يكتمون اللهَ حديثاً » .

يخبر الله سبحانه في هذه الآية الكريمة عن هول يوم القيامة وشدة أمره ، وكيف الحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد يشهد عليها وهو نبيها المبعوث فيها ، كما قال تعالى : « ويوم نبعثُ في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم ، وجئنا بك شهيداً على هؤلاء » الآية .

روى البخاري والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إقرأ عليَّ القرآن » قلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : « نعم ، فإني أحبُّ أن أسمعه من غيري » قال ابن مسعود : فقرأت سورة النساء حتى انتهيت الى هذه الآية : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » الآية فقال صلى الله عليه وسلم : « حسبُك الآن » فإذا عيناه صلى الله عليه وسلم تذرفان . أي : تدمعان .

فالمشار إليه في قوله تعالى : « وجئنا بك على هؤلاء » هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم « شهيداً » قال العلامة النسفي : أي : شاهداً على مَن آمن بالإيمان ، وعلى من كفر بالكفر ، وعلى مَن نافق بالنفاق . اهـ .

وهكذا الرسل صلوات الله تعالى عليهم يشهدون لمن آمن بالإيمان ، وعلى مَن كفر بالكفر . وأما قوله تعالى : « يوم يجمع الله الرسلَ فيقول : ماذا أجِبتم؟ قالوا: لاعلم لنا إنك أنت علاّم الغيوب».

فهذه الآية لا تتعارض مع الآيات السابقة التي تثبت جواب الرسل حين يسألهم الله تعالى عن أممهم وتثبت شهادة الرسل على أممهم ، ولدفع التعارض وجوه :

أولاً : إن قوله تعالى للرسل : « ماذا أجبتم » أي : ما الذي أجابتكم به أممكم حين دعوتموهم إلى الإيمان « قالوا : لا علم لنا » أي : لا علم لنا بإخلاصهم ، وما أخفوه في نفوسهم يدل على ذلك تمام الآية « إنك أنت علاّم الغيوب » أي : ومن جملة الغيوب ما أضمروه في خفايا القلوب ، والمعنى : لا علم لنا كعلمك فيهم ، لأنك تعلم ما أضمروه وما أظهروه ، ونحن لا نعلم إلا ما أظهروه ، وأما ما أخفوه في نفوسهم فلا علم لنا بذلك إلا ما علمتنا من ذلك .

ثانياً : قولهم : « لا علم لنا » أي : لا علم لنا بما أحدثوا بعدنا ، فإننا نعلم منهم ما كان من أفعالهم وأقوالهم في حياتنا ، ولا نعلم ما كان منهم بعد وفاتنا إلا ما علمتنا ، ويكون من هذا ما أخبر الله تعالى به عن عيسى عليه السلام بقوله : « وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم ، فلما توفيتَني كنتَ أنتَ الرقيبَ عليهم » .

ثالثاً ـ إن الآخرة فيها مواقف متعددة ، فلما سئلوا في بعض المواقف الأولى سئلوا عن أممهم ، فأجابوا ، واستُشهدوا فشَهدوا بما علموا منهم ، وكان هذا السؤال لكل رسول مع أمته ، كما يدل عليه قوله سبحانه : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » ثم في موقف آخر سئلوا فلم يجيبوا ، بل فوّضوا علم ذلك الى الله تعالى أدباً مع الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية ، وكان هذا في موقف خاص جُمعت فيه جميع الرسل وحدهم دون أممهم ، كما يدل عليه قوله سبحانه « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجِبتم »(١) .

---

(١) انظر جميع ذلك في تفسير النسفي والخازن وغيرهما .

السؤال عن التكاليف العملية

وكما أن العباد يسألون يوم القيامة عن قضايا الإيمان كما تقدم فهم يسألون أيضاً عما كلفوا به من الاعمال ، وأعظمها الفرائض وأهمها الصلاة .

جاء عن قَبيصة بن حُرَيث رضي الله عنه قال : قدمتُ المدينة فقلت : اللهم يسِّرْ لي جليساً صالحاً يحدثني بحديث سمعه من رسول اللهصلى اللهعليهوسلم لعلّ الله تعالى ينفعني به،فجلست الى أبي هريرةرضي الله عنه فقلت : إني سألت الله تعالى أن يرزقني جليساً صالحاً ، فقال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أولَ ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله الصلاة ، فإن صلحتْ فقد أفلح وأنجح ، وإن فسدت فقد خاب وخسر ، وإن انتقص من فريضته شيئاً قال الربّ تبارك وتعالى للملائكة : انظروا هل لعبدي من تطوّع (أي نوافل فوق الفرائض) فيكمّل بها ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك » رواه الترمذي والنسائي وغيرهما .

وفي هذا بيان مسؤولية العبد عن الفروض التي فرضها الله تعالى عليه ، ويُبدأ بالسؤال عن أهمها وأعظمها وهو الصلاة ، ثم سائر الأعمال التكليفية ، وقد بين صلى الله عليه وسلم أن النوافل تكمل نقص الفرائض وتجبر كسرها وتسد ثغورها ، ولذلك ينبغي المواظبة على السنن الصلاتية القبلية والبعدية ونحوها من التطوعات ، ليكمل بها فروضه ، ولا يكون من أتى بالنوافل متنفلا إلا إذا كملت له فرائضه من كل جانب ، وهؤلاء قليل ما هم .

وأما مادام صاحب النافلة محتاجاً إليها في تكميل فروضه فلا نافلةَ ــ أي زيادة ــ عنده فإن فضلة الثوب مازادت على الثوب بعد

خياطته ، وأما إذا كانت القطعة يحتاجها الخياط لتكميل الأكمام أو الظهر أو الجوانب فليست تلك القطعة فضلة ، بل هي من تمام الثوب ، فاعتبر وتبصَّر .

سؤال الانسان عن أهله وعمَّا استرعاه الله تعالى

قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وَقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غِلاظ شِداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » .

روى ابن حبان في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله سائل كلّ راعٍ عما استرعاه : حفظ أم ضيَّع ؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » . أي : هل أدى واجبه الديني نحوهم وأحسن رعايتهم وعشرتهم أم أساء ؟

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « كلكم راع ومسؤول عن رعيته : الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته ، والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته » .

ومن هنا يجب على المرأة أن تعلم أن عليها مسؤولية في رعايتها لبيت زوجها ، وفي تربيتها لأولادها ، وفي قيامها في خدمة زوجها وبيتها ، فلا يجوز لها أن تقصِّر ولا أن تسرف في مال زوجها ، بل ولا تتصدَّق من ماله إلا بإذنه ، ولا تخرج إلا باذنه ، لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن المرأة إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره لعنها كل ملك في السماء وكل شيء مرَّت عليه غير الجن والإنس » رواه الطبراني بإسناد الثقات .

السؤال عن السمع والبصر والفؤاد

قال الله تعالى : « ولا تَقْفُ ما ليس لكَ به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كلٌ أولئك كان عنه مسؤولاً » .

نهى الله الانسان أن يتّبع ما ليس له به علم بأن يتبع الأوهام والظنون مما لا دليل فيه يُثبت العلم .

فمعنى « ولا تقف ما ليس لك به علم » أي لا تتبع ما لم تعلم فلا تقل رأيتُ وما رأيت ! ولا تقل سمعتُ والحال أنت ما سمعتَ ! ولا تقل علمتُ والحال أنت لم تعلم ! تبني ذلك كله على توهم وتظنّن .

كما أنك لا ترمِ أحداً بما ليس لك به علم من دليل أو بينة تثبت ذلك « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » .

لما نهى سبحانه عن اتباع ما ليس للانسان به علم من مسموعات ومبصَرات أو معلومات أو تصديقات قلبية ونحو ذلك بين أن هناك سؤالا عن السمع والبصر والفؤاد .

وذلك أن الانسان يُسأل عن سمعه وبصره وفؤاده أين صرف ذلك ، والى أي جهة وجهها ، هل تصرّف بسمعه وفؤاده فيما أحلّ الله تعالى ! أم فيما حرم الله ، فيُقال للانسان : لمَ سمعتَ مالا يحلّ لك سماعه ؟ ولمَ نظرت الى مالا يحلّ لك النظر إليه ؟ ولم عزمت بقلبك على مالا يحل لك العزم عليه ؟ ولم تعلّق قلبك بما لا يحل لك شرعاً ؟ ولم أحببتَ بقلبك ما كرهه الله تعالى ؟ ولم كرهت بقلبك مايحبه الله تعالى ؟ ولمَ أبغضتَ ما يرضاه الله تعالى ؟ ولم رضيت بما يُغضب الله تعالى ؟ .

وهكذا يُسأل الانسان عن جميع تصرفاته وتقلباته السمعية والبصرية وعن جميع تأثراته القلبية : بالتصديق والإنكار ، بالحب والبغض ، والرضا والغضب ، والاستحسان والكراهية ، والاستكبار والاستصغار ، وجميع ماهنالك من أعمال القلوب وتأثراتها ولذلك جاء ذكر القلب هنا بالفؤاد باعتبار أنه موضع الانفعال والتأثر .

فليتق الانسان ربّه في سمعه وبصره وفؤاده ، وليعلم أن كل ما يمرّ عليه سمعه وبصره وفؤاده ويتوجّه إليه فهو مسؤول عنه ، فإن كان في الخير أُجِر ، وإن كان في الشر خَسِر .

روى الترمذي عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله تعالى : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً ، وسخّرتُ لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتربع(١) وفي رواية لصحيح مسلم : ترتع ، (أي تتنعم بالمأكل والمشرب) فكنتَ تظن أنك ملاقيّ يومَك هذا ؟ (أي هل كنت تعتقد أنك سوف تلقاني في هذا اليوم يوم القيامة) قال : فيقول العبد (أي الكافر) : لا . فيقول الله تعالى له : اليوم أنساكَ كما نسيتني » . أي : اليوم أتركك في العذاب كما تركتَ في الدنيا شريعتي وديني ولم تؤمن بلقائي .

وروى أصحاب السنن عن شَكَل بن حُمَيد رضي الله عنه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : يا نبيّ الله علّمني تعويذاً أتعوّذ به . قال : فأخذ بيدي ثم قال : « قل : اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري ، وشر لساني ، وشر قلبي وشر منيّي » قال : فحفظتها .

(١) وفي رواية « تربّع » قال في النهاية : أي : تأخذ ربع الغنيمة . يقال : ربّعت القوم أربعهم إذا أخذت ربع أموالهم مثل عشّرتهم . يريد : ألم أجعلك رئيساً مطاعاً ، لأن الملك كان يأخذ الربع من الغنيمة في الجاهلية ويسمى ذلك الربع : المرباع . اهـ .

السؤال عن العمر والعلم والمال والجسم والشباب

روى الامام الترمذي وغيره عن أبي بَرزة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيمَ أفناه ، وعن علمه ما عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه ؟ » .

قال الحافظ المنذري : رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، ورواه البيهقي وغيره من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع : عن عمره فيمَ أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن خمس : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وما عمل فيما علم » .

قال الحافظ المنذري : رواه الترمذي أيضاً والبيهقي ، وقال الترمذي : حديث غريب من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم . اهـ .

فلا تزول قدما العبد يوم القيامة عن موقف السؤال ولا يبرح مكانه حتى يُسأل عن عمره المقدَّر له فيم أفناه وصرفه : أفي طاعة الله تعالى ورسوله أم في المعصية ؟ وفي الخير أم في الشر ؟ وهل ربح

عمره فشغله في الخير والتقى والبرّ ؟ أم خسره فأضاعه في الشر والفساد والبغي ٠

قال الله تعالى : « والعصر ٠ إن الانسان لفي خسر ٠ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصَوا بالحقّ وتواصَوا بالصبر » ٠

فلقد أقسم الله تعالى بالعصر أي : الدهر المشتمل على عمر كل ذي عمر ، أقسم بذلك على أن الانسان لفي خسر أي إن كل إنسان لفي خسرٍ لعمره الداخل في طيّ العصر ، ولم يخرج من تلك الخسارة لرأس ماله الذي هو عمره ويربح الربح العظيم إلا الذين آمنوا أي اعتقدوا وصدّقوا بما يجب الإيمان به ، وبرهنوا على صدق إيمانهم بالعمل الصالح فعملوا الصالحات التي أمر الله تعالى بها « وتواصوا بالحق » أي تناصحوا فيما بينهم ونهض بعضهم بهمة الآخر نحو فعل الحق واتباعه ، والبعد عن الباطل وإغوائه ٠

«وتواصوا بالصبر » على عبادة الله تعالى وأوامره ، قال تعالى : « واصطبر لعبادته » ٠ وقال تعالى : « وأْمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » الآية ٠ أي أنت اصطبر على الصلاة ، وأمسك نفسك عليها ، بأن تؤديها في أوقاتها ومطمئناً في أعمالها « وتواصوا بالصبر » على ترك المناهي التي نهى الله تعالى عنها فإنها تحتاج الى إمساك النفس عنها٠ « وتواصوا بالصبر » على البلاء والمحن التي تعتري المؤمنين ٠ ونسأل الله تعالى العافية ٠

فما ربح عمره واستثمره ونال خير عمره وبرّه إلا الانسان المتصف بهذه الصفات الأربعة : الإيمان ،والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ٠ فهو قائم بحقوق الله تعالى وقائم بحقوق خلق الله تعالى ٠

روى الطبراني بإسناده عن عبد الله بن حصين قال : كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر الى آخرها ثـم يسلّم أحدهما على الآخر .

وفي هذا تذكير بعضهم لبعض بالنصح والتواصي بالحق ، ولذلك قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : لو تدبّر الناس هـذه السورة لوسِعَتْهم .

وهكذا يُسأل عن علمه ما عمل به ، والناس في العلم على مراتب ، فكلٌ يُسأل على حسب ما عنده . وروى البيهقي عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول : إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي يا عويمر فأقول لبّيك ربي ، فيقول : ما عملتَ فيما علمتَ ؟ .

وروى ابن عساكر عن أبي الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « كيف أنت يا عويمر إذا قيل لك يوم القيامة أعلمتَ أم جهلت ؟ فإن قلتَ : علمتُ ، قيل لك : فما عملت فيما علمت ، وإن قلتَ جهلتُ قيل لك : فما كان عذرك فيما جهلت ألا تعلمت ! » .

ويُسأل الانسان عن ماله من أين اكتسبه أي حَصَلَ عليه وجمعه ، أكان ذلك من طريق شرعي وبيع وشراء وعقود صحيحة أم من طريق غير شرعي ؟ وفيم أنفقه وصَرَفه ، هل كان ذلك في مصرف شرعه الله تعالى أم غير مشروع ولو كان شيئاً قليلا ، فإنه يُسأل عنه هل كان ما أنفقه في طريق شرعي كالإعطاء للفقراء والمساعدة في الخيرات والمبرات أم في سبيل الشهوات والمحرمات والملذات ؟ .

ويُسأل الانسان عن جسمه فيم أبلاه ، فهذا الجسم وما أودع الله تعالى فيه من القوى فيمَ صرفها وأتعبها ، هل صرف تلك العافية والقوى الجسمية وتلك الأعضاء البدنية صرفها وأتعبها فيما يقربه الى الله تعالى وينال به سعادة الدنيا والآخرة ؟ أمْ أنه صرف ذلك في الشهوات المحرمة ، والأهواء النفسية الباطلة ، حتى تعب جسمه ووهن عظمه وخارت قواه بسبب فسقه وهتكه وانتهاكه لما حرم الله تعالى عليه .

اللهم استعمل أجسادنا في طاعتك ، وأشهِد قلوبنا أنوار تجلياتك ، وأجِلْ أفكارنا وعقولنا في آياتك وآلائك . آمين .



السؤال عن النعيم

قال الله تعالى : « ثم لتسألنّ يومئذٍ عن النعيم » .

إن الله تعالى سوف يسأل الانسان عن النعيم الذي مرّ عليه في الدنيا ونَعِم به وتلذّذ من صحة البدن ولذة الشراب والماء البارد ، ولذة المطعم والمأكل ، ولذة الظلال الباردة ، ومتعة النظر الى النّضار والخَضار وغير ذلك .

فيسأل الكافر عن ذلك سؤال تعنيف وتوبيخ وتحقير ، لأنه كفر تلك النعم ، ويسأل المؤمن عن ذلك سؤال تلطيف وتشريف وتذكير ، لأنه شكرها .

روى الترمذي وحسنه عن الزبير بن العوام رضي الله عنه أنه قال : لما نزلت : « ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم » قال الزبير : يا رسول الله ، وأيّ نعيم نسأل عنه وإنما هو الأسودان التمر والماء ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أما إنه سيكون » . يعني سيكون السؤال عن التمر والماء وغيرهما من ألوان الأطعمة والأشربة .

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة أن يقال له :ألم نصحّ لك جسمك ونرويك من الماء البارد ؟ » .

وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال لهما صلى الله عليه وسلم : « ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ » فقالا : الجوع يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : « وأنا والذي نفسي

بيده لأخرجني الذي أخرجكما، فقوموا» فقاموا معه فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أين فلان ؟ » قالت : ذهب يستعذب لنا الماء ، إذ جاء الأنصاري فنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ثم قال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرمُ أضيافاً مني .

قال : فانطلق فجاءهم بعِذْقٍ فيه بُسْر وتمر ورطب فقال : كلوا ، وأخذ المدية (أي السكين) ليذبح شاة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكَ والحلوبَ » أي لا تذبح شاة حلوباً ، فذبح لهم شاة غير حلوب ، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العِذْق وشربوا، فلما شبعوا ورَوُوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : « والذي نفسي بيده لتُسألنّ عن هذا النعيم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم » .

وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : « ثم لتُسألنّ يومئذ عن النعيم » قال : « الأمن والصحة » .

وروى أيضاً بإسناده عن زيد بن أسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : « ثم لتُسألنّ يومئذ عن النعيم » يعني : شبع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن ، واعتدال الخَلْق ولذة النوم .

وفي هذا تنبيه للانسان الى الاهتمام بشكر نعم الله تعالى ، وأن يرعى نعم الله تعالى ويصرفها فيما يرضيه سبحانه ، ويتخذها عوناً له على طاعة ربه ، ولا يكفر نعم الله تعالى ويصرفها في الشهوات المحرمة ، وفي المعاصي التي نهى الله تعالى عنها ، فإن ذلك يعرضها الى الهلاك والزوال ، وسوف يشدَّد عليه في السؤال عنها .

إذا كنتَ في نعمةٍ فارْعَها | فإن المعاصي تُزيل النعمْ
وحُطْها بطاعة ربِّ العباد | فربُّ العباد سريع النقم
وإياكَ والظلمَ مهما استطع | ت فظلم العباد شديد الوخم
وسافرْ بقلبك بين الورى | لتبصر آثار مَنْ قد ظَلم
فتلك مساكنهم بعدهم | شهود عليهم ولا تتّهم
فكم تركوا من جنان ومن | قصور وأجرى عليهم أُطُم
صَلُوا بالجحيم وفات النعيم | وكان الذي نالهم كالحُلُم

* * *

السؤال عن بقية الآلاء والنعم المالية وغيرها

إن الله تعالى سوف يسأل العبد يوم القيامة عما أنعم عليه به من أنواع النعم : السمعية والبصرية ، والعقلية والبدنية ، والصحة والقوة ، والمُتَع النفسية واللذائذ الجسمية وغير ذلك كما تقدم .

كذلك يُسأل عما خوّله الله تعالى من الأموال، على مختلف أنواعها .

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يُجاء بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَج(١) فيوقف بين يدي الله تعالى فيقول الله تعالى له : أعطيتك وخوّلتك وأنعمت عليك فماذا صنعتَ ؟ فيقول : يا ربِّ جمعتُه وثمّرته وتركته أكثر ما كان ، فارجعني آتك به . فيقول الله تعالى : أرني ما قدمت . فيقول : رب جمعته وثمّرته وتركته أكثر ما كان ، فارجعني آتك به . فإذا عبد لم يقدّم خيراً . فيُمضى به الى النار » .

كما أنه يسأله عن نعمة الزواج والوجاهة بين الناس ، وجميع ما خوّله من النعم والأسباب والمظاهر والمفاخر .

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل تضارّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة ؟ » قالوا : لا . قال : « هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة ؟ »

---

(١) البَذَج : هو أضعف ما يكون من الحملان . أي : الصغار من أولاد الضأن .

قالوا : لا • قال : « فوالذي نفسي بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما » •

قال صلى الله عليه وسلم : « فيلقى العبد ربه فيقول الله تعالى : أي فُلْ (أي يافلان) ألَمْ أكرِمْكَ وأسوِّدْكَ (أي ألم أجعلك سيداً في أهلك أو قومك) وأزَوِّجْك وأسخر لك الخيل والإبل وأتركك ترأسُ وتربع ؟

فيقول العبد : بلى : فيقول الله تعالى : أظننتَ أنك ملاقيَّ ؟ (أي هل كنت في الدنيا تعتقد أنك تلقاني في يومك هذا) •

فيقول (أي العبد الكافر) : لا • فيقول سبحانه : فاليوم أنساكَ (أي أتركك في العذاب) كما نسيتَني •

ثم يلقى الثاني فيقول : أي فُلْ (أي يا فلان) ألم أكرمكَ وأسوِّدك وأزوِّجك وأسخر لك الخيل والإبل وأتركك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا ربِّ ، فيقول ــ أي الله تعالى ــ : أفظننتَ أنك ملاقيَّ ؟ فيقول : لا • فيقول الله تعالى : فإني أنساك كما نسيتَني •

ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول (أي والقائل منافق) : يا ربِّ آمنتُ بك وبكتابك ورسلك وصليتُ وصمت وتصدقت • ويثني بخير ما استطاع (أي : ويدعي أنه عمل بما أمر الله تعالى به وأدى حقوق تلك النعم واستعملها في مرضاة الله تعالى ولكنها دعوى كاذبة) فيقول الله تعالى : أهاهنا مَن يشهد لك ؟ فيقول : لا • فيقول سبحانه وتعالى : الآن نبعث عليك شاهدنا • ويتفكر في نفسه : مَنْ الذي يشهد عليه ، فيُختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي • فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله • وذلك ليُعذِر من نفسه • وذلك المنافق الذي سخط الله تعالى عليه » •

وفي هذا تنبيه للمسلم الى أن يهتم بشكر نعمة الله عليه ، وأن يرعاها حقوقها ، وأن يصرفها في طاعته تعالى ومرضاته ، ويتخذها عوناً له على دينه وعبادته وآخرته، ولايكفر نعم الله تعالى ولاينشغل بها عن عبادة الله تعالى ، ولا يصرفها في الشهوات المحرّمة بأن يتقوّى بها على معصية الله تعالى ، فإنه مسئول عنها وعن حقوقها وعن شكرها « وسيجزي الله الشاكرين » .

ولقد كان سيد الشاكرن بل سيّد كل شاكر وشكور بل الذي نال أعلى وأسمى مقام في الشكر سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم ، يدعو وراء الصلوات المكتوبة ويُسمع الصحابة تعليماً لهم فيقول :

« اللهم إني أسألك الثباتَ في الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك لساناً صادقاً ، وقلباً سليماً ، وأسألك شكر نعمتك ، وحسن عبادتك ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شرّ ما تعلم ، وأستغفرك مما تعلم ، وأنت علاّم الغيوب » رواه الترمذي .

* * *

سؤال الانسان عن نيته
ومراده من الأعمال الصالحة

إن في الآخرة موقفاً يسأل فيه الانسان عما نواه وأراده من الأعمال الصالحة المشروعة : هل كان في ذلك العمل مخلصاً لله تعالى ، مبتغياً مرضاة الله تعالى ورضوانه ، أم كان مقصوده من ذلك العمل الرياء ، أو أن يقال عنه إنه صالح أو منفق أو عابد أو نحو ذلك ؟ .

قال الله تعالى : « مَن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفِّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخَسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية في الذين يعملون عمل الآخرة لنيل الدنيا . اهـ .

روى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الناس يقضى يومَ القيامة عليه : رجل استُشهد فأُتيَ به فعرّفه نعمَه فعرفها قال:فما عملتَ فيها؟ قال:قاتلتُ فيك حتى استشهدت . قال الله له : كذبتَ ، ولكنك قاتلتَ لأن يقال : هو جريء ، فقد قيل ، ثم أُمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ؛ ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن ، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : تعلمتُ العلم وعلمته وقرأتُ فيك (يارب) القرآن ، قال : كذبتَ ، ولكنك تعلّمتَ ليقال عالِم ، وقرأتَ القرآن ليقال هو قارىء ، فقد قيل ، ثم أمِر به فسُحب على

وجهه حتى ألقي في النار ؛ ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأُتي به فعرَّفه نعمه ــ سبحانه ــ فعرفها قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : ما تركتُ من سبيل تحبُّ أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال الله تعالى له : كذبتَ ، ولكنكَ أنفقت ليقال هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار » .

قال الحافظ المنذري : رواه مسلم والنسائي ، ورواه الترمذي وحسنه وابن حبان في صحيحه . اهـ .

سؤال الواعظين والخطباء عما أرادوه من وعظهم وخطبهم

روى ابن أبي الدنيا والبيهقي مرسلا بإسنادٍ جيد عن مالك بن دينار عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما من عبدٍ يخطب خُطبة إلا الله عز وجل سائلُه عنها ــ أظنه قال : ما أراد بها ؟ » قال جعفر : فكان مالك بن دينار رضي الله عنه إذا حدَّث بهذا الحديث بكى حتى ينقطع ثم يقول: تحسَبون أن عيني تقر بكلامي عليكم وأنا أعلم أن الله عز وجل سائلي عنه يومَ القيامة ما أردتَ به ؟

ولذلك أثنى الله تعالى على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله سبحانه : « محمَّد رسول الله ، والذين معه أشِداءُ على الكفار ، رحماءُ بينهم ، تراهم ركَّعاً سجَّداً ، يبتغون فضلا من الله ورضواناً » . الآيــة .

فمدحهم سبحانه بالتراحم بينهم ثم بكثرة أعمالهم وتقرباتهم الى ربهم بالعبادات وأهمها وأفضلها الصلاة فقال سبحانه : « تراهم ركعاً سجداً » يعني أنهم من كثرة صلواتهم وتنفلاتهم حيثما نظرتَ إليهم

أيها العاقل تراهم ركعاً سجداً ، ولما مدحهم بكثرة عباداتهم مدحهم بالإخلاص في عباداتهم وذلك أنهم يبتغون بتلك الركعات والسجدات فضلا من الله ورضواناً فلا رياء ولا سمعة ولا كبر •

وأما قوله تعالى : « فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جانٌ » : فهذه الآية لا تختلف مع قوله تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » وقوله : « وقِفوهم إنهم مسئولون » ، لأن يوم القيامة يوم طويل ، وفيه مواقف ومواطن متعددة ، فيُسألون في مواطن ، ولا يُسألون في موطن آخر •

أو: المراد بقوله تعالى: « فيومئذ لايُسأل عن ذنبه إنس ولاجانٌ » أنهم لا يُسألون سؤال استعلام أي لا يُسألون عن ذنوبهم لتُعلَم من جِهتهم ، لأن الله تعالى قد علمها جميعها ، وكتبها الحفظة عليهم ، ولكنهم يُسألون للتوبيخ والتعنيف والزجر •

أو : المراد لا تَسأل الملائكةُ المجرمين عن ذنوبهم ، إذ لا حاجة إلى سؤالهم عنها لأنهم يُعرفون بسيماهم ، بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية : « فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان • يُعرف المجرمون بسيماهم » أي : بسواد وجوههم وزُرقة عيونهم « فيؤخذ بالنواصي والأقدام » أي : تجعل أقدامهم مضمومة الى نواصيهم ثم يُلقون في النار ، نعوذ بالله العظيم من ذلك •

* * *

أخـــذ الكتب

قال الله تعالى : « يا أيها الانسان إنك كادح » أي جاهد في عملك « إلى ربك » ـ أي الى لقاء ربك بعد الموت ـ « كدحاً فملاقيه » أي : فأنت ملاقٍ ربك فيجزيك على كدحك في الدنيا : إنْ كان خيراً فخير ، وإن كان شراً فشر .

وقال الله تعالى : « فأما مَن أوتي كتابه بيمينه فسوف يُحاسب حساباً يسيراً . وينقلب الى أهله مسروراً ، وأما مَن أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويَصلى سعيراً . إنه كان في أهله مسروراً . إنه ظنّ أن لن يحور . بلى إن ربه كان به بصيراً » .

فصاحب كتاب اليمين حسابه يسير ـ وهو العَرْض، كما سيأتي ـ وينقلب إلى أهله أي : أهل الإيمان والحور العين في الجنان (مسروراً) فرحاً مستبشراً بحاله .

والذي أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً : يدعو بالهلاك والموت ، ولكن لا موت بعدُ « إنه كان » في الدنيا « في أهله مسرورا » بسبب اتباع هواه وركوبه الشهوات المحرمة « إنه ظنّ » حين كان في الدنيا يفسق ويفجر « أن لن يحور » أي ظن أنه لن يرجع إلينا ولن نبعثه بعد الموت « بلى » أي ليس الأمر كذلك « إن ربه كان به » بأعماله التي عملها في الدنيا « بصيراً » لا يخفى عليه شيء منها فلا بدّ أن يرجع ويُجازى عليها بعد ما يُسأل عنها ويحاسب عليها ، فليس الأمر عبثاً ولا لعباً بل هو حق .

وقد أخبر الله سبحانه عن حال العباد عند أخذهم كتبهم ، وفيها جِلاءاتهم ، فكتبُهم : فيها جِلاء عما قدموه ، وتتيجة ما حصّلوه في الدنيا ، فهم بعد أخذها ما بين فرِح مستبشر مسرور ، وما بين حزين كئيب موتور ، يدعو بالويل والثبور .

قال تعالى : « فأما مَنْ أوتيَ كتابه بيمينه فيقول : هاؤُمُ اقرءوا كتابيَه » يعني أنه لمّا أعطي كتابه بيمينه وبلغ من السرور غايته وأيقن أنه من أهل الجنة أحب أن يُظهر ذلك لأحبابه وأصحابه وأهله فقال : تعالَوا اقرءُوا كتابيَه وانظروا ما فيه من البشائر والمسرات « إني ظننت أني ملاقٍ حسابيَه » أي كنت في الدنيا أعتقد أني سأحاسب في الآخرة، وكنت أخشى نتيجة الحساب ، فالآن قد ذهب الخوف وجاء الأمان والاطمئنان بدخول الجنان .

« فهو في عيشة راضية » ذاتِ رضى يرضى صاحبها كل الرضا « في جنة عالية قطوفها دانية » أي ثمارها قريبة التناول لمن اشتهاها : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية » أي : بما قدّمتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة في أيام الدنيا الماضية .

« وأما مَنْ أوتي كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم أوتَ كتابيه » وذلك أنه لما نظر في كتابه ورأى قبائح أعماله وسوء أقواله وأحواله ، تمنى أنه لم يؤت كتابه ، لما فيه من الخجل والفضائح « ولم أدرِ ما حسابيه » تمنى ذلك لأنه كله وبال عليه « يا ليتها كانت القاضية » أي : يا ليت الموتة التي متّها في الدنيا كانت القاطعة لأمري ، فلم أبعث بعدها ، وتكون هي القاطعة لكل حياة بعدها « ما أغنى عني ماليه » أي لم ينفعني شيئاً ما جمعته من مال الدنيا « هلك عني سلطانيه » ، أي زال عني سلطاني وملكي وقوتي وتسلطي على الناس

في الدنيا ، وبقيت الآن ذليلاً حقيراً ، وذهبت عني حجتي التي كنت أحتج بها في الدنيا وما فيها من المهارة والجدل الباطل .

ثم يقول سبحانه للملائكة عليهم السلام : « خذوه فغلّوه » أي : اجمعوا يديه الى عنقه « ثم الجحيمَ صلّوه » أي أدخلوه قعر الجحيم وعظّماها لأنه كان يتعاظم في الدنيا بالكبر والكفر « ثم في سلسلةٍ ذَرْعُها » أي طولها « سبعون ذراعاً فاسلكوه » أي أدخلوها فيــه . قال ابن عباس رضي الله عنهما : تدخــل في دبره وتخرج من منخره ، وقال : هي سبعون ذراعــاً بذراع المَلَك ، وقال بعضهم : سبعون ذراعاً وكل ذراع سبعون باعاً ، وكل باعٍ أبعد ما بين مكة والكوفة ..

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن رُضاضة مثل هذه ــ وأشار الى مثل الجمجمة ــ أُرسِلت من السمــاء الى الارض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ،ولو أنها أُرسِلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليلَ والنهارَ قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها » رواه الترمذي وحسنه كما في تفسير ابن كثير وغيره .

« إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحضّ على طعام المسكين ، فليس له اليوم هاهنا حميــم » أي ليس له في الآخرة قريب ينفعــه ولاصديق يشفع له « ولا طعام إلا من غِسْلين » أي صديد أهل النار ، وهو مأخوذ من الغَسل ، لأنه غسالة جروح أهــل النار وقروحهــم وما يسيل من قيحهــم وصديدهم « لا يأكلــه إلا الخاطئون » اي الكافرون .

وقد تبين من الآيات السابقة أن الخلائق عند تناول الكتب على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول : هم الآخذون كتبَهم بأيمانهم ، وهم المؤمنون السعداء جعلنا الله تعالى منهم .

الصنف الثاني : الآخذون كتبهم بشمالهم ، وهم الذين لم يؤمنوا بالله العظيم ولم يحضّوا على طعام المسكين . ويدخل تحت هذا الصنف عدة أصناف :

١ ـ صنف المعطّلة الذين عطّلوا العالم عن صانعه ، واعتقدوا أن الأمر طبيعة ، وأنه ليس للعالَم خالق عليم يدبّره ، فهؤلاء لم يؤمنوا بالله العظيم ، فهم داخلون في عموم الآية السابقة ، لأنهم لم يؤمنوا بوجود الله العظيم .

وهؤلاء محجوجون بالأدلة القاطعة ، ولسنا الآن نريد أن نخوض في الرد عليهم حتى نوضح تلك البراهين ، ولكننا نأتي بنبذةٍ لطيفة على طريق العجالة ، لعلها تنبه العاقل وتوقظ الغافل ، وذلك أننا نقول لمن يرى أن الأمر طبيعة ، وأن مستند العالَم إنما هو الطبيعة ـ نقول للطبيعي :

ما هو مفهوم الطبيعة عندك ؟ وماذا تتصوَّر من معنى الطبيعة التي أسندت تدبير العالَم إليها ؟ هل ذلك المفهوم للطبيعة أمر سلبي عدمي أم إيجابي وجودي ؟

فإن قال : إن مفهوم الطبيعة والمعنى المتصوَّر منها هو سلبيٌّ عدميٌّ بمعنى أن العالم وُجد بطبيعة حاله من العَدَم : قلنا في الجواب: إن العالَم أمر وجوديٌّ ، والعدم هو عدم ، فكيف ينشأ عنه وجود ؟ فإن حقيقة مفهوم العدم هي العدم ، فكيف يتصور في العقل أن ينشأ عنها وجود ؟!

وقد نبه القرآن الكريم العقلاء الى هذه القضيَّة في قوله سبحانه :

« أم خُلِقوا من غير شيءٍ أم همُ الخالقون ؟! » والمعنى : أنهم شيءٌ وجودي محقَّق الوجود ، فكيف يُعقل أنهم أُوجدوا من غير شيء أي من غير خالق واجب الوجود ؟!

ولئن ادَّعوْا أن الذي أوجدهم من عدمهم هوَ هُم أي أنهم هم الخالقون لأنفسهم : فهذا باطل ، فإنهم لو كانوا هم الذين خلقوا أنفسهم لوجب تقدُّم وجودهم على وجود أنفسهم ، والحال أنهم قبل أن يُخلقوا كانوا عدماً ، فلا بدَّ أن ينتهي الأمر الى واجب الوجود الذي هو موجدُ كلِّ موجود ولا موجِد له ، فإنه الأحد الواحد ، وليس قبل الواحد واحد ، ولا أحد قبل الأحد . قال سبحانه : « قل هو الله أحد » أي ولا أحد قبله ، ومن ادَّعى غير ذلك فليأت قبل الواحد العددي بواحد ، وإذا كان الواحد العددي لا واحد قبله فلا شكَّ أن الواحد الحقيقي واجب الوجود الذي لا يقبل التعدد — هو لا أحد قبله قطعاً .

وإن قال : إن مفهوم الطبيعة هو أمر إيجابي وجودي ، بمعنى أنها هي ذاتُ وجودٍ وقوَّة وعلم وحكمة ، وأنها المدبِّرة لنظام العالَم ، وأنها المتصرِّفة في العوالم ، وأن من صفاتها كذا وكذا ...

فيقال له : إن هذا المفهوم الذي فهمتَه من الطبيعة وهذه الصفات التي أثبتها للطبيعة هذا هو الله ربُّ العالم وخالقُه وبارئه ، ولكن ربَّ العالمين لم يسمِّ نفسه بالطبيعة ، وإنما سمى نفسه بأنه هو الله تعالى ، وأن له الأسماء الحسنى ولم يرض لنفسه غير الأسماء الحسنى التي تسمَّى بها ، لأن غير الأسماء الحسنى التي تسمَّى بها لا تليق بكماله بل توهم النقص ، قال الله تعالى : « ولله الأسماءُ الحسنى فادْعوهُ بها وذَروا الذين يُلحدون في أسمائه » الآية . على أن لفظ

الطبيعة هو على وزن فَعيلة ، فهي مفعولة مطبوعة ، وإن الله تعالى هو طابع الطبائع وخالقها .

٢ ــ صنف المشركين الذين أشركوا مع الله تعالى إلهاً آخر ، فإنهم لم يؤمنوا بالله العظيم إيماناً صحيحاً لائقاً بكماله سبحانه ، لأن الله تعالى هو واحد لا شريك له .

٣ ــ صنف المتكبرين علـى الله تعالى الذين أبَوْا واستكبروا أن يذعنوا لدينه وشرعه . ورأس هذه الطائفة إبليس عليه اللعنة ، فإنه أبى واستكبر عن الإذعان لأمر الله تعالى، ولذلك كان من الكافرين.

وهكذا فرعون وجنوده . قال تعالى : « واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحقّ وظنوا أنهم إلينا لا يُرجعون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمةً يدعون الى النار ، ويوم القيامة لا يُنصرون . وأتْبعناهم في هــذه الدنيا لعنةً ، ويوم القيامة هم من المقبوحين » .

٤ ــ صنف المنافقين الذين أظهروا الاسلام وأضمروا الكفر ، فإنهم لم يؤمنوا بالله العظيــم ، لأنهم استسلموا ظاهــراً خوف القتل والسَّبْي ، وحفظاً لمالهم وأهلهم ، ولكن قلوبهم على قلبٍ واحدٍ من الأصناف الثلاثة الذين تقدم ذكرهم .

الصنف الثالث : مَنْ أوتي كتابه وراء ظهره ، فهم الذين أُوتوا كتاب الله تعالى في الدنيا فنبذوه وراءهم ظِهرياً واشتروا به ثمناً قليلاً ، فإذا كان يوم القيامة قيل لأحدهم : خذ كتابك من وراء ظهرك(١) .

روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت النار فبكت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يبكيك ؟ » فقالت : ذكرتُ النار فبكيت ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أمَّا في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً : عند الميزان حتى يعلم أيخِفّ ميزانه أم يثقل ؟ وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم وراء ظهره ؟ وعند الصراط إذا وُضع بين ظهرانيْ جهنم » .

عالـم الحساب

قال الله تعالى : « إن إلينا إيابَهم • ثم إن علينا حسابهم » •

فإياب العباد كلِّهم — أي : رجوعُهم — إلى ربهم ، ثم إن حسابهم عليه سبحانه ، فهو الذي يحاسبهم يوم الحساب •

وقد جاءت الآيات الكثيرة في ذكر الحساب وهول يوم الحساب ، وفي مدح الذين يستعدوّن ليوم الحساب ويخافونه ، وفي ذمِّ الذين نَسُوا يوم الحساب ، ولم يَخْشَوا الحساب •

قال الله تعالى : « والذين يَصِلون ما أمر الله به أن يُوصَل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » • أي : يخافون المناقشة في الحساب على النقير والقطمير ، والشيء الكبير والحقير • وفي هذا مدح للواصلين ماأمر الله أن يوصل فيما بينهم وبين ربهم، وبينهم وبين رسولهم صلى الله عليه وسلم ، وبينهم وبين سائر عباد الله تعالى • فهم الواصلون وهم أهل الخشية بالغيب ، وهم يخافون سوء الحساب ، مع أنهم على قدم في التقوى ودرجة كبيرة في العمل الصالح والإخلاص ، وهو شأن الواصلين المقرّبين • ألحقنا الله تعالى بهم •

وقال الله تعالى : « إن الذين يَضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » وفي هذا تحذير من نسيان يوم الحساب ووعيد لمن نسيه •

وقد بين سبحانه أن محاسبته لعباده سوف تأتي على جميع الأعمال: العلانية والسرية ، والجسمية والقلبية ، والبادية الظاهـرة والنفسية الخفيـة •

قال تعالى : « لله مافي السموات ومافي الأرض ، وإن تبدوا مافي

أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ويعذب مَنْ يشاء ، والله على كل شيء قدير » • فهو سبحانه الذي له السموات والأرض وما فيهن مِلكاً ومُلكاً ، فذواتها وأعيانها مملوكة له وحده ، وهو الملك المطلق المتصرف فيها كما يشاء بمقتضى حكمته ، فهو الفعال لما يريد والكل له عبيد ، وهو الذي يقضي ويحكم ولا معقّب لحكمه ولا رادّ لأمره جلّ وعلا ، بل هو الغالب على أمره أي هو الغالب على تنفيذ أمره ، وإمضاء حكمه ، ولا مانع له ولا معقب •

وهو الذي يعلم السر وأخفى ، ويعلم ما يسرون وما يعلنون ، وما يبدون وما يخفون من خفايا نفوسهم وخبايا قلوبهم ، وسوف يحاسبهم على جميع ذلك ، فليخافوا وليخشَوْا الحساب عند رب الأرباب ، ثم بعد الحساب يغفر لمن يشاء وهم الذين فيهم أهلية لأن يتفضل عليهم بالمغفرة ، ويعذب من يشاء وهم الذين ليسوا أهلاً للتفضل بالغفران ، وذلك عائد لعلمه وحكمته ، فإنه هو العليم الحكيم وهو على كل شيء قدير ، ومن ذلك قدرته على المغفرة لهذا والتعذيب لهذا ، لا يُعجزه شيء من ذلك •

فالأعمال القلبية من الحبّ والبغض ، والحسد والحقد ، والنيات الحسنة والسيئة ، والهمم والعزائم القلبية في الخير والشر ، كل أولئك يحاسَب به العبدُ يوم القيامة فيؤجَر على خيرها ويعاقَب على شرها ما لم تشمله المغفرة بأسباب يعلمها الله تعالى •

ويدل على أن أعمال القلوب يحاسَب بها العبد يوم القيامة في الخير والشر : ما رواه الترمذي والإمام أحمد عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة أُقسم عليهنّ وأحدثكم حديثاً فاحفظوه : ما نقص مال من صدقة ، وما ظُلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزّاً ، وما تواضع عبد لله إلا رفعه الله تعالى • قال : وأحدثكم حديثاً فاحفظوه : إنما الدنيا لأربعة

نفرٍ : رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يتقي في ماله ربَّه ، ويَصِل فيه رحمَه ، ويعلم أن لله فيه حقاً ، فهو في أعلى المنازل ؛ ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً ، يقول : لو أن لي مثل فلان ــ أي العالم صاحب المال ــ لعملتُ مثله ، فهو بنيته وأجرهما سواء ؛ ورجل آتاه مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبط في ماله لا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، فهذا في أخبث المنازل ؛ ورجل لم يؤته مالاً ولا علماً يقول : لو أن لي مثل فلان ــ أي صاحب المال الشقي ــ لعملت مثله ــ أي من ارتكاب الشهوات المحرمة وأنواع الفسق ــ قال صلى الله عليه وسلم : فهو بنيته ووزرهما سواء » .

فالنيات القلبية لها اعتبارها في الحساب والثواب والعقاب،وكذلك الهِمَم كما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله كتب الحسنات والسيئات . ثم بيَّن ذلك : فمَن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة كاملة ، وإن همّ بها فعملها كتبت له عشر حسنات الى سبعمائة الى أضعاف كثيرة ، وإن همَّ بسيئة فلم يعملها ــ أي : خوفاً من الله تعالى كما في رواية : وإن تركها من أجلي ــ كتبت له حسنة كاملة ، وإن همَّ بها فعملها كتبت له سيئة واحدة » .

وكذلك الإرادات العازمة ، فإن الإنسان يحاسب عليها . روى الشيخان عن الأحنف بن قيس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قيل : يا رسول الله ، هذا القاتلُ ، فما بال المقتول ؟ قال : « إنه أراد قتل صاحبه » أي : ولكن سُبق عليه فلم يُحقّق إرادته ، وفي رواية : « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » . أي فبسبب حرصه على قتل صاحبه كان من أهل النار ، ولا شك أن الحرص من جملة أعمال القلوب ، فالحرص القوي على الشيء يُدين صاحبه يوم القيامة . وكذا الإرادة .

وهكذا الحبّ والبغض ، فإن العبد يحاسَب عليهما يوم القيامة ، فإ كان سبب الحبّ والبغض ومتعلّقهما مما أمره الشارع به ورضيه ففيه الثواب ، كمحبة المؤمنين وبغض الكافرين ونحو ذلك . قال صلى الله عليه وسلم : « من أحبّ لله وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله : فقد استكمل الإيمان » رواه أبو داود . وإن كان سببهما ومتعلّقهما غيرَ شرعي ففيهما العقاب .

وأما الوساوس والخواطر السريعــة ، وحديث النفس السيىء الذي لم يوطّن الانسانُ نفسَه عليه ، ولم يهمّ به ولم يعزم صاحبه على إظهاره الى الوجود ، بل يكرهه ويدفعه عن نفسه فلا يندفع : فقد نص العلماء على أنه معفو عنه بدليل قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدّثت به أنفسَها ما لم يعملوا به أو يتكلموا به » وفي رواية : « ما وسوستْ به صدورها » . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأَنْ يحترقَ حتى يصير حُمَمَةً أو يخرّ من السمــاء الى الأرض أحبّ إليه من أن يتكلم به » .

ولمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ! قال : « أوقد وجدتموه ؟ » قالوا : نعم . قال : « ذلك صريح الإيمان » . ورواه أبو داود . وفي رواية : قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذي ردّ كيده الى الوسوسة » .

فما يمرّ على القلب من خواطر رديئة ، وما يعتري الانسان من وساوس سيئة وهو ينكرها ولا يرتضيها ، فهو غير مؤاخذ عليها ، بل

إن إنكاره لها وتأذّيه منها وألم نفسه بسببها ، في هذا دليل على محض إيمانه وصراحته ، وأن قلبه عامر بالإيمان ، إذ لو كان قلبه غير حيّ بالإيمان لاستسلم لتلك الوساوس السيئة ، وانشرح صدره لها ولم يضق بها ذرعاً • وعلى كل حال فتلك الوساوس التي تعتري المؤمن هي عارضة ، وقد تمرّ على بعض الناس ولكنها زائلة عما قريب ، فلا ينبغي أن يلتفت إليها ، بل يلجأ الى الله تعالى ويطرح ما هنالك وراء ظهره ، ويتعوذ بالله العظيم فإنها لا تضره •

هذا ، وإن يوم الحساب شأنه كبير وأمره خطير ، إلا على مَن تغمّده الله بغفرانه ورضوانه • قال تعالى مخبراً عن دعاء الخليل عليه السلام لينبه العباد الى هول موقف الحساب : « ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » • اللهم آمين •

أول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال

أولُ ما يحاسب عليه العبد من الأعمال المتعلقة بحقوق الله تعالى : الصلاة • قال الإمام الترمذي في سننه : باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، ثم أسند الى أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما يحاسَب عليه العبد يوم القيامة من عمله : الصلاةُ فإن صلحتْ فقد أفلح وأنجح، وإن فسدتْ فقد خاب وخسر ، وإن انتقص من فريضته شيئاً قال الرب عز وجل للملائكة : انظروا هل لعبدي من تطوّع ؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ، ثم يكون سائر عمله على ذلك » •

وأول ما يحاسَب عليه العبد من الاعمال المتعلقة بحقوق العباد : الدماء ، فقد روى البخاري بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أول ما يُقضى بين الناس بالدماء » •

المحاسبة على الزكاة والتشديد على مانعها في الحساب والعقوبات المترتبة عليه في القبر والحشر ومواقف الآخرة والخطر على دين مانع الزكاة وعلى صلاته وصيامه

إعلم أيها الأخ المسلم أن الزكاة أمرها عظيم في دين الله تعالى ، وأن عقاب تركها شديد يوم لقاء الله تعالى .

إنها ثالث أركان الاسلام ، وقد قرنها الله تعالى بالصلاة في آيات كثيرة ، وقد وصف المؤمنين بفعلهما ، ونزّههم عن تركهما فقال سبحانه : « الـذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » وقال جل شأنه : « هدًى وبشرى للمؤمنـين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » .

وقال تعالى : « فإنْ تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوا الزكاة فاخوانكم في الدين » الآية .

ووصف سبحانه الكفار بأنهـم لا يؤتون الزكاة ، قال تعالى : « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون » . وقال في أهل النار من المجرمين : « قالوا : لم نكُ من المصلين . ولم نكُ نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين » الآيات .

فترك الصلاة ومنع الزكاة ليس من صفات المؤمنين . بل إن مانع الزكاة هو في خطر على دينه أن يكون منافقاً لما جاء في الحديث عن أبي

الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الزكاة قنطرة الاسلام »(١) . وقال : « إن تمام إسلامكم أن تؤدّوا زكاة أموالكم »(٢) . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ظهرتْ لهم الصلاة فصلّوْها » وفي رواية : « وخفيت لهم الزكاة فأكلوها أولئك هم المنافقون »(٣) .

وهذا إخبار عما يقع بعده صلى الله عليه وسلم في هذه الأمة . فأداء المسلم زكاته برهان على صدق إيمانه ، كما جاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والصدقة برهان » والمراد بالصدقة هنا الزكاة ، فهي برهان على إيمان فاعلها .

وفي ترك الزكاة خطر على دين تاركها أيضاً ، ومنع الزكاة خطر على صلاة مانعها يَضرّ بصلاته . فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أُمرنا — أي أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم — بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومن لم يزكّ فلا صلاة له (٤) .

ولذلك كان تارك الزكاة ملعوناً على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : آكلُ الربا ، ومؤكله ، وشاهداه إذا علماه ، والواشمة ، والمستوشمة ، ولاوي الصدقة — أي الممتنع من أداء الزكاة — والمرتدّ أعرابياً بعد

---

(١) قال في « مجمع الزوائد » رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، ورجاله موثقون . اهـ .

(٢) رواه البزار والطبراني في الكبير كما في « مجمع الزوائد » .

(٣) رواه البزار وفيه راوٍ ضعيف محتمل . كما في « مجمع الزوائد » و « ترغيب » المنذري .

(٤) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في الكبير موقوفاً هكذا بأسانيد أحدها صحيح . وقال في « مجمع الزوائد » : رواه الطبراني في الكبير بإسناد صحيح . وجاء في رواية للأصبهاني وذكرها المنذري في «ترغيبه» قال : من أقام الصلاة ولم يؤت الزكاة فليس بمسلم ينفعه عمله .

الهجرة : ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة .
قال الحافظ المنذري في « الترغيب » : رواه ابن خزيمة في صحيحه واللفظ له ، ورواه الإمام أحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه . قال المنذري : وروى الأصبهاني عن علي رضي الله عنه أنه قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكلَ الربا ومؤكلَه ، وشاهده وكاتبه ، والواشمة والمستوشمة ، ومانع الصدقة – أي الزكاة – والمحلِّل والمحلَّل له .

ومانع الزكاة يلقى العذاب حين يحضره الموت ، وتتوالى عليه المآسي والمخازي والحسرات ، ويتمنى الرجعة الى الدنيا ليؤدّي ما عليه حين يحتضر . قال الله تعالى : « وأنفقوا ممَّا رزقناكم من قبل أن يأتي أحدَكم الموتُ فيقولَ ربِّ لولا أخرتني الى أجلٍ قريب فأصَّدَّقَ وأكنْ من الصالحين » كما تقدم في معناها .

ومانع الزكاة يعذَّب في قبره ، وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم عذاب تاركي الصلاة والزكاة في البرزخ – أي القبر – كما جاء في أحاديث الإسراء . ومن ذلك ما جاء في رواية البزار وغيره أنه صلى الله عليه وسلم مرَّ على قوم على أدبارهم رقاع وعلى أقبالهم رقاع[1] يسرحون كما تسرح الأنعام الى الضريع والزَّقوم ورَضْف جهنم . قال: « ماهؤلاء ياجبريل ؟ قال: هؤلاء الذين لايؤدّون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله وما الله بظلاَّم للعبيد » . قال الحافظ المنذري بعد ما أورد ذلك قال : الحديث بطوله في قصة الاسراء وفرض الصلاة . اهـ .

وتارك الزكاة كما يعذَّب في قبره يعذب في مواقف الآخرة، ويعذّب في حسابه فيشدَّد عليه ، ويعذّب في نار جهنم :

---

(1) هذه الرقاع مكتوب فيها ما عليهم من الحقوق التي لم يؤدوها تقرأها الناس من حولهم فضيحة لهم وتشهيراً بهم . انظر « النهاية » لابن الأثير.

أما عذابه في مواقف الآخرة : فكما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من صاحب ذهب ٍ ولا فضة ٍ لا يؤدي منهما حقهما إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار فأُحمي عليها في نار جهنم فيُكوى بهــا جبينه وجنبه وظهره ، كلما بَرَدَتْ أعيدت له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يُقضى بين العباد ، فيُرى سبيلُه إما الى الجنة أو الى النار » .

قيل : يا رسول الله فالإبل ؟

قال صلى الله عليه وسلم : « ولا صاحب ِ إبل لا يؤدي منها حقّها ـ ومن حقها حلبها يوم وردها ـ إلا إذا كان يوم القيامة بُطح لها بقاع ٍ قَرْقَر ٍ(١) أوفرَ ما كانت ، لا يفقد منها فصيلاً واحداً ، تطؤه بأخفافها وتعضُّه بأفواهها ، كلما مرّ عليها أُولاها رُدَّ عليه أخراها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يُقضى بين العباد ، فيُرى سبيلُه إما الى الجنة أو الى النار » .

قيل : يا رسول الله فالبقر والغنم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « ولا صاحب بقر ٍ ولا غنم ٍ لا يؤدي حقها إلا إذا كان يوم القيامة بُطح لها بقاع قرقر أوفرَ ما كانت لا يفقد منها شيئاً ليس منها عَقْصاء ولا جَلْحاء ولا عَضْباء ، تنطحــه بقرونهــا وتطؤه بأظلافهــا(٢) ، كلما مرّ عليها أُولاها ردّ عليه أخراها . في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين العباد ، فيُرى سبيله إما الى الجنة وإما الى النار » . الحديث .

---

(١) قال في الترغيب : القاع : هو المكان المستوي من الأرض . والقرقر بقافين مفتوحتين وراءين مهملتين هو : الأملس .

(٢) الظلف للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس . والعقصاء هي : الملتوية القرن . والجلحاء هي: التي لاقرن لها . والعضباء هي: المكسورة القرن .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « ما من أحدٍ لا يؤدي زكاة ماله إلا مُثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرعَ حتى يُطوّق به عنقه • ثم قرأ علينا النبي صلى الله عليه وسلم مصداقه من كتاب الله تعالى : « ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة » الآية(١) •

وأما تشديد الحساب على تارك الزكاة : فقد جاء عن علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدْر الذي يَسَع فقراءهم ، ولن يُجهد الفقراء إذا جاعوا وعَرُوا إلا بما يصنع أغنياؤهم، ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً »(٢) •

ومن هذا الحديث يُعلم أن الله تعالى الحكيم شرع مقادير الزكاة وجعلها وافية كافية لمهامّ الفقراء وحاجاتهم ، وإن الفقراء إذا أجهدهم الفقر فجاعوا وعَرُوا بسبب أنهم اعترتهم ضائقة فذلك من تقصير الأغنياء في دفع ما أوجب الله تعالى للفقراء ، فإن الموازنة الشرعية هي كافية وافية ، فليطبقوها كما أمرهم الله تعالى وليرعوها حقّ رعايتها ، فسوف يحاسبهم الله تعالى على ذلك ، وسوف يشدد الحساب على مَن قصَّر

---

(١) قال المنذري : رواه ابن ماجه واللفظ له ، والنسائي بإسناد صحيح وابن خزيمة في صحيحه • اهـ •

(٢) رواه الطبراني في الاوسط والصغير وقال : تفرّد به ثابت بن محمد الزاهد اهـ • قال الحافظ المنذري بعد ما أورد هذا الحديث : وثابت ثقة صدوق ، روى عنه البخاري وغيره ، وبقية رواته لا بأس بهم • قال : وروي موقوفاً على عليّ رضي الله عنه وهو أشبه • اهـ • قلت : ومن المعلوم عند المحدثين أن الموقوف له حكم المرفوع فيما لا مجالَ للرأي فيه • وقال في « مجمع الزوائد » بعد ما أورد هذا الحديث : قلت : وثابت من رجال الصحيح، وبقية رجاله وثقوا وفيهم كلام • اهـ • أي : والكلام فيهم لا عبرة به لأنهم وثقوا •

في ذلك فلم يؤدِّ ما أوجب الله تعالى عليه كاملاً ، ومن نوقش الحسابَ عُذب لا محالة .

هذا وإن الزكاة حق للفقــراء في مال الأغنياء ، يجب عليهم أن يدفعوها إليهم على أنها حق لهم عنــدهم . قال تعالى : « والذين في أموالهم حقٌ معلوم للسائل والمحروم » الآية .

وقد روى الطبراني في الأصغر عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة : يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التي فرضتَ لنا عليهم ! فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لأُدْنينَّكم ـ أي لأقربنَّكم ـ ولأُباعدنَّهم . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذين في أموالهم حقٌ معلوم للسائل والمحروم »(١) .

ومانع الزكاة يعذب في النار إلا إذا غفر الله تعالى له ورحمه . فعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مانع الزكاة يوم القيامة في النار »(٢) .

---

(١) قال في مجمع الزوائد : فيه الحارث بن النعمان ضعيف . ا هـ .

(٢) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في الصغير عن سعد بن سنان ، ويقال فيه : سنان بن سعد عن أنس . ا هـ .

أصناف الناس بالنسبة للحساب وأنواع الحساب

الناس في الحساب على أصناف متعددة :

١ ــ صنف يحاسبون حساباً يسيراً بلا مناقشة ولا تشديد ، وإنما تعرض عليهم أعمالهم عرضاً ، ثم إن الله تعالى يتجاوز عن سيئاتهم ويغفرها لهم ، وهؤلاء هم الذين أوتوا كتبهم بأيمانهم .

قال الله تعالى : « فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً . وينقلب الى أهله مسروراً » .

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من نوقش الحساب عُذّب » وفي رواية : « من حوسب عـــذّب » أي من حوسب حسابَ مناقشةٍ وتشديد عُذّب لا محالة .

قالت عائشة رضي الله عنها : فقلت : يا رسول الله ، أليس قد قال الله عز وجل : « فسوف يحاسب حساباً يسيراً » ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ليس ذاكِ الحساب . إنمـا ذاكِ العرض ، ومـن نوقش يوم القيامة عُذّب » .

فلما أخبر صلى الله عليــه وسلم أن من نوقش الحساب عـذب استشكلت السيدة عائشة رضي الله عنها بأن هناك مَن يحاسب ولايهلك ولا يعذب وهم أهل الحساب اليسير فأجابها صلى الله عليه وسلم بأن

أهل الحساب اليسير لم يحاسبوا مناقشة وتدقيقاً وإنما حسابهم هو عرض أعمالهم ثم التجاوز عن سيئاتهم .

روى البخاري وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما وسأله رجل : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يُدني المؤمن فيضع عليه كَنَفَه ويستره فيقول : أتعرف ذنبَ كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول العبد : أعرف ربِّ أعرف ربِّ . حتى إذا قَرَّرَه بذنوبه ورأى نفسه أنه قد هلك قال الله تعالى : سترتُها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . فيُعطى كتاب حسناته .

وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » .

قال العلامة الخازن : والحساب اليسير هو أن تُعرض على العبد أعماله فيعرَّف بالطاعة والمعصية ثم يُثاب على الطاعة ويُتجاوز له عن المعصية . فهذا هو الحساب اليسير لأنه لا شدة فيه على صاحبه ولا مناقشة ولا يقال له : لم فعلت هذا ؟ ولا يطالب بالعذر فيه ولا الحجة عليه فإنه متى طولب بذلك لم يجد عذراً ولا حجة فيفتضح.اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كنَّ فيه حاسبه الله حساباً يسيراً وأدخله الجنة برحمته » قالوا : وما هي يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟ قال : « تُعطي مَنْ حرمك ، وتَصلُ من قطعك ، وتعفو عمَّن ظلمك . فإذا فعلت ذلك تدخل الجنة » قال في الترغيب : رواه البزار والطبراني في الأوسط والحاكم وصحح إسناده . اهـ .

٢ ـ صنف يحاسبون حساباً عسيراً مناقشة وتدقيقاً . فهؤلاء

لا بدّ أن يهلكوا أو يعذبوا ، قال صلى الله عليه وسلم : « من نوقش الحساب يهلك » الحديث . وفي رواية : « عُذِّب » .

وقال الله تعالى : « فإذا نُقر في الناقور فذلك يومئذٍ يوم عسير . على الكافرين غير يسير » .

ولذلك كان من شأن المؤمنين أنهم يخافون من سوء الحساب وشدته كما وصفهم الله تعالى بقوله : « ويخافون سوء الحساب » .

فالمؤمن ينظر الى تقصيره في أعماله مع الله تعالى فيخاف سوء الحساب ، ولكنه ينظر الى سعة رحمة الله وعفوه فيحسن ظنه بربه تعالى ويرجو مغفرته ورحمته .

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يموتنّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » زاد ابن أبي الدنيا في روايته : « فإن قوماً قد أرداهم سوء ظنهم بالله عز وجل فقال لهم : « وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

وروى الامام أحمد وابن أبي الدنيا وغيرهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنْ شئتم أنبأتكم ما أول ما يقول الله عز وجل للمؤمنين يوم القيامة ، وما أول ما يقولون له ؟ » قلنا نعم يا رسول الله ، قال : « إن الله عز وجل يقول للمؤمنين : هل أحببتم لقائي ؟ فيقولون : نعم يا ربنا فيقول : لمَ ؟ فيقولون : رجونا عفوك ومغفرتك ، فيقول : قد وجبتْ لكم مغفرتي » وفي رواية للطبراني : « فقد وجبتْ لكم رحمتي »(١) .

---

(١) ذكره المنذري في ترغيبه وعزاه لمسند أحمد . وأورده صاحب مجمع الزوائد وقال : رواه الطبراني بسندين أحدهما حسن . اهـ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمر الله عز وجل بعبدٍ الى النار فلما وقف على شفتيها ـ أي طرفيها ـ التفت فقال : أما والله يا ربِّ إنْ كان ـ أي إنه كان ـ ظني بك لحسن . فقال الله عزَّ وجلَّ : ردّوه ـ أي الى الجنة ـ أنا عند حسن ظن عبدي بي »(١) .

فالمؤمن الكامل المتحقق بمقام الخوف والرجاء : ينظر الى ذنوبه وتقصيره في عمله مع الله تعالى فيخاف ربه ، وينظر الى سعة مغفرة الله تعالى وسعة رحمته تعالى فيرجو مغفرة الله تعالى ورحمته .

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شابٍّ وهو في الموت فقال له صلى الله عليه وسلم : « كيف تجدك ؟ » فقال : يا رسول الله أرجو الله تعالى وأخاف ذنوبي ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ما اجتمعا ـ أي الرجاء والخوف ـ في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا غفر الله له » .

وقد أوضح الإمام الغزالي رضي الله عنه أن الرجاء الصحيح هو الذي يحمل صاحبه على الصالح من العمل ما استطاع صاحبه ، قال الله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » فوصفهم بالإيمان وبالعمل الصالح وهو الهجرة والجهاد في سبيله ثم أثبت لهم الرجاء الصحيح .

وقال تعالى : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا ممَّا رزقناهم سرّاً وعلانية يرجون تجارة لن تبور » .

وأما مَنْ قعد عن العمل وأخلد الى الكسل ومشى وراء أهواء

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه البيهقي عن ولد عبادة بن الصامت ، ولم يسمِّه ، عن أبي هريرة . اهـ .

نفسه المحرمة ثم زعم أنه يرجو رحمة الله فيقال له أنت لستَ من أهل الرجاء بل أنت مغرور بالأماني •

قال صلى الله عليه وسلم : « الكيِّس مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » رواه الترمذي •

٣ ـ وصنف يدخلون الجنة بغير حساب • اللهم ألحقنا بهم • وهذا الصنف يشتمل على أصناف متعددة متفاوتة المراتب •

فهناك صنف يدخلون الجنة بغير حساب ، بسبب أنهم من أهل التوكل الخاصّ ويدخل بمعيَّتهم أعداد كثيرة ، لكرامتهم وفضلهم عند الله تعالى •

قال البخاري في صحيحه : باب يَدخل الجنةَ سبعون ألفاً بغير حساب • ثم أسند الى ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عُرضت عليَّ الأمم فأخذ النبي يمرّ ومعه الأمة ، والنبي يمر معه النفر ، والنبي يمرّ معه العشرة ، والنبي يمرّ معه الخمسة ، والنبي يمر وحده ، فنظرت فإذا سواد ـ أي أشخاص ـ كثير قلت : يا جبريل هؤلاء أمتي ؟ فقال : لا • ولكن انظر الى الأفق فنظرتُ فإذا سَواد كثير ، فقال جبريل : هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفاً قدّامَهم لا حساب عليهم ولا عذاب • قلت : ولمَ ؟ قال : كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيَّرون وعلى ربهم يتوكلون » •

وفي رواية لمسلم زيادة : « لا يرقون » وعنده أيضاً : إذ رُفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر الى الأفق فنظرتُ فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر الى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » • وفي لفظ للإمام أحمد قال صلى الله

عليه وسلم : « فرأيت أمتي قد ملؤوا السهل والجبل ، فأعجبتني كثرتهم وهيئتهم فقيل لي : أرضيتَ يا محمد ؟ قلت : نعم أي ربِّ » .

وروى الامام أحمد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُعطيت سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، قلوبهم على قلب رجلٍ واحدٍ ، فاستزدتُ ربي فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً » فقال أبو بكر رضي الله عنه : فرأيت أن ذلك آتٍ على أهل القرى ومصيبٌ من حافات البوادي .

وروى أيضاً عن ثوبان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليدخلنَّ الجنة من أمتي سبعون ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب ، مع كلِّ ألف سبعون ألفاً »(١) .

وروى الطبراني عن عتبة بن عبدٍ السلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ربي عزَّ وجلَّ وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب ، ثم يشفع كلُّ ألفٍ لسبعين ألفاً ، ثم يحثي ربي عز وجل بكفيه ثلاث حثيات » فكبَّر عمر ، وقال : إن السبعين الأول يشفعهم الله تعالى في آبائهم وأبنائهم وعشيرتهم ، وأرجو أن يجعلني الله في إحدى الحثيات الأواخر(٢) .

ومن جملة الذين يدخلون الجنة بغير حساب قُوَّام الليل :

روى البيهقي عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة ،

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وإسناد رجاله كلهم ثقات، شاميون حمصيون فهو حديث صحيح ولله الحمد والمنة.اهـ.

(٢) قال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه صفة الجنة : لا أعلم لهذا الاسناد علة . هـ كما في تفسير ابن كثير .

فينادي منادٍ فيقول : أين الذين كانوا تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ فيقومون وهم قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يؤمر بسائر الناس الى الحساب » ٠

ومن جملة من لا حساب عليه : قارىء القرآن ابتغاء وجه الله تعالى ، ومَن أمّ قوماً وهم به راضون ، وداعٍ يدعو الى الصلاة ، وعبد مملوك أحسن فيما بينه وبين ربّه وفيما بينه وبين مواليه ٠

روى الطبراني في الاوسط والصغير بإسناد لا بأس به ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر ولا ينالهم الحساب ، وهم على كثيبٍ من مسكٍ حتى يفرغ من حساب الخلائق : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله تعالى ، وعبد أحسن فيما بينه وبين ربه وفيما بينه وبين مواليه »(١)٠

ومن جملة مَن يدخل الجنة بغير حساب : العلماء العاملون : فعن ثعلبة بن الحكم الصحابي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عز وجل للعلماء يوم القيامة : إني لم أجعل علمي وحلمي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالي »(٢) ٠

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يميّز العلماء فيقول : يا معشر العلماء إني لم أضع علمي فيكم لأعذبكم اذهبوا فقد غفرت لكم »(٣) ٠

---

(١) وأصل هذا الحديث في سنن الترمذي ومسند الامام أحمد كما فى ترغيب المنذري ٠

(٢) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في الكبير ورواته ثقات ٠ ا هـ ٠

(٣) عزاه الحافظ المنذري للطبراني في الكبير أيضاً ٠

ومن جملة الذين يدخلون الجنة بغير حساب : الشهداء والعافون عن الناس .

روى الطبراني بإسناد حسن عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا وقف العباد للحساب جاء قوم واضعي سيوفهم على رقابهم تقطر دماً ، فازدحموا على باب الجنة ، فقيل : مَن هؤلاء ؟ قيل : الشهداء كانوا أحياء يرزقون ، ثم نادى منادٍ : ليقم مَن أجره على الله فليدخل الجنة ، ثم نادى الثانية : ليقم مَن أجره على الله فليدخل الجنة ، قيل : ومن ذا الذي أجره على الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : العافون عن الناس ، ثم نادى الثالثة : ليقم مَن أجره على الله فليدخل الجنة ، فقام كذا وكذا ألفاً فدخلوها بغير حساب »(١).

ومن جملة الذين يدخلون الجنة بغير حساب : الحمّادون في السرّاء والضرّاء ، ورجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى .

روى البيهقي في «الشُعَب» وابن مَرْدُويه وابن أبي حاتم وغيرهم عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، فيقوم منادٍ فينادي : أين الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء ؟ فيقومون ، وهم قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يعود فينادي أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ فيقومون ، وهم قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب ، فيعود فينادي : أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؟ فيقومون ، وهم قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب »(٢) .

---

(١) انظر ترغيب المنذري في موضعين منه .
(٢) انظر تفسير ابن كثير والدر المنثور من سورة النور .

تـَمثـّل الأعمال خيرها وشرّها

قال الله تعالى : « يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملتْ من خير محضراً ، وما عملتْ من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذّركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد » .

والمعنى : واذكر يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً أمامها مشهوداً معايناً لديها ، والذي عملته من الشر تودّ حين تراه لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً . أي مسافة بعيدة . أي تود لو أن بينه وبينها بعدَ المشرقين فلا يجتمعان ولا يلتقيان أبداً .

ويحذركم الله نفسه : والمعنى أن الله سبحانه يخوفكم نفسه فلا تتعرّضوا لغضبه وسخطه ، ولا لعذابه ولا لعتابه ولا لحجابه « والله رؤوف بالعباد » ومن رأفته بهم أنه حذرهم وأنذرهم عذابه وعقابه وغضبه ومَن أنذر فقد أعذر .

ففي هذه الآية : دليل على أن الاعمال كلها خيرها وشرها سوف يُحضرها الله تعالى يوم القيامة ويراها صاحبها . قال تعالى : « ووجدوا ما عملوا حاضراً » أي موجوداً ، وليس المراد حضورها في الكتاب ـ إذاً لقيل : ووجـدوا ما عملوا مكتوباً أو مسطوراً ! وإنما يرونه حاضراً بوجودٍ مثاليّ ، وذلك أن هناك عالماً كبيراً واسعاً يسمى عالم المثال تتمثّل جميع الأشياء فيه ؛ سواء كانت حسية أو معنوية ، وسواء كانت جسمية أو عقلية أو عملية ، تتمثل هناك بمثال يناسبها ، فالحسنات تتمثل بصور نيّرة حسنة ، والسيئات بصور مظلمة سيئة قبيحة .

روى الامام مسلم عن أبي مالك الاشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصبر ضياء ، والصدقة برهان ، والقرآن حجة لك أو عليك » . الحديث . فالصلاة تتمثل بصور نورانية لصاحبها ، والصيام ضياء له ، والصدقة ـ أي الزكاة ـ تأتي يوم القيامة برهاناً لفاعلها على صدق إيمانه ، والقرآن يقف مع العبد موقف الحجة له إن عمل به ، وعليه إن لم يعمل به .

روى مسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اقرأوا القرآن ، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرأوا الزهراوين(١) : البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان (٢) أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجّان عن صاحبهما ، اقرأوا البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البَطَلَة » يعني أن من واظب على قراءة سورة البقرة حلّت عليه البركة في عمره وعمله ورزقه وأهله وداره ، وحفظه الله تعالى من البطلة ـ أي السحرة ـ .

وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهلِه الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران » وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعدُ قال : كأنهما غمامتان أو ظُلّتان سوداوان بينهما

---

(١) تثنية زهراء وسميت بذلك لشدة نورها وجمالها .
(٢) الغمامة والغياية: كل شيء أظلّ الانسان فوق رأسه من سحابة أو غيرها. والمعنى أنها تظله من حر الموقف وشدة الحساب .

شَرْق ــ أي : ضوء ــ أو كأنهما فرقان من طيرٍ صوافّ تحاجّان عن صاحبهما » .

فقراءة سورة البقرة وآل عمران تتمثل يوم القيامة بطيور صواف أجنحتها يحاجان ويدافعان عن صاحبهما يوم القيامة .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الصيام والقرآن يشفعان بالعبد يوم القيامة ، يقول الصيام: ربِّ منعته الطعام بالنهار فشفعني فيه ، ويقول القرآن : ربّ منعته النوم بالليل فشفعني فيه ، فيشفعان » رواه أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني والحاكم كما في الترغيب للمنذري .

وقال الله تعالى : « وأنْ ليس للانسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » فأثبت سبحانه هنا أن للسعي أمرين : أحدهما أنه يُرى ، ثانيهما أنه يُجزى صاحبه الجزاء الأوفى ، فالسعي أي العمل سوف يراه صاحبه وغيره عياناً متمثلاً بصورة مناسبة له ، ولا يجوز أن يقال : سوف يرى جزاؤه لأنه جاء بعد ذلك قوله تعالى : « ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

وقال تعالى : « وقل اعملوا فسيرى اللهُ عملكم ورسولُه والمؤمنون » الآية .

وهكذا أعمال الشرّ والمخالفات تتمثل يوم القيامة بما يناسبها في القيامة من الصور المثالية .

قال الله تعالى : « ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شرٌّ لهم ، سيُطَوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير » . والمعنى : لا يحسبنّ الذين يبخلون أن يؤدّوا زكاة أموالهم

أن البخل خـــير لهم ، وتوفـير لمالهم وتكثـير له وحفظ له من النقصان ، بل إن البخل شرٌّ لهم في الدنيا والآخرة ، فإنه لا خير في مالٍ لا تؤدى زكاته ، وليعلموا أنهم « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » .

قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم في هذه الآية : يجعل ما منعه من الزكاة حيَّة تطوّق في عنقه يوم القيامة تنهشه من فرقه الى قدمه . وهذا مأخوذ من الحديث الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته مُثّل له يوم القيامة شجاعاً ــ أي ثعباناً عظيماً ــ أقرعَ له زبيبتان(١) يُطَوَّقَه يوم القيامة ثم يأخذ بلِهْزِمَتَيْه ــ يعني شِدقيه ــ ثم يقول : أنا مالُك أنا كنزك . ثم تلا « ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم » الآية .

وروى مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : انتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظلّ الكعبة فلما رآني قال : « هم الأخسرون وربِّ الكعبة » قال : فجئت حتى جلستُ فلم ألبث ــ أي أستقر ــ أنْ قمت فقلت : يا رسول الله ! فداك أبي وأمي مَن هم الأخسرون ؟ قال : « هم الأكثرون أموالاً إلا مَن قال : هكذا وهكذا وهكذا : من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله(٢) ، وقليل ما هم ؛ ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ماكانت وأسمنَه تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها ، كلما نفدت أخراها عادت عليه أولاها حتى يقضى بين الناس » .

فالحيوانات التي لا تُزكّى تعاد أسمن ما كانت تنطح صاحبها

(١) هما نكتتان سوداوان فوق عيني الحية الكبيرة .
(٢) والمراد : أنهم يكثرون الصدقات في سبيل الخيرات ولا يمنعون خيرهم لعباد الله تعالى ، فهؤلاء هم السالمون الرابحون من أغنياء المال ، ومن عداهم هم الأخسرون .

وتطؤه ، والذهب والفضة ونحوهما من المال الذي لا يزكّى ويسمى كنزاً فإنه يمثّل لصاحبه ثعباناً عظيماً كما تقدم في الحديث •

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ترك بعده كنزاً مُثّل له يوم القيامة شجاعاً ــ أي حية كبيرة ــ أقرع له زبيبتان يتبعه فيقول : مَن أنت ؟ فيقول : أنا كنزك الذي خلّفتَ • فلا يزال يتبعــه حتى يلقمه يده فيقضمهــا ــ أي يأكلها بأطراف أسنانه ــ ثم يتبعه سائر جسده »(١) •

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الذي لا يؤدي زكاة ماله يخيّل إليه ماله ــ أي يمثل له ماله ــ يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان• قال: فيلزمه أو يطوقه يقول: أنا كنزك ، أنا كنزك » • رواه النسائي باسناد صحيح •



---

(١) رواه البزار وقال : إسناده حسن • والطبراني وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما • كما في ترغيب المنذري •

يوم تبيَضُّ وجوه وتسودُّ وجوه

قال الله تعالى : « يوم تبيضُّ وجوه وتَسْودُّ وجوه • فأما الذين اسودَّت وجوههم : أكفرتم بعد إيمانكم ؟! فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون • وأما الذين ابيضَّت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون » • اللهم بيِّض وجوهنا يا أرحم الراحمين •

وفي هذه الآية إخبار عن حال الناس يوم القيامة ، وأن فريقاً منهم يبيض وجهه وفريقاً يسودّ وجهه • قال الحسن البصري رضي الله عنه في قوله تعالى : « فأما الذين اسودتْ وجوههم » قال : هم المنافقون ، كانوا أعطوا كلمة الإيمان بألسنتهم ، وأنكروها بقلوبهم وأعمالهم ا هـ • يعني : وأما الذين ابيضت وجوههم فهم أهل الايمان الصادق بالقلب واللسان والعمل •

وكما أن المنافقين تسودّ وجوههم كذلك الكفار تسوَّد وجوههم ويقال لهم : أكفرتم أي في عالم الدنيا بعد إيمانكم يوم أخذ الميثاق في عالَم الذَّرِّ يوم قال الله تعالى لكم : « ألست بربكم ؟ قالوا بلى » •

روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي بن كعب رضي الله عنه في قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » قال : صاروا فرقتين يوم القيامة يقال لمن اسودَّ وجهه : « أكفرتم بعد إيمانكم » فهو الإيمان الذي كان في صلب آدم حيث كانوا أمةً واحدة، وأما الذين ابيضت وجوههم فهم الذين استقاموا على إيمانهم وأخلصوا له الدين ، فبيَّض الله تعالى وجوههم وأدخلهم في رضوانه وجنته ا هـ •

ويدل على ذلك ما رواه الترمذي وحسنه وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : « يوم ندعو كلَّ أناسٍ بإمامهم » قال : « يُدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويُمدُّ له في جسمه ستون ذراعاً ويُبيَّض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ ، قال : فينطلق الى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون : اللهم بارك لنا في هذا . حتى يأتيهم فيقول : أبشروا فإن لكل رجل منكم مثلَ هذا ، وأما الكافر : فيعطى كتابه بشماله ويسوَّدُ وجهه ويمدُّ له في جسمه ستون ذراعاً ويجعل على رأسه تاج من نار فيراه أصحابه فيقولون : اللهم أخزِّه اللهم لا تأتنا به فيأتيهم فيقول : أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثلَ هذا » .

ففي هذا الموقف تبيض وجوه أهل الايمان والاستقامة ، ويُمنحون تاج العزة والكرامة ، وتسود وجوه الكفار ويقبَّحون بتاج المذلة والإهانة ، وإن تيجان الكرامة هي أنواع متعددة ، ويُعطاها أهلها على حسب مراتبهم ، فلأهل القرآن تيجان كرامة القرآن مع تيجان كرامة الايمان .

روى الترمذي وحسنه وابن خزيمة والحاكم وصحح إسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول : ياربِّ حلّه ، فيُلبس تاج الكرامة ثم يقول : ياربِّ زده فيُلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : ياربِّ ارضَ عنه ، فيرضى عنه فيقال له : اقرأ وارْق ، ويزداد بكل آية حسنة »

وعن سهل بن معاذ عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ قرأ القرآن وعمل به أُلبس والداه تاجاً يوم

القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا ، فما ظنكم بالذي عمل به ؟ ! » رواه أبو داود .

كما أن هناك ألوية تنصب يوم القيامة لأهل الخير والشر ، فينصب لكل متبوع من أئمة الهدى وأئمة الضلال لواء يعرف به .

قال الحافظ الزرقاني في شرح المواهب : وتنصب في القيامة مقامات لأهل الخير والشر لكل متبوع لواء يُعرف به قدره . اهـ .

فهناك ألوية العزة والكرامة لدعاة الهدى والرشاد ، يكرمهم الله تعالى بها ويعلن كرامتهم على مشهد من الخلائق ، تكريماً وتشريفاً لهم . قال العلامة النشور بِشْتي فيما نقله العلامة المناوي عنه : ولا مقام من مقامات عباد الله الصالحين أرفع وأعلى من مقام الحمد ، ودونه تنتهي جميع المقامات . اهـ . فلواء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فوق جميع الألوية المرفوعة لأهلها ، وهو عال مشرف على الكل ، وجميع الألوية وأصحابها تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، فله المقام الأكبر والمظهر الأنور الأشهر صلى الله عليه وسلم . وسيأتي بعض الكلام على بعض خصائص لوائه العالي صلى الله عليه وسلم .

وأما دعاة الشر وأئمة الضلالة فأولئك لهم ألوية الذلة والمهانة تشهيراً وفضيحة لهم .

روى الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة العصر ثم قام خطيباً ، فلم يدعْ شيئاً يكون الى قيام الساعة إلا أخبرنا به ، حفظه مَنْ حفظه ونسيه من نسيه ، وكان فيما قال : « إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، ألا إنه يُنصب لكل غادرٍ لواء يوم القيامة بقدر غدْرته ولا غدرة أعظم من

غدرة إمام عامَّةٍ ، يُركز لواؤه عند استه » . الحديث ، وهو حسن صحيح . وفي الصحيحين : « إن الغادر يُنصب له لواء يوم القيامة » .

وهكذا أئمة الضلال تحمل عليهم ألوية الخزي والمهانة ويقودون أتباعهم الى النار كما قادوهم الى الكفر في الدنيا .

قال الله تعالى مخبراً عن فرعون : « يَقْدُمُ قومَه يوم القيامة فأوردهم النار ، وبئس الوِردُ المورود » .

وروى الامام أحمد عن أبي هريرة عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « امرؤ القيس حاملُ لواء شعراء الجاهلية الى النار » . ورواه ابن عساكر وغيره بلفظ: « امرؤ القيس قائد الشعراء الى النار ».

قال العلامة المناوي في شرح الجامع الصغير : تنبيه : قال العلامة القرطبي : هذا الحديث وما قبله يدل على أن من كان إماماً درّاساً في أمرٍ ما هو معروف به فله لواء يُعرف به خيراً كان أو شراً ، فللأولياء والصالحين ألوية تنويه وإكرام وإفضال ، كما أن للظالمين ألوية فضيحةٍ وخزي ونكال .

* * *

عالـم الميزان

قال الله تعالى : « والوزنُ يومئذ الحقُّ ، فمَنْ ثَقُلتْ موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفّت موازينـه فأولئك الذين خسروا أنفسَهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » .

فوزن الأعمـال والأقوال يوم القيامـة هو حقٌّ ثابت محقّق الوقوع لا محالة لإظهار الحق . « والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه » جمع موزون وهو العمل ، أو جمع ميزان ، وهو ما له لسان وكفّتان توزن فيه الاعمال والأقوال .

« فمَن ثقلت موازينـه » أي رجحت حسناته « فأولئك هـم المفلحون » أي الذين ظفروا بالبغية ونالوا غاية الأماني . « ومن خفت موازينه » أي موازين حسناته بأن رجحت سيئاته على حسناته « فأولئك الذين خسروا أنفسهم » وهذا أعظـم الخسران « بما كانوا بآياتنا يظلـمون » فإنهم لما ظلموا بآيات الله تعالى وضيعوها ولـم يَرْعوها حقها باتباع ما جاء فيها ، أضاعهم الله تعالى وأوقعهم في الخسران المبين ، وهو خسارة أنفسهم قال تعالى : « قل إن الخاسرين الـذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين » .

فلا يثقل الميزان إلا بالحسنات والأعمال الصالحة ، فإن بها صلاحَ النفس وصلاح الأهل وصلاح المجتمـع ، وبها يصلح الانسان لأنْ يَدخل في حضرة الله تعالى ، وأن يتقرب بها الى الله تعالى ، ويكون في جنة الله عز وجل ، ويحلّ في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

ومن جملة الحسنات المثقلة للميزان : الإكثار من التسبيح والتحميد • وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان الى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » •

وروى النسائي وابن حبان وصححه ـ واللفظ له ـ عن ثوبان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بخٍ بخٍ خمس ما أثقلهنّ في الميزان ! سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، والولد الصالح يُتوفّى للمرء المسلم فيحتسبُه »• أي فيصبر ويحتسب الأجر عند الله تعالى •

ومما يثقل الميزان : حسن الخلق وطول الصمت • فقد روى ابن أبي الدنيا والبزار وأبو يعلى والطبراني والبيهقي بسند حسن عن أنس رضي الله عنه قال : لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر فقال : « ألا أدلك على خصلتين : هما خفيفتان على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما ؟ » قال بلى يا رسول الله ؟ قال : « عليك بحسن الخلق وطول الصمت ، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما » •

وروى أبو داود والترمذي وصححه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من شيء يوضع في الميزان يوم القيامة أثقل من خُلُقٍ حسن » •

ومما يثقل به الميزان : كثرة الدعاء • فقد روى أبو داود وغيره عن أبي الأزهر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل قال : « بسم الله ، وضعت جنبي لله ، اللهم اغفر لي ذنبي ، وأخْسىء شيطاني ، وفكّ رهاني ، وثَقّل ميزاني ، واجعلني في النديّ الأعلى » •

ومما يثقل به الميزان : أثر العلم النافع . فقد أخرج ابن عبد البرّ عن إبراهيم النخعي قال : يُجاء بعمل الرجل فيوضع في كِفَّةِ ميزانه يوم القيامة فيخفّ ، فيجاء بشيء أمثالِ الغمام فيوضع في كَفة ميزانه فترجح كفته ، فيقال له : أتدري ما هذا ؟ فيقول : لا . فيقال له : هذا فضل العلم الذي كنت تعلّمه الناس .

وأخرج ابن المبارك في الزهد عن حمّاد بن أبي سليمان قال : يجيء رجل يوم القيامة فيرى عمله محضراً ، فبينما هو كذلك إذ جاءه مثل السحاب حتى يقع في ميزانه فيقال له : هذا ما كنتَ تعلّم الناس من الخير فورِث بعدك فأُجِرْت فيه . اهـ . ذكر ذلك في الدر المنثور وغيره .

وقال تعالى : « القارعة ما القارعة . وما أدراك ما القارعة . يوم يكون الناس كالفَراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش . فأمَّا من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . وأما من خفّت موازينه فأمّه هاوية . وما أدراك ماهيه . نار حامية » .

أصل القَرْع الصوت الشديد، ومنه : قوارع الدهر أي شدائده. والقارعة هي اسم من أسماء القيامة ، سميت بذلك : لأنها تقرع القلوب بالفزع والأهوال والشدائد ، أو بسبب صوت إسرافيل عليه السلام حين ينفخ في الصور نفخة الإماتة فتموت الخلائق من شدة صوت نفخته.

« القارعة ما القارعة » فيه تهويل لأمرها وتعظيم لداهم خطرها . والمعنى : أنها فاقت جميع القوارع في هولها وشدتها ، فهي القارعة كلّ القارعة التي لا تشابهها أيّ قارعة .

« وما أدراك ما القارعة » أي لا علم لك بكنهها ، لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها الفهم ولا يتصور عِظمها الوهم بل هي أشد وأعظم ، وأدهى وأمرّ .

« يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » والفَراش هو الـذي تتهافت في النار ، سميت بذلك لتفرشها وانتشارها ، وهكذا الناس يومئذ يبعثون من قبورهم ، يكونون كالفراش المبثوث ، المتفرق المتطاير الثائر المنتشر .

« وتكون الجبـال كالعهن المنفوش » أي كالصوف المنـدوف المتطاير ، بعد أن كانت عظيمة صلدة صلبة .

« فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشةٍ راضيةٍ » ذاتِ رضاً ترضي صاحبها كل الرضا ، أو مرضية يَرضى بها صاحبها كل الرضا . اللهم اجعلنا منهم .

« وأما من خفّت موازينه فأمـه هاوية » أي مأواه الذي يؤيه هو الهاوية أي النار ، سميت بذلك لأنها مهواة عميقةُ القعر يهوون فيها على رؤوسهم سبعين خريفاً ، والعياذ بالله تعالى .

« وما أدراك ماهيه » أي وما أدراك ما الهاوية ! إن أمرها عظيم وخطرها جسيم .

« نار حامية » أي قوية الحرارة ، أليمة العذاب .

وفي هذا تحذير وتخويف للعباد لئلا يسلكوا طريق تلك النار الحامية بل يباعدوا أنفسهم عن اقتراف أسباب عذابها من المحرمات والمخالفات التي نهى الله تعالى عنها ، لأن عذاب تلك النار أليم وإنها نار الحميم ، وانها نار الله الموقدة ، فلا يتخذوها هزواً ولا يستهينوا بجانبها ، ولا يفعلوا المحرمات فيقعوا في أشراكها وأوديتها . فليحذر العاقل ، وليعلم الجاهل ، ولينتبه الغافل انها الهاوية « وما أدراك ماهيه نار حامية » .

ولقد بيَّن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي قال الله

تعالى له : « لتبين للناس ما نزّل إليهم » . بيّن حماوة تلك النار وشدة حرها فقال كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ناركم هذه ـ ما يوقد بنو آدم ـ جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » قالوا : والله إنْ كانت لكافية ـ أي إنها إنْ كانت في حرارتها كافية ـ قال : « إنها فضّلت عليها بتسعةٍ وستين جزءاً ، كلهنّ مثل حرّها » .

قال الحافظ المنذري في الترغيب : ورواه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقي فزادوا فيه : « وضُربت ـ أي نار الدنيا ـ بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة واحدة » .

وهنا قف واعتبر واعلم ما للبحر المحيط في كرة الأرض من تعديلاتٍ في أجواء الأرض ، وتأثيرات على مافي الأرض ، حتى على نارها ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر ناركم هذه فقال : « إنها لجزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وماوصلت إليكم حتى ـ أحسبه قال : نُضِحت مرتين بالماء ـ أي ماء البحر ـ لتضيء لكم ، ونار جهنم سوداء مظلمة » . رواه البزار والحاكم وصححه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم »(١) .

فهي نار حامية حقاً وحقيقة « إنه لقول فصل وما هو بالهزل »

---

(١) قال في الترغيب : رواه أحمد ورواته رواة الصحيح . ا هـ هذا ، وإن تفاصيل الكلام على أوصاف جهنم وشدة حرها وألوان عذابها وجميع ما يتعلق بها وبأهلها سوف يأتي ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

فلا تهزل أيها المسلم في آيات الله تعالى وتتخذها هزواً فتقول : هذا من باب الإيهام في التخويف ، وليس من باب الحقيقة . بل هو من باب الحق والحقيقة .

قال الله تعالى : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » الآية . فإنزال القرآن بالحق هو حفظ الله تعالى له من تلاعب الشياطين حين أنزله ، وقد نزل به الروح الأمين بجمهرة من الملائكة حتى انتهى إلى قلب السيد الأكرم صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم المعصوم بعصمة ربّ العزة « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » .

وأما معنى « وبالحق نزل » أي : ونزل هذا القرآن ببيان الحق الكاشف عن حقيقة الامور ، فلا هزل فيه ولا لهو ولا عبث ولا باطل . قال تعالى : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

وقال تعالى : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون » الآيات . وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه بسبب اتباعهم الحق الذي جاءت به الرسل صلوات الله تعالى عليهم من عند الله تعالى الملك الحق ، وطبقوا أوامر الحق في أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم . وإن لكل حقٍّ حقيقةً ثابتة يثقل بها الميزان . وإنما خفت موازين مَن خفّت موازينه بسبب اتباعهم الباطل ، وإن الباطل لا حقيقة له ثابتة ، وإنما هو « كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » .

ويشير الى ذلك ما جاء في وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه الى الفاروق رضي الله عنه حين استخلفه وأوصاه فقال له : يا عمر ! إني قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يا عمر

إن لله تعالى حقاً في الليل ولا يقبله في النهار ، وحقاً في النهار ولا يقبله في الليل ، وإنه لا يقبل نافلةً حتى تؤدى الفريضة . ألم تر يا عمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم ، وحُقّ لميزانٍ لا يوضع فيه غداً إلا حقٌ أن يكون ثقيلا . ألم تر يا عمر أنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفّته عليهم . وحُقّ لميزانٍ لا يوضع فيه غداً إلا الباطل أن يكون خفيفاً . ألم تر يا عمر أنما أنزلت آية الرجاء مع آية الشدة ، وآية الشدة مع آية الرجاء ، ليكون المؤمن راغباً راهباً ، لا يرغب رغبةً يتمنى على الله تعالى ما ليس له ، ولا يرهب رهبة يلقي فيها بيديه — أي بأن يقنط من رحمة الله تعالى — .

ألم تر يا عمر أنما ذكر اللهُ تعالى أهلَ النار بسوء أعمالهم فاذا ذكرتَهم قلت : إني لأرجو أن لا أكون منهم ، وأنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز عمّا كان من سيّىء ، فإذا ذكرتهم قلت : أين عملي من أعمالهم . أي فتنظر الى تقاصر أعمالك بالنسبة لأعمالهم ولكنك ترجو من الله أن يجعلك منهم ويكرمك بما أكرمهم .

فلا تغرنك نفسك أيها الأخ المؤمن مهما علتْ بك المراتب وارتفعتَ في المقامات والدرجات ومهما زكت نفسك بالاعمال الصالحة والأقوال الطيبة ، وليكن شأنك شأن المؤمنين المقربين الذين وصفهم الله تعالى في سورة المؤمنين بقوله تعالى: «والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » .

روى الترمذي عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها أم المؤمنين أنها قالت : يا رسول الله « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » أهم الذين يزنون ويسرقون ؟ قال : « لا يا ابنة الصديق ! ولكنهم الذين يصلّون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يتقبل منهم» .

ولفظ أحمـد : قالت : يا رسول الله « الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجلّ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « لا يا بنت الصديق ! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجلّ » . فهؤلاء لما خافوه وخافوا أن لا يتقبل صلواتهم وصدقاتهم لاحتمال أنهم قد قصروا في القيام بشرط القبول والعطاء ، فلما خافوا من ذلك أمنهم الله تعالى من جميع ما هنالك يوم القيامة لأن الله تعالى لا يجمع على عبد خوفين ولا أمنين : فمن خافه في الدنيا أمنه في الآخرة ، ومن أمـنه في الدنيا أخافه في الآخرة كما ورد في الحديث .

* * *

دقة الميزان وأنواع الموازين

قال الله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبةٍ من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ».

في هذه الآية الكريمة تتجلى عظمة الفضل الإلهي ، وحقيّة العدل الرباني ، فإن المحاسبة والميزان سوف يأتيان على مثاقيل الحبّات ومقادير الذرات ، لأن الرقيب على أعمال العباد هو الحسيب العليم الحاسب : هو الله تعالى رب العالمين الذي لا تخفى عليه خافية .

يقول سبحانه وتعالى : « ونضع الموازين القسط » أي ونُحضر الموازين ذاتَ القسط الذي هو العدل وهي الموازين المستقيمة كل الاستقامة فلا يجري فيها ظلم ولا نقص ولا بخس .

والموازين هنا جمع ميزان : وهو ما يوزن به الشيء وله كِفّتان ولسان .

وإنما جمع الموازين إما لتعددها ، فهناك ميزان أعمال القلوب ، وميزان لأعمال القوالب والجوارح ، وميزان لأقوال اللسان ، وميزان للإيماءات القولية ، وميزان للأخلاق ، وميزان لأحوال القلوب ، وميزان لاحوال النفوس ، وميزان وميزان ....

وقيل : جمعها لاعتبار تعدد الأعمال والأقوال الموزونة بها .

وقيل : جمع الموازين مع أنها ميزان واحد لتعظيم شأن الميزان .

«ونضع الموازين القسط ليوم القيامة» أي لأجل أهل يوم القيامة.

« فلا تظلم نفس شيئاً » أي فلا ينقص مما لها شيء ولا يزاد فيما عليها شيء « وإن كان مثقال حبة من خردل » ــ أي صغيرة جزئية ــ « أتينا بها » أي أحضرناها للحساب ووضعناها في الميزان ، لأنه لايغيب عن علمنا شيء ، ولا يُعجز قدرتنا إحضار شيء ، فهو سبحانه بكل شيء عليم ، وهو على كل شيء قدير . وإنما أنّث ضمير المثقال لإضافته الى الحبة ، ونظير هذا قوله تعالى : « إن الله لا يظلم مثقال ذرّةٍ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤتِ من لدنْه أجراً عظيماً » .

فهو سبحانه لا يظلم العبد مثقال ذرةٍ أي لا يزيد في عقوبة المسيء مثقال ذرة فوق إساءته وعقابه ، ولا ينقص من أجر المحسن مثقال ذرة من حسنته وثوابه .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الذرّة رأس نملة حمراء ، وقال بعضهم : الذرّة كل جزءٍ من أجزاء الهباء الذي يكون في الكوّة إذا كان فيها ضوء شمس .

ومن المعلوم أن هذاشيء صغير جداً جداً ، ولكنه مَثَل ضربه الله تعالى لأقل الأشياء ليبين لعباده أنه لا يظلم أحداً شيئاً من قليل ولا من كثير .

ثم يبين سبحانه سعة فضله وكرمه بعد مابيّن تمام عدله فقال سبحانه : « وإنْ تكُ حسنة يضاعفها » أي وإن تك تلك الذّرة الجزئية حسنة يضاعفها الى عشر أمثالها ، الى سبعين ضعفاً ، الى سبعمائة ضعفٍ الى أضعاف كثيرة كما ورد في الأحاديث . ومع ذلك فإنه سبحانه كما قال : « ويؤتِ من لدنْه أجراً عظيماً » . فما أعظم فضله وما أوسع كرمه سبحانه ...

روى الإمام أحمد من طريقين عن أبي عثمان النّهدي قال : أتيت أبا هريرة فقلت له : بلغني أنك تقول إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة ، فقال : وما أعجبك من ذلك ؟ فوالله لقد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله ليضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة » . وقد أورد ابن كثير هذا الحديث من طريقين آخرين أسندهما ابن أبي حاتم .

ومن عظيم فضله سبحانه أن حسنة المؤمن وإنْ دقّتْ تنفعه في الدنيا والآخرة ، وأما الكافر فينعم بها في الدنيا ، وأما في الآخرة فلا ينعم بها .

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه في قوله تعالى : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها » الآية ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا يظلم مؤمناً حسنةً : يُعطى بها في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيُعطى بحسناتٍ قد عمل بها في الدنيا ، حتى إذا أفضى الى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها » أي ينعم بها . وهذا لا يتنافى مع ما ورد من أن حسنات الكافر تخفّف عنه من شدة العذاب لا من مدته يوم القيامة . والمراد بالحسنات التي تخفف عن الكافر من شدة العذاب هي الاعمال التي فيها منافع للعباد أو دفع مضارٍّ ، أو رفق بحيوان ونحو ذلك مما لم يُشترط فيه الاسلام ، وأما تعبّداتهم وطاعاتهم التي يزعمونها فإنها لا تقبل منهم ، لعدم وجود الاسلام الذي هو أساس في قبولها . قال تعالى : « وقَدِمنا الى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً » أي ما عملوا من قربات وطاعات وتعبدات في زعمهم ، وأمّا ما عملوه من نفع للعباد ودفع الضرر عنهم والرفق بعباد الله تعالى وبالانسان وبالحيوان فذلك ينفعهم في الدنيا ويخفّف عنهم من شدّة العذاب في الأخرى ، لا من مدّته ، كما عليه المحققون ، جمعاً بين الأدلة الواردة في ذلك . وسيأتي تفصيلها في القسم الثاني حين نتكلم على عالم الجنة وعالم النار إن شاء الله تعالى .

هل الوزن يأتي على الأعمال أم على كتب الأعمال

اختلف علماء السلف رضي الله عنهم في الموزون : أهو الأعمال والأقوال أم كتب الاعمال والاقوال ؟ ولكلٍ وجهة ودليل .

فذهب كثير من العلماء الى أن الأعمال والأقوال توزن في الميزان .

قال البخاري في صحيحه : باب قول الله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » وأن أعمال بني آدم وأقوالهم توزن . وقال مجاهد : القسطاس العدل ــ بالرومية ــ ، ويقال : القِسط مصدر المقسط وهو العادل ، وأما القاسط فهو الجائر .

ثم روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلمتان حبيبتان الى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». وبهذا الحديث استدل البخاري على أن ذات الأقوال والكلمات توزن والأعمال كذلك .

وروى مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الطّهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ــ أو تملأ ــ ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجّة لك أو عليك كلّ الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبِقها » .

وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : إن رجلاً قعد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني ، وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « يُحسَب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابُك إياهم ، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً : لا لك ولا عليك ، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك ، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتُص لهم منك الفضل » .

قال : فتنحّى الرجل فجعل يبكي ويهتف فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما تقرأ قول الله تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبةٍ من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين » ؟ فقال الرجل : يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء خيراً من مفارقتهم ، أُشْهدكَ أنهم كلّهم أحرار .

وروى الطبراني في الأوسط عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أوّل ما يوضع في ميزان العبد نفقته على أهله »(١) . يعني أنه يؤجره الله تعالى عليها إذا أنفقها على أهله وهو يحتسبها كما ورد .

وروى أبو داود وغيره عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من شيء في الميزان أثقل من حُسن الخُلق » .

فهذه الأحاديث تدل على أن الاعمال والاقوال والاخلاق هي التي توزن في الميزان . وقد يَرِد على ذلك إشكال وهو : أن الأعمال والأقوال هي أعراض فيكف يأتي عليها الوزن وتوزن في الميزان .

---

(١) انظر ترغيب المنذري .

والجواب عن ذلك كما قال المحققون من أهل العلم والمعرفة هو : أن هناك عالـَماً يسمـّى « عالم المثال » تتمثل فيه جميع المحسوسات والمعاني والأعمال والأقوال حسب المناسبات . فهناك تتمثل الاعمال الصالحة والاقوال الطيبة بصورة حسنة نيـِّرة ، وهناك تتمثل الاعمال الخبيثة بصورٍ سيئةٍ قبيحة مظلمة كل ذلك على حسب المناسبات لتلك العوالم التي تتمثل فيها .

والكلام على المثال وتفاصيله أوضحناه في كتابنا « الإيمان بالملائكة عليهم السلام » . وقد تقدم في هذا الكتاب البحث في تمثل الاعمال يوم القيامة بصور مختلفة .

وذهبت طائفة من العلماء الى أن الذي يوزن يوم القيامة هو كتب الأعمال والأقوال واستدلوا على ذلك بحديث البطاقة المشهور .

روى الامام الترمذي في سننه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل سيخلـِّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق فينشر له تسعة وتسعين سجلاً كل سجلٍّ مدَّ البصر، فيقول الله تعالى له : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمكَ كتبتي الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ّ . فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب ّ . فيقول الله عز ّ وجل : بلى إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتـُخرَج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول الله له : احضـُر وزنكَ ، فيقول : يا رب ّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى : إنك لا تـُظلم . فتوضع السجلات في كـِفة ، والبطاقة في كـِفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ؛ ولا يـَثقـُل مع اسم الله تعالى شيء » .

فهـذا الحديث صريح في أن الذي يوضع في الميزان هو كتب الأعمال والأقوال .

فإن قيل : كيف رجحت بطاقة شهادة هذا على تلك السجلات المليئة بالذنوب مع أن جميع العصاة من المسلمين عندهم هذه الشهادة ولم تترجح على كتب معاصيهم وذنوبهم ؟

فالجواب عن ذلك له وجوه متعددة :

أولا : إن كلمة الشهادتين قد تكون هي بها الاسلام ، وقد تكون حسنة من الحسنات التي أتى صاحبها بعد الدخول في الاسلام :

فمن كان كافراً فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله أو قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ودخل بها في الاسلام ، فإن هذه الشهادة وهي شهادة الاسلام تهدم ما قبلها من الذنوب والمعاصي كما جاء في صحيح مسلم عن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له حين جاء يبايعه على الاسلام : « أما علمت أن الاسلام يهدم ما قبله ، وأن الهجرة تهدم ما قبلها ، وأن الحج يهدم ما قبله » الحديث .

وأما من كان مسلماً وتشهّد أو هلّل فإن ذلك يعتبر حسنة بل من أكبر الحسنات ، كما جاء في الحديث الذي رواه الامام أحمد في مسنده عن أبي ذرٍ رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله : أوصني ! فقال صلى الله عليه وسلم : « إذا عملتَ سيئةً فأتبعها بحسنة تمحُها » قال : قلت : يا رسول الله ، أمِنَ الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال : « هي أفضل الحسنات » .

والمعنى أن لا إله إلا الله تمحو من السيئات على حسب إخلاص قائلها فيها ، كما هو شأن سائر الحسنات ، بل هي أفضل الحسنات ، وقد قال تعالى : « إن الحسنات يذهبن السيئات » الآية .

فصاحب البطاقة الوارد ذكره في الحديث السابق ـ فيه قولان :

الأول : يحتمل أنه كان كافراً ثم أسلم في آخر عمره وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وختم له بذلك فحينئذ يكون بها إسلامه ، والاسلام يهدم ما قبله من الذنوب .

والقول الثاني : أنه كان مسلماً لكنه مسرف على نفسه بكثرة ذنوبه التي ملأت تسعة وتسعين سجلاً بالخطايا والذنوب ، ولكنه له حسنة كبيرة قد تقرّب بها الى الله تعالى وهي « لا إله إلا الله محمد رسول الله » المسطورة في البطاقة الصغيرة الحجم ، لكنّ صاحبها قد قالها في آخر عمره ، وقد نطق بهاتين الشهادتين منيباً الى ربه ، تائباً من ذنوبه ، خائفاً من العقاب ومن سوء الحساب ، مقبلاً بقلبه على الله تعالى ، خائفاً من ذنبه ، راجياً رحمة ربه . هكذا كانت خاتمة عمره فكانت المغفرة عاقبة أمره .

والحاصل أن خاتمة هـذا الرجل كانت حسنة ، وهي الشهادة الصادرة عن قلب منيب ، وعن توبة الى الله تعالى من جميع الذنوب ، وعن خوف من الله تعالى أن يعاقبه على ذنوبه ، وعن رجاءٍ من الله تعالى أن يرحمه فيغفر له ، وكان له ذلك لأن العبرة بالخواتيم . اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها . فيكون هذا الرجل هو نظيرَ الرجل الآخر الذي ورد أنه قتل تسعةً وتسعين نفساً ، ثم ذهب الى القوم العابدين ليعبد الله تعالى ، تائباً من ذنبه منيباً الى الله تعالى بقلبه ، فجاءه الموت قبل أن ينتهي الى القوم العابدين ، وهناك يأمر الله تعالى الملائكة أن يقيسوا بين الأرض التي خرج منها ، والارض التي أرادها ، فإلى أيّهما أقرب ؟ فاذا هو أقرب الى الارض التي أرادها بشبر ، فغفر الله تعالى له وألحقه بالتائبين العابدين .

ورد في الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعةً وتسعين

نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلَّ على راهب ـ أي عابد غير عالم ـ فأتاه فقال له إنه قتلَ تسعة وتسعين نفساً ، فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُلَّ على رجل عالم ، فقال له : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ومن يحول بينك وبين التوبة ؟! انطَلِقْ الى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ولا ترجع الى أرضك ، فإنها أرض سوء . فانطلَقَ حتى إذا نَصَفَ الطريق أتاه ملك الموت .. » الى تمام الحديث ، كما تقدم في بحث لقاء الله تعالى .

فصاحب البطاقة الذي نحن في بحثه ، وشمولُ المغفرة له هو من جهة حسن العاقبة نظير هذا الرجل الذي قتل مائة نفس الذي قالت فيه ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، ولكن قالت فيه ملائكة الرحمة : إنه جاء تائباً مقبلا بقلبه الى الله تعالى .

القول الثالث : قال بعض العلماء : إن صاحب البطاقة أراد الله الغفور الرحيم أن يكرمه إكراماً خاصّاً ، ويعلن ذلك على رؤوس الخلائق ، فغفر له جميع ذنوبه ومحاها عنه بسبب تلك الشهادة التي تقرّب بها الى الله سبحانه .

فهذا من باب الإكرام الإلهي الخاصّ به ، كما يشير الى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في صدر الحديث : « إن الله تعالى سيخلّص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق » .

هذا وإن الله تعالى الغفور الرحيم يغفر لمن يشاء من المذنبين المرتكبين الذين لم يتوبوا ، فضلاً منه وكرماً ، كما هو الاعتقاد عند أهل السنّة والجماعة ، ويعذب مَن يشاء من العصاة المرتكبين ، فالأمر عائد إليه سبحانه وتعالى .

★ ★ ★

موقف الامتحان الاعتقادي والعملي

إن أول الامتحانات التي تمرّ على الانسان حين ينتقل من عالم الدنيا الى عالم الآخرة ــ هو الامتحان بالسؤال الذي يلقى عليه في القبر الذي هو أول برازخ الآخرة كما تقدم .

وإن الامتحانات التي تجري عليه يوم القيامة هو الامتحان في العقيدة والعمل .

أما الامتحان الاعتقادي : فإن الله تعالى يمتحن العباد يوم القيامة في معتقداتهم التي اعتقدوها برب العالمين حين كانوا في الدنيا ، وبهذا الامتحان يتميّز المنافق الكاذب من المؤمن الصادق ، ويظهر أهل الإيمان الصحيح والاعتقاد الصادق ، وأهل الايمان الكاذب والعقيدة الفاسدة .

وأما الامتحان العملي : فإن الله تعالى يمتحن العباد يوم القيامة بأمرهم بالسجود له سبحانه ، وبهذا الامتحان يتبيّن المؤمن الصادق المخلص بعباداته ، ممن هو كان في الدنيا منافقاً أو مرائياً في عباداته وأعماله .

روى ــ الشيخان واللفظ لمسلم ــ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة ؟ فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم : « هل تُضارّون(١) في رؤية القمر ليلة البدر؟ » قالوا : لا يا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل تُضارّون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ » قالوا : لا يا رسول الله . قال : « فإنكم ترونه كذلك »(٢) .

« يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : « مَن كان يعبد شيئاً فليتّبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع مَن كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت(٣) الطواغيتَ ، وتبقى هذه

---

(١) قال الامام النووي رحمه الله تعالى : وفي الرواية الأخرى : « هل تُضامُّون » وروى « تُضارون » بتشديد الراء وبتخفيفها ، والتاء مضمومة فيهما ، ومعنى المشدّدة : هل تضارّون غيركم في حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة في الرؤية أو غيرها لخفائه كما تفعلون أول ليلة من الشهر ؟ . ومعنى المخفّفة : هل تلحقكم في رؤيته ضير ؟ وهو الضرر .

وروي أيضاً : « تضامُّون » بتشديد الميم وتخفيفها . فمن شدّدها فتح التاء ، ومن خفّفها ضمّ التاء ، ومعنى المشدّد : هل تتضامّون وتتلطفون في التوصل الى رؤيته ؟ ومعنى المخفّف : هل يلحقكم ضيم ؟ وهو المشقة والتعب .

قال : وفي رواية للبخاري : « لا تضامون أو لا تضارون » على الشك (من الراوي) ومعناه : لا يشتبه عليكم وترتابون فيه ، فيعارض بعضكم بعضاً في رؤيته . والله أعلم . ا هـ .

(٢) ووجه التشبيه في ذلك : هو قوة الجلاء والوضوح وزوال الشك والمشقة والاختلاف . كما في شرح مسلم .

(٣) جمع طاغوت ، وهو كل ما عُبد من دون الله تعالى ، لما في ذلك من الطغيان ، ولذا قال علماء اللغة : هو على وزن فعلوت ، والتاء زائدة ، وهو مشتق من طغى ، وتقديره : طَغَوُوت ، ثم قلبت الواو ألفاً .

الأمّة فيها منافقوها(١) ، فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورةٍ غير صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه . فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا فيتبعونه(٢) ، ويُضرب الصراط بين ظَهرَي جهنم ، فأكون أنا وأمتي أوّل مَن يجيز » الحديث . وسيأتي تمامه إن شاء الله تعالى .

الكلام على الصورة الوارد ذكرها في الحديث المتقدم :

قال الامام النووي رضي الله عنه : اعلم أن لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين :

أحدهما : وهو مذهب معظم السلف أو كلهم أنه لا يتكلّم في معناها ، بل يقولون : يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد لها معنى يليق

---

(١) قال الامام النووي رحمه الله تعالى : قال العلماء : إنما بقوا ــ أي بقي المنافقون من هذه الأمة في جملة المؤمنين من هذه الأمة ــ إنما بقوا في زمرة المؤمنين لأنهم كانوا في الدنيا متسترين بهم ، فيتستّرون بهم أيضاً في الآخرة ، وسلكوا مسلكهم ودخلوا في جملتهم وتبعوهم ومشوا في نورهم ، حتى ضُرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبله العذاب ، وذهب عنهم نور المؤمنين . قال بعض العلماء : هؤلاء هم المطرودون من الحوض الذين يقال لهم : سحقاً سحقاً . والله أعلم . اهـ .

(٢) أي فيتبعون أمر الله تعالى إياهم بذهابهم الى الجنة ، أو يتبعون دعوة الله تعالى لهم الى الجنة ، فيستجيبون لدعوته . قال تعالى : « والله يدعو الى دار السلام ، ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم » . فكما أنه سبحانه دعاهم الى دار السلام حين كانوا في الدنيا ليستعدّوا لها بامتثال أوامره والقيام بعبادته واجتناب ما نهاهم عنه فاستجابوا لذلك ، كذلك يدعوهم الى دار السلام يوم القيامة ليسعدهم بدخولها ، وينعمهم بأثمارها وأنوارها وأسرارها ، فيدخلهم دار السلام ويحييهم بالسلام . قال تعالى : « تحيتهم يوم يلقونه سلام » وقال تعالى : « سلام قولاً من ربٍّ رحيم » .

بجلال الله تعالى وعظمته ، مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء ، وأنه منزّه عن التجسّم والانتقال والتحيّز في جهة ، وعن سائر صفات المخلوقين . وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين واختاره جماعة من محقّقيهم ، وهو أسلم .

والقول الثاني : وهو مذهب معظم المتكلمين أنها تتأوّل على ما يليق بها ، على حسب مواقعها . ـ والتأويل هو : صرف الكلام عن ظاهره الموهم للتشبيه ، الى معنى آخر لائق وموافق لبقية النصوص مع التنزيه ـ .

قال رضي الله عنه : وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله ، بأن يكون عارفاً بلسان العرب ، وقواعد الاصول والفروع ، ذا رياضةٍ في العلم . فعلى هذا المذهب يقال في قوله صلى الله عليه وسلم : « فيأتيهم الله » : إن الإتيان عبارة عن رؤيتهم إيّاه سبحانه ، لأن العادة أن من غاب عن غيره لا يمكنه رؤيته إلا بالإتيان ، فعبّر بالاتيان والمجيء هنا عن الرؤية مجازاً .

وقيل : الإتيان هو فعل من أفعال الله تعالى سمّاه إتياناً .

وقيل : المراد بـ « يأتيهم الله » : أي يأتيهم بعض ملائكة الله تعالى ، قال القاضي رحمه الله تعالى : وهذا الوجه أشبه عندي بالحديث . قال : ويكون هذا الملَك الذي جاءهم في الصورة التي أنكروها من سِمات الحَدَث الظاهرة على الملك والمخلوق .

قال : أو يكون معناه : يأتيهم الله في صورة أي يأتيهم بصورة ، ويظهرها لهم من صور الملائكة ومخلوقاته التي لا تشبه صفات الإله ليختبرهم ، وهذا آخر امتحان المؤمنين فاذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصورة : أنا ربكم : رأوا عليه من علامات المخلوق ما ينكرونه ويعلمون أنه ليس ربّهم ، ويستعيذون بالله منه . اهـ .

قال الامام النووي رضي الله عنه : وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون » : فالمراد بالصورة هنا الصفة ، ومعناه : فيتجلّى الله سبحانه وتعالى لهم على الصفة التي يعلمونها ويعرفونه بها ، وإنما عرفوه بصفته وإن لم تكن تقدّمت لهم رؤية له سبحانه وتعالى : لأنهم يرونه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ، وقد علموا ـ أي حين كانوا في الدنيا ـ أنه سبحانه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته، فيعلمون أنه ربهم فيقولون : أنت ربّنا . وإنما عبّر بالصورة عن الصفة لمشابهتها إياه ، ولمجانسة الكلام ، فإنه تقدم ذكر الصورة . ا هـ . أي فيكون هذا من باب المشاكلة ، وهو فنّ بديع من أنواع البديع ، وذلك بأنْ يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبة غيره ، تحقيقاً أو تقديراً . كما هو معروف في موضعه .

وإنما فسّر العلماء الصورة الواردة في هذا الحديث بالصفة ، لأن تفسير الصورة بالهيئة الشكلية لا يجوز في جناب الحق جلّ وعلا ، فإنه سبحانه منزّه عن الهيئة وعن التشكّل بشكل ، لأن ذلك من سمات الحوادث الجسمية ، وإن الله تعالى ليس بجسم ولا بجسماني ، ولا هو روح ولا روحاني ، بل هو هو كما هو « ليس كمثله شيء » « ولم يكن له كفُواً أحد » .

هذا ، وإن إطلاق الصورة على الصفة هو أمر شائع وارد في كثير من الأحاديث النبوية .

فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « أوّل زمرةٍ تَلِج ـ أي تدخل ـ الجنة صورتهم صورةُ القمر ليلة البدر » وفي رواية أخرى : « أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على إثرهم كأشدّ كوكب إضاءة » الحديث .

فإن المراد هنا بصورة القمر صفته النيِّرة التي اتصف بها ، وليس المراد بصورته هنا هيئته المستديرة الشكل ، فانه لا يخطر على أضعف العقول أن أهل الجنة يدخلون الجنة على شكل مستدير كاستدارة القمر ! .

وهكذا تقول : صورةُ المسألة كذا وكذا ، تريد : صفتها كذا وكذا .

قال الإمام النووي رضي الله عنه : وأما قولهم « نعوذ بالله منك »: فقال الخطّابي: يحتمل أن تكون هذه الاستعاذة من المنافقين خاصة. اهـ. قال النووي : وأنكر القاضي عياض هذا وقال : لا يصح أن تكون من قول المنافقين ولا يستقيم الكلام به . قال النووي : وهذا الذي قاله القاضي هو الصواب ، واللفظ مصرَّح به أو ظاهر فيه ، وإنما استعاذوا منه لما قدمناه من كونهم رأوا سمات المخلوقين . اهـ .

وقد ذكر الشيخ الاكبر محيي الدين بن عربي رضي الله عنه في مواضع من كتبه حول الأحاديث المتشابهة فقال : إن هذا الحديث الذي فيه ذكر الصورة هو من الاحاديث المتشابهة ، ومرجعها الآيات والأحاديث المحكمة ، وكل مَن له نور من الله تعالى له في مرجعها الى المحكَم فهمٌ على حسب نوره. قال: ونحن نذكر مبلغ علمنا وفهمنا فيه، ونسأل الله تعالى أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه .

قال : فاعلم أن للصورة التي يأتي فيها ربنا سبحانه وتعالى يوم القيامة مظهراً وحقيقة : فالحقيقة هي الظُّلّة في قوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيَهم الله في ظُلَلٍ من الغمام والملائكةُ » الآية ، فعُلم بذلك أن مظاهر تجلّيه لعباده هي ظلل غمامة ، وحقائق هذه الظلل آياته القرآنية التي تعرَّف بها لخلقه بواسطة أنبيائه صلوات الله تعالى عليهم ، وقد ثبت في الصحيح تمحّض ــ أي تشخّص وتمثّل ــ حقائق

آياته كالظلل . ففي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي أمامة وحديث النواس بن سمعان رضي الله عنهما أن القرآن يوم القيامة يأتي تقدمه سورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو غيايتان،أو ظلتان سوداوان بينهما شَرْق ــ أي : ضوء ــ(١) .

قال : وأما مظهر الصورة : فهو العمل ، وقد ثبت تشخص ــ أي تمثل ــ الأعمال بصورٍ شتى ، كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه بإسناد صحيح أخرجه أصحاب المسانيد كالإمام أحمد وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الميت المؤمن يفسح له في قبره مدّ البصر ، ويمثّل له عمله في صورة رجل حسن الوجه طيّب الريح حسن الثياب فيقول : مَن أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، وإن الفاجر يمثّل له عمله في صورة رجل قبيح الوجه منتن الريح فيقول : مَن أنت ؟ فيقول : أنا عملك » . الحديث .

قال : وقد صحّ تمثّل الموت بكبش أملح يوم القيامة ويوقف على السّور بين الجنة والنار ويذبح . اهـ .

قلت : وحاصل ما ذكره العارفون حولَ حديث الإتيان بصورة : هو أن ذلك من باب التجلّي الصوريّ المقرر عندهم رضي الله عنهم ، وقد تقرّر عندهم أن التجلي هو عبارة عن ظهور تجلٍّ أعظم بصورة ــ أي بصفة ــ منزّهة مقدّسة ، على حسب استعداد الانسان المتجلّى له ، وعلى حسب معرفته ، و لايكون إلا بقدر استعداد المتجلّى له ، والتجلّي لا يتكرر للمتجلّى له ولا لغيره . فافهم ذلك .

واعلم أن العلماء والعرفاء وعلماء الشريعة والحقيقة كلهم مجمعون على إثبات وحدانية الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله ، وأنه سبحانه

---

(١) قد تقدمت هذه الاحاديث في بحث : تمثل الاعمال خيرها وشرها .

منزه عن الحلول في شيء ما ، ومنزّه عن الاتحاد بشيء ما ، ومنزّه عن جميع صفات المخلوقين ، وعن مشابهة خلقه ، بل هو سبحانه كما قال : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » وقال : « قل هو الله أحد » أي فلا أحد قبله ولا أحد بعده ولا أحد معه « الله الصمد » المصمود إليه في كل شيء ، والعالم كلهم محتاجون إليه « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » •

الامتحان العملي

قال الله تعالى : « يوم يُكشف عن ساقٍ ويُدعَون الى السجود فلا يستطيعون . خاشعةً أبصارهم ترهقهم ذِلّة وقد كانوا يُدعَون الى السجود وهم سالمون » .

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يكشف ربّنا عن ساقه فيسجد له كلّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ ويبقى مَن كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً »(١) .

والمعنى أن ربّ العزّة يكشف يوم القيامة عن ساقٍ أي عن أمر عظيم وهول وشدّة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هي أشد ساعة تكون في يوم القيامة ا هـ .

والكشف عن الساق هو مَثَل تضربه العرب لشدّة الأمر ولهذا يقولون قامت الحرب على ساقٍ . وقال الشيخ الأكبر : والساق التي كشفت لهم عبارة عن أمرٍ عظيم من أهوال القيامة وكذلك التفّت الساق بالساق أي دخلت الأمور العظام بعضها في بعض . ا هـ .

قال القاضي عياض رضي الله تعالى عنه : وقيل المراد بالساق هنا نور عظيم وورد ذلك في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم . ا هـ .

---

(١) قال الحافظ ابن كثير : وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وفي غيرهما من طرق وله ألفاظ وهو حديث طويل مشهور ا هـ . أقول : وسيأتي رواية مسلم لهذا الحديث بطوله .

وأشار بذلك الى الحديث الذي رواه أبو يعلى وابن جرير بإسنادهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُكشف عن ساقٍ يعني عن نور عظيم يخرّون له سجداً»(١). والمعنى أنه سبحانه يتجلّى على عباده في مواقف القيامة بنور عظيم فيسجد له المؤمنون ولا يستطيع أحد من الكافرين والمنافقين أن يسجد له بل يعود ظهر أحدهم طبقاً وفي رواية طبقةً واحدة. ونقل النووي عن الهروي وغيره أن الطبق هنا فقار الظهر أي صار فقار ظهره فقارة واحدة فلا يقدر أن يسجد، كلمّا أراد أن يسجد خرّ لقفاه عكس السجود وذلك عقوبة لهم لأنهم كانوا في الدنيا يدعون الى السجود لله تعالى وهم سالمون يستطيعون السجود فلم يسجدوا كبراً وكفراً فكان جزاؤهم ذلك وفاقاً.

قال الامام الخطابي رحمه الله تعالى: وهذه الرؤية التي في هذا المقام يوم القيامة غير الرؤية التي في الجنة لكرامة أولياء الله تعالى وإنما هذه للامتحان والله أعلم. اهـ.

يعني أن هذا الموقف فيه امتحان للمكلفين في عالم الدنيا يتبيّن الساجد الصادق من المرائي المنافق.

روى الامام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم هل تضارّون في رؤية الشمس صحواً ليس معها سحاب وهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب؟ قالوا: لا يارسول الله، قال:

---

(١) انظر تفسير ابن كثير عند الآية الكريمة.

ما تضارّون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارّون في رؤية أحدهما ، إذا كان يوم القيامة أذّن مؤذّن لتتبّع كلُّ أمةٍ ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا مَن كان يعبد الله من برٍّ وفاجرٍ وغُبَّر أهل الكتاب(١) ، فيُدعى اليهود فيقال لهم: ما كنتم تعبدون ؟قالوا كنّا نعبد عزيراً ابن الله . فيقال : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد .

فماذا تبغون ؟ قالوا : عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم : ألا تَرِدون ؟ فيحشرون الى النار كأنها سراب(٢) يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار .

ثم يُدعى النصارى فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فيقال لهم : ماذا تبغون ؟ فيقولون : عطشنا يا ربّنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون ؟ فيحشرون الى جهنم كأنها سَراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من برٍّ وفاجرٍ أتاهم ربُّ العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي

---

(١) قال النووي رضي الله عنه : أما البرّ فهو المطيع وأما غبّر فبضم الغين المعجمة وفتح الباء الموحّدة المشددة ومعناه بقاياهم جمع غابر . اهـ .

(٢) قال الامام النووي رحمه الله تعالى : أما السراب فهو الذي يتراءى للناس في الأرض القفر والقاع المستوي وسط النهار في الحر الشديد لامعاً مثل الماء يحسبه الظمآن ماءً حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً فالكفار يأتون جهنم أعاذنا الله الكريم وسائر المسلمين منها ومن كل مكروه وهم عطاش فيحسبونها ماء فيتساقطون فيها . وأما أنها يحطم بعضها بعضاً فمعناه لشدة اتقادها وتلاطم أمواج لهبها والحطم : الكسر والاهلاك، والحُطمة اسم من أسماء النار لكونها تحطم مايلقى فيها. اهـ.

رأوه فيها قال فما تنتظرون ؟ تتبع كلّ أمة ما كانت تعبد ، قالوا : يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم . فيقول : أنا ربكم ، فيقولون نعوذ بالله ، لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب ، فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها فيقولون نعم ، فيكشف عن ساقٍ فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلمّا أراد أن يسجد خرّ على قفاه ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحوّل في صورته التي رأوه فيها فقال: أنا ربكم، فيقولون : أنت ربّنا ، ثم يُضرب الجسر على جهنم وتحلّ الشفاعة » . الحديث وسيأتي تمامه في عالم الصراط إن شاء الله تعالى وفي هـذا الموقف تنجلي الأمور وتنكشف القضايا الاعتقادية والعملية فتظهـر حقيقة الإيمان الحقّ والعمل الحق ويظهر بطلان الباطل وتلك الأوهام والتخيلات الاعتقادية الفاسدة .

قال الله تعالى: « ليحقّ الحقّ ويُبطل الباطل ولو كره المجرمون» . وهذا عامٌّ في كل العوالم في الدنيا والبرزخ والآخرة .

فهو سبحانه يحقّ الحق وإحقاق الحق هو إظهار حقيقته وحقيّته، وإبطال الباطل إظهار بطلانه ، فالإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وما جاء عن الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلّ ذلك حقٌّ ولكل حقٍّ حقيقة لا بدّ وأن تظهر ، وفي الحديث المشهور الذي رواه المحدثون متصلاً ومرسلا : ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لحارثة : « كيف أصبحتَ يا حارثة ؟ فقال : أصبحت مؤمناً حقاً يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : انظر ما تقول فإن لكل حقٍّ حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ » الحديث . أي فما هي الحقيقة الإيمانية التي تحققتَ بها ؟

وروى أبو نعيم في الحلية عن معاذ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن لكل قول مصداقاً ولكل حق حقيقة » الحديث.

وإن الله تعالى سوف يظهر حقائق الإيمان التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيراها المؤمنون ويشهدونها عياناً قضايا حقّة وحقائق ثابتة . لأن الإيمان له حقائق ووثائق وأما الكفر فلا حقيقة له ولا وثيقة ، وقد روى أبو نعيم في الحلية بإسناده عن أيوب السختياني أنه كان يقول في دعائه : اللهم إني أسألك الإيمان وحقائقه ووثائقه ، وكريم ما مننتَ به عليَّ من الاعمال التي ينال بها منك حسن الثواب ، اللهم اجعلنا ممن يتقيك ويخافك ويرجوك ويستحييك ، اللهم استرنا بالعافية . اهـ .

وأما الكفر بأنواعه فهو باطل والباطل لاحقيقة له ، وإنما هو ظنٌّ فاسد أو وهم باطل ، خيّل الى صاحبه أن الأمر كذا وكذا ولكن الحقيقة الواقعية الثابتة ليست بذلك فلا بدَّ وأن يظهر بطلان ذلك الباطل .

قال الله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسَراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريع الحساب . أو كظلمات في بحرٍ لجيٍّ يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكدْ يراها ومَن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » . اللهم اجعل لنا من لدنك نوراً. فقد ضرب الله تعالى في هذه الآيات الكريمات مثلين للكفار : مثلاً بالسراب ومثلا بالظلمات المتراكمة لأن الكفار المعرضين عن الحق والهدى الذي أنزله الله تعالى على رسله صلوات الله عليهم — هم نوعان :

أحدهما : الذين يظنون أنهم على شيء فيتبيَّن لهم عند انكشاف الحقائق خلاف ما كانوا يظنونه وهذه حال أهل الجهل والأهواء الفاسدة وأتباع الآراء الفاسدة الذين يظنون أنهم على هدىً وعلم فإذا جاءت

الحاقة وانكشفت الأمور تبين أنهم ليسوا عـلى شيء وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت على تلك العقائد الضالة إنما هي كسراب بقيعة • والسراب هو ما يرى في البرّ في منتصف النهار وعند اشتداد الحرّ يخيّل للناظر أنه ماء سارب فعقائد الكفار وأعمالهم المترتبة عليها والتي عملوها لغير الله تعالى وعلى غير ما شرعه الله تعالى من تعبّدات عبدوا بها وقربات تقرّبوا بها لم يشرعها الله تعالى ، يحسبونها أنها تنفعهم ولكن هي في الواقع كسراب بقيعة أي بأرض قفراء وخالية من البناء والشجر والنبات والعالم يحسبه الظمآن الذي قد اشتدّ عطشه ــ يحسبه ماء فيتبعه ليشرب فيروى حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً بل خانه أحوج ما كان إليه •

وكذلك الكفار الذين اتبعوا أهواءهم في عقائدهم وأعمالهم وهم يحسبون أنهم على شيء ، قال تعالى : « إن يتبعون إلا الظنّ وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » •

فإذا جاءهم يوم القيامة لم يجد أحدهم لعقائده الباطلة وأعماله الفاسدة المترتبة على تلك العقائد ــ لم يجد لها أثراً ولم يجدها شيئاً لأنها باطلة والباطل كاسمه لا حقيقـة له كالسراب وإنما هي خيالات وأوهام لا حقيقة لها •

« ووجد الله عنده فوفّاه حسابه » • روى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتـم من طريق السدّي عن أصحـاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الكفار يبعثون يوم القيامة ورداً عطاشاً فيقولون أين الماء ؟ فيمثل لهم السراب فيحسبونه ماءً فينطلقون إليه فيجدون الله تعالى ــ أي في موقف الحساب ــ فيوفيهم حسابهم والله سريع الحساب » •

وقد تقدم في الحديث السابق ما يدل على ذلك •

فهذا مثل الكفار الذين يحسبون أنهم على هدىً وأنهم على شيء ثم يتبين لهم أنهم ليسوا على شيء .

وأما النوع الثاني من الكفار الذين ضرب الله لهم مثلاً بالظلمات المتراكمة ، فهم الذين عرفوا الحق والهدى الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنهم لم يعترفوا بل أعرضوا عنه وجحدوا وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال فتراكمت عليهم ظلمة الطبع وظلمة ظلم النفوس فإنهم ظلموا أنفسهم حيث لم يسلكوا بها طريق الحق وقد عرفوه وإن الظلم ظلمات ، واجتمعت عليهم ظلمة الجهل حيث لم يعملوا بعلمهم لأنهم علموا الحق وعرفوه ولكنهم لم يعملوا به فصاروا كالجاهلين الذين لم يعملوا لأنهم لم يعلموا إذ الجهل نوعان جهل علم ، وجهل عمل ، واجتمع على هؤلاء ظلمة اتّباع الغيّ والهوى . فحال هؤلاء كحال مَنْ هو في بحر لجيّ لا ساحل له وقد غشيه موج ، ومن فوق ذلك الموج موج ومن فوقه سحاب مظلم فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج ، وظلمة الموج فوق الموج ، وظلمة السحاب المتراكم عليه نعوذ بالله تعالى .

ويحتمل أن هذين المثالين المذكورين في الآيات المتقدمة هما لجميع طوائف الكفار جملةً فالمثال الأول هو بالنسبة لاعمالهم التعبدية التي كانوا يرجون نفعها فإذا بها كالسراب لا تنفعهم شيئاً .

والمثال الثاني هو بالنسبة لتراكم شبهاتهم وضلالتهم الاعتقادية يتخبّطون في ظلماتها فهم كالذي تراكمت عليه ظلمات البحر والأمواج والسحاب من فوقها .

وأما المؤمنون بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وبجميع ما أمرهم الله تعالى به على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فأولئك ضرب

الله تعالى لهم مثلاً بالنور الوضّاء ، وقدّم ذكر هذا المثل الوضّاء النورانيّ على المثال القاتم الظلماتي .

فقال سبحانه : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاةٍ فيها مصباح المصباح في زجاجةٍ الزجاجة كأنها كوكب دُرّيٌّ يوقد من شجرةٍ مباركة زيتونةٍ لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور يهدي الله لنوره مَن يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » .

ففي هذه الآية الكريمة ذكر سبحانه النور الذي أظهر به وجود الأكوان والنور الذي أضاء به القلوب بالإيمان :

فالأول أشار إليه بقوله تعالى : « الله نور السموات والأرض » .

فهو سبحانه الذي أفاض على السموات والأرض وما فيهن نور الوجود فأظهرها من ظلمة العدم الإمكاني فإن النور هو ما كان ظاهراً بنفسه ومظهراً لغيره ، وما من ظاهر في الوجود إلا والذي أظهر وجوده هو أظهرُ وجوداً منه ، ولا من نيّرٍ إلا والذي نوّره هو أقوى نوراً منه فسبحان من أظهر الظاهرات بعد ما كانت في خفايا الظلمات ، وسبحان من نوّر النيّرات فأشرق نورها على الكائنات ، وسبحان من تجلّى بنور الإيجاد على الظلمات العدمية فأشرقت بنور الوجود .

وفي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام يتهجّد في الليل قال : « اللهم ربنا لك الحمد أنت قيّم السموات والأرض ومَن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومَن فيهن، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت مالك السموات والأرض ومن فيهن » الحديث .

وجاء في دعائه صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بنور وجهك

الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ـ أن يحل بي سخطك أو أن ينزل علي غضبك ولك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وأما النور الذي أضاء القلوب بالإيمان والمعرفة فهو المذكور في قوله تعالى : « مثل نوره كمشكاة » فقد قال أبي بن كعب وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين : إن المعنى مثل نور الله تعالى في قلب عبده المؤمن .

وهذا هو نور الإيمان والهداية المذكور في قوله تعالى : « أفمَن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه » . وقال تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » الآية . روى ابن أبي حاتم وغيره انه قيل: يارسول الله ماهذا الشرح ؟ قال:«نور يقذف في القلب» . الحديث وقد تقدم .

روى الترمذي وأحمد وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل » .

فلم يترك سبحانه عباده في ظلمة بل ألقى عليهم من نوره ليعرفوه وليهتدوا بنوره إليه فمن تعرّض لذلك النور أصابه فاهتدى ، ومن أعرض عن ذلك النور ضل وتركهم الله في ظلمات لا يبصرون لأنهم أعرضوا وتولوا . ومن البديهي في المحسوسات أن من توجّه الى النور أضاء وجهه واستنار ومن أعرض عنه أظلم وجهه وحار .

قال الله تعالى : « أوَمَن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمَن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » . الآية فالكافر يتخبط في الظلمات وأما المؤمن فهو على نور من ربه .

وهذا النور الإيماني هو المذكور في الحديث الذي رواه أبو يعلى من حديث الفرات بن سليمان قال : قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ألا يقوم أحدكم فيصلي أربع ركعات ويقول فيهن ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تم نورك فهديت فلك الحمد، عظم حلمك فغفرت فلك الحمد بسطت يدك فأعطيت فلك الحمد ». الحديث كما في الحصن الحصين وشرح المواهب .

وإن أول القلوب وأعظم القلوب إضاءة بهـذا النور وأوسع القلوب إشراقاً بهذا النور وأكثرها نصيباً من هذا النور هو قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أفاض النور على سائر القلوب والذي أشرق على مرايا القلوب فانعكس فيها ذلك النور الإيماني على حسب استعداد ذلك القلب وقابليته .

وقد قال كثير من المفسرين المحققين في قوله تعالى : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » :

إن المراد بالمشكاة هو صدر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة هي قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم والمصباح هو النور الإيماني المحمدي والشجرة التي يأتي منها المدد هي شجرة الوحي المحمدي صلى الله عليه وسلم فالتقى نور على نور .

فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو مصباح مصابيح القلوب ونور أنوار البصائر وهو صلى الله عليه وسلم السراج المنير للقلوب والعقول والأسماع والابصار والافكار والوجوه والمدارك والأفهام .

وقد سمّاه الله تعالى بما سمى به شمس الضياء في علياء السماء ولكن وصفه بوصف أكمل وأجمل وأعلى وأسمى من وصف شمس السماء .

قال تعالى في وصف الشمس السمائية : « وجعلنا سراجاً وهَّاجاً » وقال تعالى في وصف الشمس المحمدية : « وداعياً الى الله بإذنه وسراجاً منيراً » .

وشتان بين الشمسين فإن شمس السماء وهَّاجة فهي تضرّ بوهجها وإنما ينتفع منها الناس بنسبة محدودة ويستغنون عنها مدة مديدة من الزمن ، ونورها إنما يضيء للبصر فحسب . فهي تظهر للبصر العينيّ ما كان محسوساً من الكائنات .

وأما الشمس المحمدية فهي المنيرة ومن المعلوم أنه لا يستغني أحد عن النور لا في الليل ولا في النهار وإن النور المحمدي هو المنير للقلوب وللعقول والافكار وجميع المدارك وإن الذي يسير بلا نور لا يهتدي الى حقيقة بل يتخبط في الأوهام والظلمات . فالنور المحمدي هو الذي يكشف حقائق الأمور للقلوب والعقول والمدارك .

وكما أن الأبصار العينية لا ينتفع صاحبها بها إلا إذا مشتْ على شعاع نور خارجي كذلك أنوار العقول البشرية لا ينتفع بها صاحبها ما لم تمش على ضياء النور المحمدي صلى الله عليه وسلم وبذلك تهتدي لسعادتها وصلاح أمورها، قال تعالى: « واتبعوه لعلكم تهتدون » أي الى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة . فالأبصار العينية هي في حاجة لنور الشمس السمائية ، والبصائرُ القلبية والمدارك العقلية هي في أشدّ الحاجة الى نور الشمس المحمدية صلى الله عليه وسلم .

وإن أتباع النبي صلى الله عليه وسلم الذين اقتبسوا من مشكاة أنواره صلى الله عليه وسلم وانعكست أنواره صلى الله عليه وسلم في قلوبهم وعقولهم ومداركهم وجوارحهم وحواسّهم ، سوف يبرز ذلك النور عليهم جليّاً منذ انتقالهم الى برازخ الآخرة ويسعى بين أيديهم

وبأيمانهم في ظلمة القبر وظلمة الحشر وظلمة الجسر ويصحبهم في سائر العوالم •

قال الله تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » •

وقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفِّر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير » والكلام على معنى هذه الآيات سيأتي في بحث الصراط إن شاء الله تعالى •

والمؤمنون هم في ذلك النور على مراتب مختلفة فمنهم مَنْ نوره كالقمر ليلة البدر ، ومنهم كأشدّ كوكب دُريٍّ في السماء إضاءةً ومنهم كسائر الكواكب المضيئة ومنهم ومنهم ••• حتى إن منهم من يعطى نوراً على إبهام قدمه يضيء له مرة ويطفأ أخرى حين يمشي على الصراط كل أولئك على حسب حالهم واتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم فكلٌ متبع له نوره حسب اتباعه •

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنّ أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشدّ كوكب دُريّ في السماء إضاءة • الحديث •

ولكن قد يقال إن تلك البدور الساطعة ، والكواكب الدرية اللامعة التي دخل أهل الجنة الجنةَ على نورها وضيائها ـ من أيّ شمس استمدادها وانعكاس أضوائها ؟ •

نعم إنما ذلك بانعكاسات وإشراقات الشمس المحمدية فيها فإن شمس تلك الأقمار والكواكب هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى فيه : « وسراجاً منيراً » وقال في شمس كواكب السماء وقمرها : « وجعلنا سراجاً وهّاجاً » .

فاعتبر أيها العاقل وتدبّر ، ولا تكـذّب بآيات الله وتتنكر . قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبّروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » .

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفتـه مـن الفهـم السقيم

فلا تكن أصمّ ولا أبكم ولا أعمى القلب فإن الشمس الفلكية هي شمس الأشباح وأما الشمس المحمدية فهي شمس الأرواح التي تحيا بها الاشباح .

وإن الشمس الفلكية هي شمس الهياكل والقوالب ، وأما الشمس المحمدية فهي شمس القوابل والقلوب ، وإن الشمس الفلكية هي شمس الأحجار والتلول ، وأما الشمس المحمدية فهي شمس الأفئدة والعقول .

وإياك أنْ تقول إن هذا الكلام من باب ضرب الخيال أو من باب المثال!! فإن الله تعالى إنما يذكر الحق ويخبر عن الحقيقة،فوصف الشمس الفلكية بأنها سراج وهّاج فذلك حقّ وحقيقـة ، ووصف الشمس المحمدية بأنه سراج منير فذلك حق وحقيقـة ، فلا تتلاعب بالحقائق القرآنية التي أخبر الله تعالى عنها ، قال تعالى : « وبالحقّ أنزلناه وبالحق نزل » الآية فالقرآن يخبر عن الحق والحقيقة . وقال تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين » . وقال تعالى : « الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان » الآية . فالقرآن الكريم هو الذي يبين لك الحق ويكشف لك عن الحقيقة .

موقف فصل القضاء والحكم بين العباد

قال الله تعالى : « إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم »

وقال تعالى : « ثمّ إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » .

وقال تعالى : « إن يوم الفصل كان ميقاتاً » .

والمعنى أن يوم الفصل بين الخلائق بقضاء الملك الحكم العدل سبحانه كان وقتاً محدداً لأجل معلوم ، فحكمه سبحانه بين عباده هو الفصل ، وقد نبه الله سبحانه الى عظمة يوم الفصل وهيبة مقامه فقال :

« وإذا الرسل أُقّتت ، لأيّ يوم أُجّلت ، ليوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل ، ويل يومئذٍ للمكذبين » وفي هذا إنباء عن هول ذلك الموقف وشدّة خطره ، ومعنى توقيت الرسل هو : جمعهم لميقات يوم معلوم ، وهو يوم القيامة ، الذي تجمع فيه الرسل كلهم صلوات الله تعالى عليهم ليشهدوا على أممهم كما تقدم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : يوم الفصل هو يوم يفصل الرحمن فيه بين الخلائق . اهـ . أي يفصل بينهم بحكمه العادل وقضائه الفاصل كما قال سبحانه : « ثمّ رُدّوا الى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » .

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينذر العباد يوم الآزفة المشتمل على المخاوف الشديدة الذي يُجري الله تعالى فيه القضاء بالحق لأن الله تعالى هو الملِك الحقّ .

قال تعالى : « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لـدى الحناجر كاظمين ما للظالمـين من حميم ولا شفيع يُطاع • يعلم خائنة الأعـين وما تخفي الصدور ، والله يقضي بالحق والـذين يدعون من دونـه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير » •

والمراد بيوم الآزفة ــ يوم القيامة ــ والآزفة هي القريبة وجُعلت اسماً للقيامة لقربها بالنسبة لما مضى من الدنيا فإنه لم يبق من الدنيا إلا القليل وان كلّ آت فهو قريب •

وقد جاء في الحديث الشريف الذي رواه الترمذي وأحمد وغيرهما عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى يوماً صلاة العصر ثم خطبهم حتى تدلّت الشمس للغروب قال أبو سعيد فجعلنـا نلتفت الى الشمس هل بقي من النهـار شيء • وفي رواية : والشمس على رؤوس الجبال ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ألا إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منهـا إلا كما بقي من يومكم هـذا فيما مضى منه » •

وفي هذا بيان امتداد العصور الماضية وكثرة مرّ الدهور على عالَم الدنيا وأنه لم يبق منها بالنسبة للماضي إلا القليل لأنه مضى من عمر الدنيا شيء كثير جـداً يفوق الملايين من السنين كما أشار إليه الحديث المتقدم •

وروى الشيخان عن سهل بن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار صلى الله عليه وسلم بإصبعيه الوسطى والتي تليهاه وعند الترمذي : « بعثتُ في نفس الساعة فسبقتها كما سبقت هذه لهذه » وأشار لاصبعيه •

« وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » •

الحناجر جمع حنجرة أو حنجور كحلقوم لفظاً ومعنى وهو رأس الغلصمة وفي ذلك إخبار عن شدة الخوف الذي يعتري الكفار يوم القيامة والآلام التي تلم ّ بهم حتى إن قلوبهم تبلغ حناجرهم وهم كاظمون عليها أي ممسكون أنفسهم عليها لئلا تخرج من النفس فإن كاظم القربة كاظم على الماء ممسكها عليه لئلا يخرج منها وهم في ذلك على حالٍ لا يموتون فيها ولا يحيون •

« ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع » أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالكفر من قريب ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم بل تقطّعت بهم جميع أسباب الخير ووسائل النفع والبرّ •

« يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » وفي هذا بيان سعة علمه سبحانه المحيط بجميع الأشياء كبيرها وصغيرها وجليها وحقيرها وكثيفها ولطيفها ــ ليحذر العباد علم ربهم فيهم فيستحيون من الله تعالى ويرهبونه ويتقونه ويراقبونه مراقبة مَن يعلم يقيناً أن الله تعالى يراه ويعلم خائنة الأعين أي العين الخائنة وإن أظهرت الأمانة ويعلم النظرة الخائنة وان أبدت السلامة ويعلم ما تنطوي عليه الصدور من الخفايا وما تكنه الضمائر من الأسرار والخبايا •

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله تعالى : « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » قال : هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيه المرأة الحسناء أو تمرّ المرأة الحسناء بعيدة عنه فإذا غفلوا لحظ إليها فاذا فطنوا غضّ بصره عنها فاذا غفلوا لحظ إليها ثانية فاذا فطنوا غضّ بصره • يُظهر الأمانة والعفة وقد اطلع الله تعالى على قلبه أنه ودّ لو أنه رأى فرجها • اهـ •

قال العلماء : ويدخل في خائنة الأعين الغمز وقول الرجل : رأيتُ

كذا وكـذا ولم ير شيئاً ، وقول الرجل : لم أر ، وقد رأى يعني أنه يكذب في ذلك كله .

« والله يقضي بالحقّ » وذلك أن الله تعالى هو الحقّ أي واجب الوجود ، ودينـه حقّ ، وشرعـه حقّ ، وخلق السموات والأرض وما بينهما بالحق فلا بدّ أن ينتهي أمر العالم الى الحق ليقضي الملك الحق بين عباده بالحق .

قال تعالى : « يومئذٍ يوفّيهم الله دينهم الحقّ ويعلمون أن الله هو الحق المبين » .

فليس هناك ظلم ولا ثمة عبث ولا لهو ولا لعب ولا باطل .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء التهجد : « أنت الحقّ ووعدك حقّ ولقاؤك حقّ والجنة حقّ والنبيون حقّ ومحمد صلى الله عليه وسلم حقّ والساعة حقّ » .

نعم يا ربنا ونحن نشهد بذلك شهادة حقّ .

* * *

هيبة فصل القضاء وتجلّي ربّ العزّة للحكم بين العبـاد

قال الله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظللٍ من الغمام والملائكة وقُضي الأمر والى الله تُرجع الأمور » .

وفي هذا تهديد لمن كفر بالله تعالى واليوم الآخر ووعيد له شديد لعله يزدجر أو يتذكر فيعتبر ، ويرجع عن انكاره وكفره فإن الويل له ماذا ينتظر ؟

أينتظر ذلك اليوم الحق يوم يأتي ربّ العزة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين وهناك تحشر الملائكة عليهم السلام بجموعها ولهم زجل من تسبيحهم وتقديسهم .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى : وقد ذكر الامام أبو جعفر ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى ههنا حديث الصور عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم وفيه :

« إن الناس إذا اهتمّوا لموقفهم في العرَصات ـ أي عرصات موقف الحشر ـ تشفّعوا الى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً من آدم فمن بعده فكلّهم يحيد عنها حتى ينتهوا الى محمد صلى الله عليه وسلم فإذا جاءوا إليه قال : أنا لها أنا لها فيذهب صلى الله عليه وسلم فيسجد لله تعالى تحت العرش ويشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد

فيشفّعه الله تعالى ــ أي يقبل شفاعته ــ ويأتي في ظللٍ من الغمام والملائكة ولهم زَجَل من تسبيحهم يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزّة والجبروت ، سبحان الحيّ الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت سُبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح سُبّوح قدّوس ربنا الأعلى، سبحان ذي السلطان والعظمة سبحانه سبحانه أبداً أبداً » .

وقد روى ابن أبي حاتم باسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سبحانه إذا تجلّى لفصل القضاء بينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب(١) . أهـ .

وقال تعالى : « كلاّ إذا دُكّت الأرض دكاً دكاً . وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً . وجيء يومئذٍ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان وأنّى له الذكرى . يقول يا ليتني قدّمت لحياتي فيومئذ لا يعذّب عذابه أحد ولا يُوثق وثاقه أحد » .

ففي هذه الآيات يخبر سبحانه عن هيبة ذلك الموقف ورهبته وذلك حين تُدكّ الأرض دكاً بعد النفخة الثانية أي وطّئت الأرض وسوّيت الجبال ولم يبق فيها شيء .

وقد قام الخلائق من قبورهم لرب العالمين وحشروا كلهم في أرض واحدة وطال الموقف واشتدت أهواله وامتدت حتى استشفعوا فلم يشفع فيهم إلا سيد الشفعاء وإمام الأنبياء صلى الله عليه وسلم وهناك انفضّ بهم الأمر الى عالم الجمع لفصل القضاء وفي هذا يقول سبحانه : « وجاء ربك والملك صفاً صفاً » أي تجلى لفصل القضاء وللحكم بين

(١) انظر تفسير ابن كثير وتفسير الالوسي وغيرهما .

العباد وجاءت الملائكة صفاً صفاً قياماً تعظيماً وإجلالا وإكباراً لرب العزّة سبحانه وهيبةً من ذي الجلال والإكرام •

« وجيء يومئذ بجهنم » أي قرّبت جهنم لأهلها كما قال تعالى : « وبُرّزت الجحيم للغاوين » وذلك ليروها عن كثب ويشاهدوا أهوالها ، وفظائع منظرها فيزيدهم ذلك خوفاً وفزعاً •

روى الامام مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام مع كلّ زمام سبعون ألف ملك يجرّونها » •

« يومئذ يتذكر الانسان وأنّى له الذكرى » يعني أن الانسان يتذكر في ذلك اليوم معاصيه فيهتم لها ويخاف منها لأنه بشاهد قبحها فيندم ، ولكن من أين له منفعة الذكرى حينذاك وقد فات الأوان ولات ساعة مندم •

« يقول يا ليتني قدّمت لحياتي » يعني أنه يتمنى أن لو كان في الدنيا قدّم أعمالا صالحة ليحيا في الآخرة حياة طيبة هنيئة سعيدة •

« فيومئذ لا يعذّب عذابه أحد » أي لا يتولى عذاب الله لمن حقّت كلمة العذاب عليه ــ لا يتولاه أحد غير الله بل الأمر كله لله ، قال تعالى : « إلاّ من تولّى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر » •

* * *

قضاؤه سبحانه بالقسط وحكمه هو العدل
فلا ظلم ولا جَور

قال الله تعالى : « وأشرقت الارض بنور ربهـا ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لايُظلمون • ووفّيت كلّ نفس ما عملتْ وهو أعلم بما يفعلون » •

والمعنى أن أرض الموقف أشرقت بنور ربها لما تجلى ربّ العزة لفصل القضاء بين العباد ، وهناك علمت كل نفس ما قدّمت وما أخرت ، وانجلت لها جميع أمورها التي مرّت عليها في الدنيا وعلمت كل نفس ما أحضرت وبدا عليها ما أضمرت ، واستوى هناك السرّ والعلانية •

قال تعالى : « يوم تـُبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر » •

وأصل الابتلاء الاختبار والامتحان وابتلاء السرائر هو إظهار ما أسرّه الانسان في قلبه من العقائد والنيات والضمائر النفسية التي كان يُسرّها في نفسه ولا يبديها للناس فالله تعالى يظهرها ويميز خبيثها من طيبها ليجزيه ما يستحقه إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فعذاب وعقاب وحينئذ فماله من قوة في نفسه يمتنع بها ولا ناصر له ينتصر به •

قال تعالى : « وأشرقت الأرض بنور ربها ووُضع الكتاب » • أي وضع كتاب الإحصاء العام كما سيأتي تفصيله •

« وجيء بالنبيين والشهداء » أي جيء بالنبيين ليكونوا شهداء على أممهم وجيء بالشهداء • قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم الذين

يشهدون للرسل بالتبليغ لأممهم وهم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم •

« وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون » فلا يزاد في سيئات المسيء ولا ينقص من حسنات المحسن •

« ووفّيت كل نفس ما عملت » أي أخذت كل نفس جزاء عملها وافياً كاملاً دون بخس •

« وهو أعلم بما يفعلون » يعني أنه سبحانه هو العليم بأفعالهم فلا يحتاج الى كتابة في كتاب ولا شهادة من شهداء ، وإنما الكتاب والشهداء فيهما إقامة الحجة على العباد وإزالة أعذارهم حتى يكونوا على يقين بأنه سبحانه الحكم العدل ، وقضاؤه هو الفصل ، لا يعذب أحداً حتى يقيم عليه الحجة ولا يُبقي له عذراً صحيحاً يعتذر به ، فهنالك يعترف المذنب ويقر بذنوبه وعناده ويعترف بإبائه عن قبول الحق الذي بيّنه الله تعالى حين كان في الدنيا بواسطة الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم وحينئذ يحكم العبد المذنب على نفسه بأنه مستحق للعقاب •

قال تعالى : « كلمّا ألقِي فيها فوج » أي كلما ألقي في جهنم فوج من الكفار • « سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير • فكذّبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير • وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسُحقاً لأصحاب السعير » •

روى ابن حبان في صحيحه وأبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يا أيها الناس إن الدنيا عرَض حاضر يأكل منه البرّ والفاجر ، وإن

الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك عادل قادر يُحقُّ الحق ويُبطل الباطل .
أيها الناس كونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن كلَّ أمٍّ يتبعها ولدها ، اعملوا وأنتم من الله على حَذَر ، واعلموا أنكم معروضون على أعمالكم وأنكم ملاقو الله ، لا بدَّ منه فمن يعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »(١) .

وروى الامام الشافعي رضي الله عنه بإسناده عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب يوماً فقال في خطبته : « ألا إن الدنيا عَرَض حاضر يأكل منه البر والفاجر ألا وإن الآخرة أجل صادق ويقضي فيها ملك قادر ، ألا وإن الخير كلّه بحذافيره في الجنة ، ألا وإن الشر كله بحذافيره في النار ، ألا فاعملوا وأنتم من الله على حَذَر واعلموا أنكم معروضون على أعمالكم فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »(٢) .

ولله در القائل :

والقول والفعل معروضان منك على
مَنْ يفصل الجدَّ مما أنتَ هازله
لا ترض بالقول دون الفعل منزلةً
فإن ذاك خسيس الحظ نازله

---

(١) عزاه في الدر المنثور الى حسين بن سفيان في مسنده والى أبي نعيم في الحلية وعزاه في المرقاة على المشكاة الى ابن حبان في صحيحه أيضاً برواية أخصر من هذه .

(٢) انظر مشكاة المصابيح .

موقف اخبار الله تعالى عباده عمّا عملوه في الدنيا

إن الله تعالى سوف يوقف عبـاده يوم القيامة وينبئهم بجميـع أعمالهم،وقد أخبر الله تعالى عباده بذلك لكي يسدّدوا أقوالهم ويصلحوا أعمالهم وذلك بانتهاجهم منهج شريعة الله قبل أن يأتي ذلك اليوم الذي يوقفهم الله تعالى فيه ويخبرهم عن أعمالهم •

قال الله تعالى : « يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد » •

وقال تعالى : « ووصَّينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهـداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » •

وقال تعالى : « ألم تر أن الله يعلم مافي السموات ومافي الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسةٍ إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهـم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم » •

فهو سبحانه مع عباده بعلمه وقدرته وشهوده لأعمالهم معيّةَ مَنْ ليس كمثله شيء فهي لا يماثلها شيء،ليست جسمية ولا روحية• وإنما أخبر عباده بذلك ليكونوا على مراقبة له سبحانه في جميع أفعالهم وأقوالهم وليكونوا على يقين بأنه سبحانه سوف يخبر كلَّ إنسان يوم القيامة بأعماله التي عملها في هذه الدنيا •

روى ابن مردويه والبيهقي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله تعالى معه حيث كان » .

وهذه المعية عامة لجميع العباد وهي بالعلم والشهود وأما معية النصر والتأييد والعون والتسديد والحفظ والوقاية فهي خاصة بمن خصّه الله تعالى بها وهي على مراتب متعددة فأعلاها هي المشار إليها بقوله سبحانه في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » . فهي معية خاصّة بالحبيب الأكرم صلى الله عليه وسلم .

ومن المعية الخاصة قول الله تعالى في سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام : « قال كلاّ إن معي ربي سيهدين » فهي معية للكليم .

ولله تعالى معية لعباده المتقين على حسب مراتبهم في التقوى ، قال تعالى : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

ومن ذلك معية الله تعالى للصابرين قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين » .

أي ومن كان الله تعالى معه فلا بدّ أن تكون له العاقبة الحسنة .

ومن ذلك معية الله تعالى للذاكرين كما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، وفي رواية وأنا معه حين يذكرني » الحديث .

فالله تعالى رقيب على عباده في سائر أحوالهم وهو المطّلع على سرّهم وعلانيتهم وظواهرهم وبواطنهم فعلى العاقل أن يوقن بذلك

وليحذر ذلك الموقف وليتق الله تعالى في أقواله وأعماله . قال تعالى :
« واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا » .

وإنما أخبر الله تعالى بذلك ليراقبوا مراقبته لهم فيتقوه كما بين سبحانه لعباده أنه القائم على كلّ نفسٍ بما كسبت والشاهد عليها بما عملت .

قال تعالى : « وما تكون في شأنٍ وماتتلو منه من قرآن ولاتعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين » .

فهاهنا ثلاث خطابات : الأولان موجّهان لرأس النوع الانساني وسيد المخاطبين عليه أفضل الصلاة والتسليم وعلى آله أجمعين ولذا جيء بنصّ الشأن في مقام التكريم له صلى الله عليه وسلم لأن عمل العظيم عظيم وشأن الكريم كريم .

فقال سبحانه لحبيبه الذي هو أكرم الأولين والآخرين عليه قال له:
« وما تكــون في شأن » أي وما تكــون في شــأن مــن شؤونك الكريمة المباركة ولما كان أعظم شؤونه صلى الله عليه وسلم هو التلاوة لهذا التنزيل من رب العالمين ـ خصّه الله تعالى بالذكر فقال : « وما تتلو منه من قرآن » ثم قال سبحانه في الخطاب الثالث الذي هو عام شامل لجميع العباد برّهم وفاجرهم تقيهم وشقيهم « ولا تعملون من عمل » أيّ عملٍ كبير أو صغير « إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه » أي حين تشرعون فيه وتتلبّسون به .

والمعنى : اعلموا ذلك علم اليقين وارعوا مقام شهوده سبحانه ومقام اطّلاعه عليكم واحذروا أن تعملوا ما لم يشرعه لكم مما حرّمه

عليكم فإنه سبحانه سوف ينبئكم بأعمالكم يوم يوقفكم بين يديه عز وجل ، فإنه أكبر شاهد وأعظم شهيد •

قال تعالى : فلنقصن ، عليهم بعلم وما كنا غائبين » أي ما كنا عنهم في الدنيا غائبين بل كنا شاهدين لأعمالهم الظاهرة والباطنة ، الجسمية والقلبية نرى أفعالهم ونسمع أقوالهم •

* * *

موقف الشهادات

قال الله تعالى : إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

وهذا الموقف خطير وشأنه كبير ، تحقّق فيه الحقائق ، وتظهر فيه الدقائق ، وتقوم به الحجــة وتثبت به المحجّة ، وفي ذلك اليوم لا ينفع الظالمين معذرتهم لأن الحجة قامت عليهم بشهادة الأشهاد فلا جحود ولا عناد ، ولا عذر يقبل ولا كلام يسمع ، ولا حميم يشفع .

وقد دلت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على أن الشهداء يوم القيامة هم أصناف متعددة : فهناك شهادة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وشهادة الملائكة عليهم السلام وشهادة الجوارح وشهادة العباد بعضهم على بعض وشهادة الأرض وما عليها من مدرٍ وحجرٍ وشجر وكلّ من هؤلاء سوف يؤدي شهادته في الوقت المناسب لذلك يوم القيامة .

أما شهادة الرسل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم فإنهــم يشهدون على أممهم . يشهدون بالإيمان لمن آمن وبالكفر على من كفر .

قال الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمّة وسَطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » وليس هناك أسعد ولا أمجد ممن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان والعدالة والثقة . اللهم اجعلنا منهم .

وقال تعالى : « إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولاً » .

وقال تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمّة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » .

وقال تعالى : « ويوم نبعث من كل أمةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » وقد تقدم الكلام على الآية .

فكلّ رسول يشهد لمن آمن به ويشهد على من كفر به ولذلك كان السلف الصالح يدعون الله تعالى في أن يشهد لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالإيمان .

كما روى أبو نعيم في الحلية بسنده عن عبيد بن عمير أنه كان إذا آخى في الله أحداً أخـذه بيده واستقبل به الكعبة وقال اللهم اجعلنا شهداء بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم واجعل محمداً صلى الله عليه وسلم علينا شهيداً بالإيمان وقد سبقتْ لنا منك الحسنى . اهـ .

وقد طلب الحواريون من عيسى عليه السلام حين آمنوا به أن يشهد لهم عند الله تعالى بالإيمان .

قال تعالى : « وإذ أوحيت الى الحواريّين أنْ آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » .

وقال تعالى : « قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

طلبوا من المسيح عليه السلام أن يشهد لهم يوم القيامة لينالوا سعادة الآخرة كما نالوا به سعادة الدنيا وهكذا كلّ مَن آمن برسوله

فإن رسوله يشهد لهم يوم القيامة وبذلك تكون سعادته الأبدية كما أن مَن شهد عليه رسوله بالكفر فإنه يشقى شقاء الأبد .

قال تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ، يومئذ يودّ الذين كفروا وعَصَوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً » فالكفار بعد مايشهد عليهم رسلهم بالكفر والإعراض عمّا جاءوهم به يتمنون أن لو تسوّى بهم الأرض أي بأن يدفنوا وتسوّى الأرض ملتبسة بهم ، أو تسوى عليهم كالموتى ، وقيل يودّون أنهم بقوا تراباً على أصلهم من غير خلقٍ ، وتمنّوا أنهم كانوا هم والأرض سواء ، وقيل تصير البهائم تراباً فيودون حالها ، وقيل يودّون لو يعدل بهم الأرض أي يؤخذ منهم ما عليها فدية ويدفع عنهم العذاب .

ويودّون أنهم يومئذ لا يكتمون الله تعالى حديثاً وذلك لعدم قدرتهم على الكتمان حيث إن جوارحهم شهدت عليهم بما صنعوا وشهدت عليهم الرسل صلوات الله تعالى عليهم وشهدت عليهم الأشهاد من كل جانب فلذلك ودّوا وتمنوا أن لو كانوا أقروا واعترفوا ولم يكتموا ويكذبوا حين قالوا : « والله ربنا ما كنا مشركين » وهذا كان منهم في بعض المواطن فلما صاروا في موطن آخر وشهدت الأشهاد ندموا على كتمانهم وكذبهم .

فالواو في قوله تعالى : « ولا يكتمون الله حديثاً » هي للعطف حينئذ ، وقيل الواو للحال والمعنى أنهم يودّون أن يدفنوا في الأرض وهم لا يكتمون الله حديثاً .

وأما شهادة الملائكة على نبينا وعليهم الصلاة والسلام فقد قال الله تعالى : « وجاءتْ كلُّ نفس معها سائق وشهيد » .

روى ابن جرير بإسناده عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه خطب فقرأ هذه الآية « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » فقال سائق يسوقها الى الله تعالى وشاهد يشهد عليها بما عملت . اهـ .

روى مسلم عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقال للعبد يوم القيامة كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وبالكرام الكاتبين عليك شهودا فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فتنطق بعمله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل » .

وأما شهادة الجوارح فقد قال سبحانه : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » . وتقدم حديث أنس في شهادة أعضاء الانسان عليه يوم القيامة وأنه يختم على فمه ويقال لأركانه انطقي فتنطق بعمله ثم إن العبد يلوم أعضاءه حيث شهدت عليه في الوقت الذي كان يدافع عنها بالباطل .

ولا معارضة بين الختم على الأفواه الوارد في قوله تعالى : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » وبين شهادة الألسنة الواردة في قوله تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم » الآية .

وذلك أن الختم على الأفواه منعهم من التكلم بالألسنة التي في الافواه وأنطق الله تعالى الألسنة نفسها فشهدت على أصحابها كما أنطق الله تعالى ذراع الشاة المسمومة فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه مسموم ، وبيان ذاك أن الله تعالى يختم على فم الانسان يوم القيامة فلا يستطيع أن ينطق باختياره وهناك تنطق الجوارح بدون اختياره بل بإنطاق من الله تعالى لها لأمره إياها بذلك كما بينه سبحانه بقوله :

« وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كلَّ شيء » الآية •

والله تعالى القدير على إنطاق كل شيء هو الذي أنطق الحجر والشجر فسلَّمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدت له بالرسالة وأنطق الحصيات فسبَّحت في كفِّه الشريف صلى الله عليه وسلم كما صح ذلك في الاحاديث وهو سبحانه ينطق الحجر والشجر والمدر يوم القيامة فتشهد على ابن آدم كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى •

وإنما قال سبحانه : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون» فأسند الكلام الى الايدي والشهادة الى الارجل ذلك لأن اليد هي كانت في الدنيا تباشر الافعال وكانت الرجل حاضرة ، وإن قول الحاضر على غيره هو شهادة وأما قول الفاعل على نفسه فهو إقرار وليس بشهادة • وقد تقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه مسلم وفيه أن الله تعالى يقول للعبد المنافق يوم القيامة حين يدَّعي أنه قد صلَّى وصام وتصدَّق فيقول الله تعالى : « أهاهنا من يشهد لك ؟ فيقول لا • فيقول سبحانه : الآن نبعث عليك شاهدنا • قال فيفكر في نفسه من ذا الذي يشهد عليه فختم على فيه فيقال لفخذه انطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق الذي سخط الله تعالى عليه » •

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: « مالي آخذٌ بحُجَزكم عن النار؟، ألا إن ربي عز وجلّ داعيَّ وإنه سائلي : هل بلَّغتَ عبادي ؟ وإني قائل : ربِّ إني قد بلغتهم فليبلّغ الشاهد منكم الغائب ، ثم إنكم مَدعوّون مُفَدَّمةً أفواهكم

بالفِدام(١) ، وان أول ما يُبين (أي يخبر) عن أحدكم ـ لفخذه وكفه ، قلتُ : يا نبي الله هـذا ديننا ؟ قال : هـذا دينكم وأينما تُحسن يكفك »(٢) .

وروى الامام أحمد عن عقبة بن عامر رضي الله عنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أوّل عظم من الانسان يتكلم يوم يختم على الافواه ـ فخذه من الرجل الشمال » .

وروى الترمذي وأبو داود وابن أبي شيبة وغيرهم عن يُسَيْرة وكانت من المهاجرات أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « عليكنّ بالتسبيح والتهليل والتقديس ، واعقدن الانامل فإنهنّ مسؤولات مستنطقات ولا تغفلن فتنسين الرحمة » أي فتتركن من الرحمة .

قال العلامة المناوي في شرح قوله صلى الله عليه وسلم : واعقدن الانامل أي اعددن عَدَدهن مراتٍ التسبيح بها فإنهن مسؤولات عن عمل صاحبها مستنطقات للشهادة عليه قال : فأما المؤمن فتنطق عليه بخيره وتسكت عن شرّه ستراً من الله تعالى والكافر بالعكس فإن خير الكافر هو لغير الله تعالى فهو هباء . ا هـ .

ثم قال المناوي رحمه الله تعالى : وهـذا أصل في ندب السُبحة المعروفة وكان ذلك معروفاً بين الصحابة .

وقد أخرج عبد الله بن أحمد أن أبا هريرة رضي الله عنه كان له خيط فيه ألفا عقدة فلا ينام حتى يسبح به . ا هـ . ثم قال : وقد اتخذ

---

(١) الفدام هنا هو ما يوضع على الفم لمنع صاحبه عن الكلام حتى تتكلم جوارحه فتشهد عليه بما عمل .

(٢) قال الحافظ الهيثمي في المجمع : رواه أحمد في حديث طويل ورجاله ثقات . ا هـ وقد ذكر الحافظ ابن كثير نحو هذا الحديث المذكور مختصراً وعزاه للنسائي .

السبحة أولياء كثيرون . ورؤي بيد الجنيد رضي الله عنه سبحة فقيل له : مثلك يمسك بيده سبحة ـ أي وقد بلغت مبلغ كل الرجال ونلت مقام الكمال؟ـ فقال رضي الله عنه : طريق وصلت به الى ربي فلا أفارقه .

وفي رواية : قال : شيء استعملناه في البدايات لا نتركه في النهايات أحبُّ أن أذكر الله تعالى بقلبي ويدي ولساني . اهـ .

وأصل دليل السبحة هو حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي رواه أصحاب السنن أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ على امرأة وبين يديها نوى أو حصى تسبِّح بها . الحديث حسَّنه الترمذي .

شهادة الأرض والمدر والحجر والشجر

قال الله تعالى : « إذا زلزلت الارض زلزالها ، وأخرجت الارض أثقالها ، وقال الإنسان مالها ، يومئذٍ تحدّث أخبارها بأن ربك أوحى لها » .

ففي هذه السورة يخبر الله تعالى عن عظمة يوم القيامة وكبير خطره : يوم تزلزل الارض زلزالها الشديد وتضطرب اضطرابها العنيف، وذلك في أوقاتٍ مختلفة فأول زلزالها قبيل الساعة فتخرج ما فيها من معادن وذهب وفضة .

كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تلقي الارض أفلاذ كبدها أمثال الاسطوانة من الذهب والفضّة فيجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت ، ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قُطِعَت يدي، ثم يَدَعونه (أي يتركون ذلك الذهب والفضة) فلا يأخذون منه شيئاً » .

وذلك لأن شواغل الهموم شغلتهم عما هنالك من الذهب والفضة وهذا القطع ليد السارق يشير الى عهد المسيح عيسى عليه السلام حين ينزل في آخر الزمن يطبّق فيه أحكام الشرع المحمدي عليه الصلاة والسلام وذلك عهد قريب من الساعة ثم بعده عليه السلام تمضي مدة ويتغيّر فيه أمر العباد وينتشر الفسق والفساد والهرج وتكثر الزلازل والفتن .

ثم هناك الزلازل التي تقع بعد موت الخلائق ثم إن الله تعالى إذا أراد أن يحشر الاموات أمر الارض أن تلقي مافي بطنها من أثقالها

(أي الاموات في بطنها) وذلك قوله تعالى : « وإذا الارض مدّت وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحُقّت » والمعنى أنها أمرها الله تعالى أن تلقي جميع مافي بطنها فأصغت وانقادت لأمره سبحانه وحقّ لها ذلك . حتى إذا حشروا وصاروا في الآخرة تحدّث الارض أخبارها بسبب أن ربك أوحى لها وأمرها أن تشهد بما عَمِل على ظهرها ولاتكتم من ذلك شيئاً .

روى الترمذي والنسائي وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية « يومئذ تحدّث أخبارها » . قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال : فإن أخبارها أن تشهد على كلّ عبدٍ وأمَةٍ بما عمل على ظهرها تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا فهذه أخبارها »(١) .

وفي معجم الطبراني عن ربيعة الجرشي(٢) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تحفّظوا من الارض فإنها أمّكم وإنه ليس من أحدٍ عاملٍ عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة به » .

وروى أبو نعيم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن الجبل لينادي الجبل باسمه يا فلان هل مرّ بك اليوم ذاكر الله عز وجل ؟ فيقول نعم فيستبشر به . أي ويشهد له بذلك عند الله تعالى .

وروى أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « ما من بقعة يذكر الله عليها بصلاةٍ أو بذكر إلا استشرفتْ بذلك الى منتهاها وفخرت

---

(١) قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب . ا هـ .

(٢) قال في فيض القدير : الجرشي بضم الجيم وفتح الراء وبعدها معجمة وقال الذهبي : مختلف في صحبته قتل يوم مرج راهط وكان فقيهاً وثّقه الدارقطني وغيره . ا هـ وقد أورد هذا الحديث ابن كثير في تفسيره .

على ما حولها من البقاع ، وما من عبدٍ يقوم بفلاةٍ من الارض يريد الصلاة إلا تزخرفت له الارض » .

وروى الامام أحمد رضي الله عنه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤذّن يغفر له مدى صوته ويصدّقه كلّ رطبٍ ويابسٍ » .

ورواه أبو داود وابن خزيمة في صحيحه وعندهما : « ويشهد له كلّ رطبٍ ويابسٍ »(١) .

ورواه النسائي وزاد فيه : « وله مثل أجر مَن صلّى معه » .

ولذلك أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بذكر الله تعالى عند كل شجر وحجر لأنهما يشهدان بذلك يوم القيامة .

فعن أبي سلمة عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أوصني قال : « اعبد الله كأنك تراه واعدد نفسك في الموتى واذكر الله عند كل حجر وعند كل شجر وإذا عملتَ سيئةً فاعمل بجنبها حسنة السرّ بالسرّ والعلانية بالعلانية »(٢) .

قال الحافظ المنذري ورواه البيهقي في كتاب الزهد بالسند عن معاذ قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فمشى قليلا ثم قال : « يا معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ، ووفاء العهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، ورحم اليتيم ، وحفظ الجوار ، وكظم الغيظ ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، ولزوم الإمام ، والتفقّه في القرآن ، وحبّ الآخرة ، والجزع من الحساب ، وقصر الامل ، وحسن

(١) كما في « ترغيب » المنذري ، وأصل هذا الحديث في صحيح البخاري .

(٢) قال الحافظ المنذري في الترغيب : رواه الطبراني باسناد رواته ثقات وأبو سلمة لم يدرك معاذاً . اهـ وذكره المنذري في موضع آخر وحسنه .

العسل ، قال : وأنهاك أن تشتم مسلماً ، أو تصدّق كاذباً أو تعصي إماماً عادلاً وأن تفسد في الارض ، يا معاذ اذكر الله عند كلّ شجرٍ وحجرٍ ، وأحدِث لكل ذنبٍ توبة السرّ بالسرّ والعلانية بالعلانية » .

وروى ابن أبي الدنيا في مناقب عمر رضي الله عنه أن الارض تزلزلت على عهده فضرب يده عليها وقال مالكِ مالكِ ؟ أما إنها لو كانت القيامة حدّثت أخبارها سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذ اكان يوم القيامة فليس ذراع ولا شبر إلا وهو ينطق »(١) .

ومن ذلك شهادة الحجر الاسود على من استلمه بحقٍّ .

روى الترمذي وحسّنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحَجر ـ أي الحجر الاسود ـ : « والله ليبعثنّه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به ويشهد على من استلمه بحقٍّ » .

قال الحافظ المنذري : ورواه الطبراني في الكبير ولفظه : « يبعث الله الحجر الاسود والركن اليماني يوم القيامة ولهما عينان ولسانان وشفتان يشهدان لمن استلمهما بالوفاء » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليهما وسلم : « يأتي الركن اليمانيّ يوم القيامة أعظم من أبي قُبَيْس (أي ذلك الجبل العظيم) له لسان وشفتان » .

رواه أحمد بإسناد حسن والطبراني في الأوسط وزاد فيه : « يشهد لمن استلمه بالحق وهو يمين الله عز وجلّ يصافح بها خلقه »(٢) .

---

(١) انظر الجواب الكافي .
(٢) انظر ترغيب المنذري .

موقف وضع الكتاب الامام
ونشر كتاب كلِّ انسانٍ ليقرأه

إن من جملة مواقف الآخرة موقفاً يوضع فيه كتاب الإحصاء العامّ ، وينشر فيه كتاب كل إنسان الخاصِّ به ليقرأه وبذلك تقوم الحجة على العباد .

أما كتاب الإحصاء العام فهو المذكور في قوله تعالى : « ووُضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » فهو سبحانه لا يظلم في أحكامه كلِّها ، ولا في حكمه يوم يحكم بين العباد بفصل القضاء ـ لا يظلم أحداً .

وقال تعالى : « وأشرقت الارض بنور ربِّها ووُضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون » .

فهذا الكتاب الذي يوضع في ذلك الموقف هو كتاب الإحصاء العام الذي أحصى كلَّ شيء من أعمال العباد وأقوالهم الصادرة منهم فلم يترك كبيرةً ولا صغيرة .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الصغيرة هي التبسم ، والكبيرة هي القهقهة ، وقال سعيد بن جبير : الصغيرة هي اللمَم واللمس والنظر للأجنبية ، والكبيرة هي الزنا . اهـ .

والمعنى أن جميع ما عملوه وصدر عنهم من صغيرة أو كبيرة كل ذلك أحصي عليهم وسُطِّر في الكتاب العام ٠

قال تعالى : « ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » ٠

والمعنى أن كل إنسان رأى عمله الصادر منه في الدنيا حاضراً مشهوداً ، الحسنات بصورة حسنة ، والسيئات بصورة سيئة فتبرز لهم أعمالهم مسطورة في الكتاب ومشهودة بالعيان ٠

وهذا كتاب الإحصاء العام هو المسمى بالإمام المذكور في قوله تعالى : « إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين » ٠

وإنما سمّي هذا الكتاب بالإمام لأنه إمام جميع الكتب الخاصّة بكل إنسان ، وذلك أن كلّ إنسان له كتاب خاص تكتب فيه أعماله وجميع ما يصدر منه وهو الذي تكتبه الملائكة الكرام الكاتبون ٠ وذلك قوله تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ٠

وهذا الكتاب الخاصّ بصاحبه هو المذكور في قوله تعالى :

« وكلّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » ٠

وهذه الكتب الخاصة بأصحابها هي مجموعة كلها ومسطورة أيضاً في ذلك الكتاب الإمام العامّ ، قال تعالى : « وكلّ شيء أحصيناه كتاباً » ٠

كما أن هناك القضاء العامّ المذكور فيه كل شيء قبل وقوع الشيء وهو المسمى بالأم والإمام ، وهناك كتب قضائية خاصة في بعض

القضايا والحوادث والوقائع في أيدي الملائكة عليهم السلام قد وكلوا بتنفيذ ما فيها .

أما كتاب الأم فهو أم الكتاب المذكور في قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . وأم الشيء أصله ومرجعه ، فهو أم الكتب القضائية وقال تعالى : « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبّة في ظلمات الارض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتاب مبين » .

وقال تعالى : « ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » .

والمعنى ان جميع الاشياء حتى المصائب والنوائب هي مكتوبة في ذلك الكتاب قبل أن يبرأ الله تعالى البرية .

ويبين ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء » .

فهنالك كتابان إمامان عظيمان جامعان كما أوضح ذلك العلماء المحققون رضي الله تعالى عنهم أجمعين :

أحدهما : كتاب القضاء المذكور فيه جميع الاشياء قبل وجودها ثم وُجدتْ على حسب ما هي في الكتاب .

ثانيهما : كتاب الإحصاء الذي يحصي الاشياء بعد وجودها وصدورها من العباد ويسطرها عليهم وهذا حجة الله تعالى على خلقه يوم القيامة .

قال الله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ » أي يشهد

عليكم بما عملتم على الوجه الحق لا يزيد عليهم شيئاً ولا ينقص منهم شيئاً « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » أي كنا نستكتب الملائكة أعمالكم في هذا الديوان العام •

وقال تعالى : « ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يُظلمون » •

وفي الحديث القدسي الذي رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عزّ وجلّ أنه قال : « يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفّيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه » •

وقد جمع الله تعالى بين كتابي القضاء والإحصاء الإمامين في قوله تعالى : « وكلُّ شيء فعلوه في الزبر » أي كل شيء فعلوه هو مكتوب في كتاب الإحصاء وفي كتب الحفظة •

« وكلّ صغيرٍ وكبيرٍ مُستَطَر » أي هو مكتوب في أم الكتاب قبل أن يخلق الله تعالى هذه الخليقة ويبرأ البرية •

وأما كتاب أعمال الانسان الخاص به فإنه يُنشر في هذا الموقف ليقرأه ويحاسب نفسه قال الله تعالى : « وكلَّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً• اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » •

والمعنى أن كل إنسان ألزمه الله تعالى ما طار منه ــ أي ما صدر منه من قول وعمل ــ ألزمه ذلك ملازمة الطوق والقلادة للعنق ان كان ذلك العمل خيراً •

وألزمه الله تعالى ما طار منه من قول وعمل ملازمة الغلّ للعنق إن كان ذلك شراً •

فجميع ما يصدر من الانسان ملازم له لا ينفكّ عنه .

وإنما خصّ العنق بالذكر من بين سائر أعضاء الانسان لأن العنق موضع الزَّيْن والشَّين ، فالأطواق والقلائد توضع على العنق زينة لأصحابها، والاغلال توضع في الاعناق شيناً وتحقيراً وتصغيراً لاصحابها.

وكذلك عمل الخير والبرّ هو زينة لصاحبه وأما عمل الشر فهو شَيْن لصاحبه .

قال تعالى : « وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك ... الآية » .

والمعنى أن الله تعالى يخرج لكل إنسان كتاب أعماله التي صدرتْ عنه في الدنيا ـ ليقرأ الانسان كتاب عمله .

وقرأ بعض القراء « ويُخرَج له يوم القيامة كتاباً ... » .

أي ويلقى ذلك الكتاب منشوراً أي مبسوطاً غير مطويّ وإنما نشر له بعد أن طُوي حين توفي ـ لأجل أن يقرأه على مشهد من الملأ والناس .

قال تعالى : « وإذا الصحف نُشرت » أي نشرت صحيفة كل إنسان ليقرأها بعد طيها .

روى الامام أحمد في مسنده عن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس من عملِ يومٍ إلا وهو يختم عليه ، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة يا ربّنا عبدك فلان قد حبسْتَه (أي منعته بسبب المرض عن أعمال النوافل والقربات التي كان يعملها في حال الصحة) فيقول الربّ جلّ وعلا : اختموا له على مثل عمله ـ أي مثل عمله حال صحته ـ حتى يبرأ أو يموت » . قال الحافظ ابن كثير : اسناده جيد قوي .

وتلا الحسن البصري رضي الله عنه قوله تعالى : « عن اليمين وعن الشمال قعيد » .

فقال يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك ووُكّل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت أَقْلِل أو أَكْثِر ، حتى إذا متّ طويتْ صحيفتك فجعلتْ في عنقك معك في قبرك حتى تَخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً اقرأ كتابك ... الآية . فقد عدل والله مَنْ جعلك حسيب نفسك . اهـ .

وقد استدل العلماء بقوله تعالى لكل إنسان « اقرأ كتابك » استدلوا على أن كل إنسان يبعث يوم القيامة قارئاً ، وإن كان في الدنيا أمياً لا يقرأ ـ وذلك بعلم ضروري يخلقه الله تعالى فيه .

وقال تعالى : « هنالك تبلو كلّ نفسٍ ما أسلفتْ وردّوا الى الله مولاهم الحقّ وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » .

والمعنى ان في ذلك الموقف المفزع والمقام المخيف ـ تبلو ـ أي تختبر كل نفس مؤمنة أو كافرة ـ ما أسلفت ـ أي ما قدّمتْ من عمل فإنها تعاين نفعه وضرّه معاينةً جلية .

وقرأ حمزة والكسائي ـ « هنالك تتلو كل نفس ما أسلفتْ » من التلاوة بمعنى القراءة والمراد بذلك قراءة كل نفس كتاب أعمالها التي أسلفتها ، أو هو مأخوذ من التلوّ وهو الاتباع والمعنى أن كل نفس تتبع عملها فإنه يتمثل لصاحبه يوم القيامة فيتبعه صاحبه إما الى الجنة إن كان العمل صالحاً وإما الى النار إن كان العمل سيئاً .

نعم إنه لا تنافر بين القراءات فإن كل نفس سوف تتلو أي تقرأ كتاب أعمالها وسوف تتبع أعمالها صالحةً أو طالحة فكتاب الاحصاء

العام هو ينطق عليهم بالحق كما تقــدم في الآية الكريمة ، أما كتاب الاعمال الخاص بالإنسان فإنه ينشر لصاحبه ليقرأه .

وهنالك يرى الانسان جميع ما صدر عنه من قول وعمل ويرى ما ترتب على ذلك من آثار الخير والشر ومن آثار الهدى وآثار الضلال ، وقد نبه الله تعالى عباده الى ذلك ليكونوا على حذر وبينة من أمرهم .

قال تعـــالى : « إنّا نحن نحيي المــوتى ونكتب ما قــدّموا وآثارهم وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين » .

فيكتب على الانسان ما قدّمه من قول وعمل وحال وتكتب آثار ذلك الناشئة عنها .

فالكلام الطيب الذي له آثار الطيب في نفوس السامعين ، والكلام الحق الذي له آثار نوره وهديه كل ذلك يكتب ؛ فكلام الهداة وآثاره في الذين اهتدوا به يكتب في صحيفة داعية الهــدى ، وكلام المضلين وآثاره الضالة في نفوس الضالين به يكتب في صحيفة داعية الضلالة .

والهدى الساري في نفوس المهتدين يكتب في صحيفة هاديهم ، وضلال الضالين يكتب في صحيفة مضلّيهم .

روى الامام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من دعا الى هدًى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص من آثامهم شيئاً » .

وروى الحاكم وصححه عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ استنّ خيراً فاستُنّ به فله أجره ومثل أجور من اتبعه غــير منتقص من أجورهم ، ومنْ استنّ شراً

فاستُنّ به فعليه وزره ومثل أوزار من اتبعه غير منتقص من أوزارهم».
وتلا حذيفة قوله تعالى : « علمتْ نفس ما قدّمت وأخَّرتْ » .

أي ما قدمت من عملها الصادر منها وما أخَّرت من أعمال غيرها لكونها عُمِلتْ بسببها : خيراً أو شراً . فليحذر الانسان أن يعمل سوءاً أو يقول سوءاً يؤدي ذلك الى اقتداء غيره به فإن أمره خطير ووزره كبير فان من تبعه في ذلك كل آثامهم هي في صحيفة المتسبب ، وفي هذا تنبيه للآباء وللأمهات والمعلمين والمعلمات فإن هؤلاء موضع القدوة للأبناء وللبنات والمتعلمين والمتعلمات فإن الولد يتبع أباه في عمله وقوله، والبنت تتبع أمها في أعمالها حتى في زينتها ، والمتعلم يتبع معلمه . فالواجب على هؤلاء جميعاً أن يحسنوا العمل ويسدّدوا القول ليكونوا قدوة حسنة ولا يكونوا قدوة سيئة فإن آثارهم تكتب في صحيفتهم الى يوم القيامة .

قال مجاهد التابعي المفسر في قوله تعالى : « ونكتب ما قدّموا وآثارهم » الآية الكريمة .

قال : آثارهم هي ما أورثوا من الضلالة . ا هـ . أي وهذا بالنسبة للمضلين . والهداية تكتب أيضاً بالنسبة لأئمة الهدى .

وهكذا كلّ عمل له أثر فانه يكتب كالمشي مثلاً له أثره وهو الخطّ في الارض فتكتب آثار الخطا الى المساجد في صحيفة الماشي الى المسجد وهكذا الماشي الى مجالس العلم والعبادة ومجالس تلاوة القرآن الكريم ومجالس ذكر الله تعالى والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فإن آثار خطاهم تكتب .

روى أبو نعيم في الحلية بإسناده الى ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : كنا نؤمر أن نقارب الخُطا الى الصلاة . وذلك ليكثر عدد الخطوات فتكتب في صحيفة الحسنات .

وروى الامام مسلم والامام أحمد في المسند عن جابر رضي الله عنه قال : خَلَتْ البقاع حول المسجد ـ أي المسجد النبوي الشريف ـ فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم: « إني بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟ قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك . فقال صلى الله عليه وسلم : يا بني سلمة ديارَكم تكتب آثاركم ديارَكم تكتب آثاركم » . فأقاموا مكانهم .

والمعنى الزموا ديارَكم البعيدة عن المسجد تكتب آثار خطاكم في صحيفة حسناتكم .

فأعمال الانسان التي قدّمها تكتب عليه ويكتب عليه أيضاً آثاره في الخير والشر .

فالأولاد الذين تأثّروا بإيمان آبائهم وصلاح آبائهم ونصحهم لهم فآمنوا وصلحوا فان ذلك يكتب في صحيفة الآباء باعتبار أنه من آثارهم ويكتب في صحيفة الأبناء لانه من أعمالهم التي قدموها ، والاولاد الذين تأثروا بكفر آبائهم وتضليل آبائهم لهم وفسق آبائهم كلّ ذلك يكون في صحيفة آبائهم لأنه من آثارهم وفي صحيفة الابناء لانه من عملهم الذي قدموه .

والى ذلك نبه النبي صلى الله عليه وسلم وأنذر .

روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلّ مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تنتَج البهيمة بهيمةً جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء حتى أنتم تجدعونها ، ثم يقرأ قول الله تعالى : « فطرةَ الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » أي لا تغيّروا خلق الله وذلك بأن تغيّروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها فهو

خبر بمعنى الإنشاء(١) وذلك أن الله تعالى فطر العباد على توحيده والإيمان به وبما جاء من عنده .

كما قال سبحانه : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرةَ الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيِّم ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون » .

فالإشارة في قوله سبحانه «ذلك» ـ تعود الى ماتقدَّمها وهو الفطرة التي فطر الناس عليها فإنها فطرة على الدين القيِّم المستوي الذي لا عوج فيه(٢) ولا خلل ولا إفراط فيه ولا تفريط .

« ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون » استقامته وعدله واعتداله لعدم تدبرهم وعدم تعقلهم وتفهمهم فإنه دين قويم حكيم لقوم يفقهون ولقوم يدبَّرون آيات كتابه التي أنزلها الله تعالى الحكيم الخبير .

قال تعالى : « كتاب أحكِمتْ آياته ثمَّ فصِّلت من لَدُنْ حكيم خبير . ألاَّ تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير » .

★ ★ ★

(١) انظر تفسير ابن كثير وغيره .
(٢) انظر تفسير البيضاوي وغيره .

عالَم القِصاص

القصاص هو أخذ الحقّ من الظالم للمظلوم ومن الباغي للمبغيّ عليه وقد جاء أن القصاص يوم القيامة هو عامٌ بين كل ظالمٍ ومظلوم وباغٍ ومبغيٍّ عليه سواء أكان ذلك من المكلفين من الثقلين أو غيرهما •

قال الله تعـالى : « وعنت الوجوه للحيّ القيوم وقد خاب من حَمَل ظلما » أي خاب يوم القيامة من حمل ظلماً لخلق الله تعالى في الدنيا فإن الله تعالى سوف يوصل كلّ حقٍّ الى صاحبه حتى إنه يقتص للشاة الجمّاء من الشاة القرناء •

طريقة قصاص المظالم بين العباد

روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ كانت عنده مَظلمة ــ أي ظُلامة ــ لأخيه فلْيتحلّله منه اليوم فإنه ليس ثَمّ ــ أي ليس في الآخرة ــ دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئآت أخيه فطُرِحتْ عليه » •

فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم طريقة المقاصّة بين العباد يوم القيامة وذلك بأن يؤخذ من حسنات الظالم للمظلوم بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات طرح من سيئآت المظلوم فطرحت على ظالمه •

وهذا هو حقيقة الإفلاس وهو ذهاب حسنات الانسان الى غيره وتحمّله سيئات غيره من باب الحوالة اللازمة عليه .

روى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع .

فقال صلى الله عليه وسلم : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وصدقة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من سيئآتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار » .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجيء الظالم يوم القيامة حتى إذا كان على جسر جهنم بين الظُلمة والوعرة لقيه المظلوم فعرفه وعرف ما ظلمه به فما يبرح الذين ظُلموا يقصّون (أي يقتصّون) من الذين ظَلَموا حتى ينزعوا ما في أيديهم من الحسنات فان لم تكن لهم حسنات رُدّ عليهم من سيئاتهم ـ أي سيئات أصحاب الحقوق ـ حتى يُورَدوا الدرك الاسفل من النار »(١) .

* * *

(١) قال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الاوسط ورجاله وثقوا. اهـ .

القصاص يوم القيامة يجري في جميع المظالم كبيرها وصغيرها حتى اللّطمة

روى الامام أحمد بإسناد حسن عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يحشر الله العبادَ يوم القيامة ، أو قال : يحشر الله الناس عراة غرلاً بُهماً قال فقلنا : يا رسول الله ، وما بُهماً ؟ قال : ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوتٍ يسمعه من بَعُد كما يسمعه من قرُب يقول : أنا الدّيّان ، أنا الملك لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حقٌ حتى أقصّه منه ، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عنده حقٌ حتى أقصّه منه حتى اللطمة » .

قال : فقلنا يا رسول الله ، كيف وإنما نأتي عراة غرلاً بهماً أي ليس معنا شيء من الدنيا حتى نؤدي الحقوق علينا ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : « بالحسنات والسيئات » .

والمعنى أن القصاص يجري بين الناس يوم القيامة بالحسنات والسيئات لا بالدنانير والدريهمات فإنها متروكة في الدنيا .

والحسنات التي يأخذها المؤمن في مقابلة الحق الذي له عند غيره تنفعه في تكفير سيئاته أو رفع درجاته على حسب حاله وحال تلك الحسنات وأما الحسنات التي يأخذها الرجل من أهل النار في مقابل حقّه الذي له على غيره فإنها تنفعه في تخفيف العذاب من حيث الشدة لا من حيث المدّة .

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي وكان في يده سواك فدعا وصيفةً (أي جارية مملوكة) له أو لها حتى استبان الغضب في وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم « أي غضب صلى الله عليه وسلم حين دعا الوصيفة ولم تجبه متشاغلةً في اللعب » .

فخرجت أم سلمة الى الحجرات فوجدتْ الوصيفة وهي تلعب ببهمة ـ أي ولد الضأن ـ فقالت ألا أراك تلعبين بهذه البهمة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك ؟

فقالت : لا والذي بعثك بالحقّ ما سمعتُك ، فقال صلى الله عليه وسلم : لولا خشية القَوَد (أي القصاص) لأوجعتك بهذا السواك » .

وفي رواية : « لولا القصاص لعذبتكِ بهذا السواك » قال في الترغيب : رواه أبو يعلى بأسانيد أحدها جيّد[1] . ا هـ .

وفي هذا دليل واضح على أن حقوق العباد لايُتجاوز عنها ولاتعفى مالم يعفُ صاحبها ويسمح .

روى الامام أحمد والحاكم عن عائشة ضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الدواوين ثلاثة : فديوان لا يغفر الله منه شيئاً ، وديوان لا يعبأ الله به شيئاً ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً . قال صلى الله عليه وسلم : فأما الديوان الذي لا يغفر الله منه شيئاً فالاشراك بالله تعالى ، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه ، من صوم يوم تركه أو صلاة تركها فإن الله يغفر ذلك

---

(١) وقال في مجمع الزوائد : روى هذا كله أبو يعلى والطبراني . وإسناده جيد عند أبي يعلى والطبراني . ا هـ .

إن شاء ويتجاوز ، وأما الديوان الــذي لا يترك الله منه شيئاً فمظالم العباد بينهم القصاص لا محالة »[1] .

والمعنى أن الدواوين عند الله تعالى وهي الكتب الكبرى الجامعة للأعمال هي ثلاثة أصناف . فديوان لا يغفر الله من شيئاً وهو الاشراك بالله تعالى لأن الله تعالى قال : « إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

وأما الديوان الذي لا يعبأ به شيئاً أي لا يبالي به فيغفر إن شاء عما شاء لمن شاء ويتجاوز عنه وذلك يتعلق بذنوب العبد بينه وبين ربه لأن الله تعالى قال : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » الآية .

فالمذنب مع ربه بغير الشرك وذلك من معاصٍ قد ارتكبها وسيئات قد اقترفها فإن أمر عاقبته معلّق على مشيئة الله تعالى إن شاء غفر له وإن شاء عذّبه كما جاء ذلك مصرحاً في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه المروي في الصحيحين وغيرهما :

قال : قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم وحوله عصابة مــن أصحابه : « بايعوني عــلى أن لا تشركوا بالله ولا تسرقوا ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتانٍ تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا في معروف ، فَمَن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفّارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو الى الله (أي أمره الى الله تعالى) إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه » فبايعناه على ذلك .

---

(١) قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد: في سند أحمد صدقه بن أبي موسى ضعفه الجمهور وبقية رجاله ثقات . ا هـ . وصححه الحاكم ورمز السيوطي الى حسنه .

وأما الديوان الثالث فالقصاص إن لم يعف صاحب الحق .

قال العلامة الطيبي رحمه الله تعالى : إنما قال صلى الله عليه وسلم في القرينة الاولى : لا يغفر الله منه ليدلَّ على أن الشرك لا يغفر أصلاً ، وفي الثالثة : لا يترك ــ ليؤذن بأن حق الغير لا يهمل قطعاً . إما بأن يقتصّ من خصمه أو يرضيه الله تعالى عنه أي عن خصمه . اهـ .

فليس ثمة ترك ولا إهمال لحق العبد على غيره وإنما هو القصاص أو إرضاء الله تعالى صاحب الحق يوم القيامة عن خصمه إن لم يعفُ عنه في الدنيا فإن من عفا عن أخيه فأجره على الله تعالى ولذلك ندب الله تعالى عباده الى العفو وبيَّن علو مقام العافين عن الناس .

قال الله تعالى : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » .

فهذه صفات كمل المؤمنين أنه إذا سيء إليهم كظموا غيظهم فلم ينفّذوا غضبهم وعفوا من قلوبهم فلا يبقى في نفوسهم موجدة ثم يحسنون الى من أساء إليهم فهم المتقون حقاً .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اسمحْ يُسمحْ لك »(١) .

وروى الامام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ارحموا تُرحموا واغفروا يُغفر لكم ويل لأقماع القول ، ويل للمصرِّين الذين يُصرّون على ما فعلوا وهم يعلمون » .

فمن أراد أن يغفر الله تعالى له وأن يرحمه فليغفر لعباد الله تعالى وليرحمهم .

---

(١) رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجالهما رجال الصحيح ورواه البزار كما في مجمع الزوائد .

هذا وإن العبد المذنب مع عباد الله تعالى المسيء إليهم قد تشمله عناية من الله بسبب أعمال صالحة كثيرة تقرّب بها الى الله تعالى فإن الله تعالى إذا أراد الرحمة والعناية به يعرض على خصمه منزلة من الجنة عالية فيرغب فيها حين يراها ويسأل ربه تعالى الوصول إليها فيقول له سبحانه إنما تنالهـا بعفوك عن ذلك الأخ المؤمن فيعفو عنه ويدخلان الجنة جميعاً .

جاء عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأينا بدتْ ثناياه فقال له عمر رضي الله عنه : ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : رجلان من أمتي جثيا بين يدي ربِّ العزّة فقال أحدهما : يا ربّ خذ لي مظلمتي من أخي ، فقال الله تعالى : أعطِ أخاك مظلمتـه . قال يا ربِّ لم يبق من حسناتي شيء فقال : يا ربّ فليحمل من أوزاري ، وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء (أي من باب الرأفة والرحمة للمؤمنين) ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس الى أن يُحمل عنهم من أوزارهم ، فقال الله تعالى (أي لطالب حقه) ارفع بصرك فانظر ، فقال يا ربِّ أرى مدائن من ذهب وفضةٍ مكللةً باللؤلؤ لأيِّ نبيٍّ هذا ؟ ولأي صدّيق هذا ، ولأي شهيدٍ هذا ؟

قال الله تعالى : « هذا لمن أعطى الثمن ، قال : يا ربِّ ومَنْ يملك ذلك ؟ قال أنت تملكه ، قال : بماذا ؟ قال : بعفوك عن أخيك ، قال يا ربّ فإني قـد عفوتُ عنـه ، قال الله تعالى : فخـذ بيد أخيك فادخل الجنة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : اتقوا الله وأصلحوا

ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة »(١) أي يوفق بينهم بإلهام المظلوم العفو عن ظالمه وتعويضه بأحسن الجزاء .

وروى الطبراني بسندٍ حسن عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا التقى الخلائق يوم القيامة نادى منادٍ : يا أهل الجمع تداركوا المظالم بينكم ، وثوابكم عليّ » . أي على الله تعالى .

وروى الطبراني عن أم هانىء مرفوعاً : « إن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحدٍ ثم ينادي منادٍ من تحت العرش : يا أهل التوحيد إن الله عز وجلّ قد عفا عنكم فيقوم الناس فيتعلّق بعضهم ببعض في ظلامات (أي حقوق بينهم) فينادي منادٍ : يا أهل التوحيد ليعْفُ بعضكم عن بعضٍ وعليّ الثواب » .

قال الامام الغزالي رضي الله عنه : هذا محمول على من تاب من الظلم ولم يعد إليه وهم الأوّابون في قوله تعالى : « إنه كان للأوابين غفوراً » .

قال العلامة القرطبي : وهذا تأويل حسن أو يكون فيمن له خبيئة من عملٍ صالح يغفر الله له به ويُرضي خصماءه ، ولو كان عامّاً في جميع الناس ما دخل أحد النار . اهـ .

وفي الحديث عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يقضي الله عنهم يوم القيامة : رجل خاف العدوّ

---

(١) رواه البيهقي في « البعث » ، ورواه أبو يعلى وسعيد بن منصور والحاكم وصحح إسناده . قال الحافظ الزرقاني : وله شواهد ترفعه الى درجة الحسن ، منها حديث أنس وإسناده حسن ، وحديث أم هانىء . اهـ . أي : الحديثان المذكوران بعده .

على بيضة[1] المسلمين ، وليس عنده قوّة فادّان ديناً فابتاع سلاحاً وتقوّى به في سبيل الله عز وجل فمات قبل أن يقضيه ولم يقدر على قضائه فهذا يقضي الله عنه ، ورجل مات عنده أخوه المسلم فلم يجد ما يكفنه فيه فاستقرض واشترى به كفناً فمات ولم يقدر على قضائه فهذا يقضي الله عنه ، ورجل خاف على نفسه العَنَت(أي الإثم والوقوع في الزنا) واشتدّت عليه العزوبة فاستقرض فتزوّج ولم يقدر على قضائه فمات فهذا يقضي الله عنه يوم القيامة »[2] .

(1) المراد ببيضة المسلمين مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقرّ دعوتهم . كما في النهاية .

(2) رواه أبو نعيم في الحلية ٣ : ٢٥٥ .

القصاص بين الحيوانات

قال الله تعالى : « وإذا الوحوش حُشِرتْ » .

وقال تعالى : « وما من دابَّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرَّطنا في الكتاب من شيءٍ ثم الى ربهم يُحشرون » .

قال قتادة حول هـذه الآية : يُحشر كل شيء حتى الذباب ــ للقصاص فإذا قضي بينها رُدَّت تراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم كالطاووس ونحوه . اهـ .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لَتُؤدُّنَّ الحقوق الى أهلها حتى يُقاد للشاة الجَلْحاء من الشاة القرناء » .

فالشاة القرناء التي نطحت بقرونهـا ــ في الدنيا شاة جلحـاء ــ لا قرون لها ــ يقتص منها يوم القيامة لا محالة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يُقتصُّ للخلق من بعضهـم لبعض حتى للجلحـاء من القرنـاء وحتى من الذَّرَّة للذَّرَّة » . رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً ، وشاتان تعتلفان فنطحت إحداهما الأخرى فأجهضتها فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقيل ما يضحكك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « عجبتُ لهـا ، والذي نفسي بيده ليُقادَنَّ يوم القيامة » .

وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين تنتطحان

فقال : « يا أبا ذر هل تدري فيما انتطحتا ؟ قال : لا . فقال صلى الله عليه وسلم : ولكنّ الله يدري وسيقضي بينهما » (١) .

فهذه الأحاديث النبوية تبين الحكمة في الحشر العام لدواب الارض وسائر الطيور الذي دلت الآية المتقدمة وهي قوله تعالى : « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون » .

فالضمير في (يحشرون) يعود الى جميع ما تقدم ذكره وعمومه وفي هذا بيان وإعلان وإعلام بعظمة عدل الله تعالى بين سائر خلقه حتى بين الذرة والذرة وبين الحيوان والحيوان فكيف يهمل الحَكَمَ العدْلَ بين الانسان والانسان تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فليتق الانسان ربه في حقوق الله تعالى وفي حقوق العباد وفي حقوق الحيوانات . وقد تقدم في الحديث أن العصفور الذي قتل في الدنيا عبثاً يعجّ الى الله يوم القيامة يطالب بحقه يقول : يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً .

وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دخلت امرأة النار في هرّة فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خَشاش الارض »(٢) .

وفي رواية « عُذّبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الارض » . وفي رواية لأحمد : « فوجبت لها النار بذلك » .

---

(١) قال في مجمع الزوائد : رواه كله أحمد والبزّار بالرواية الاولى وكذلك الطبراني في المعجم الأوسط وفيها ليث بن أبي سليم وهو مدلس ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح غير شيخه ابن عائشة وهو ثقة ورجال الرواية الثانية رجال الصحيح وفيها راوٍ لم يُسمّ . اهـ .

(٢) قال المنذري: خشاش الأرض: مثلثة الخاء المعجمة وبشينين معجمتين : هو حشرات الأرض والعصافير ونحوها .

وفي هـذا تنبيه الى الاهتمام بحقوق الحيوانات والبهائـم وفيه التحذير من ظلمها وتعذيبها فإن الله تعالى الذي خلقها وسخرها للانسان سوف يحاسب الانسان ويسأله عما خوّلـه وسخر له من البهائـم والحيوانات هل أداها حقها أم ظلمها بأن أجاعها أو أجهدها أو حمّلها فوق طاقتها فليتق الانسان ربه في ذلك •

روى أبو داود عن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه قال : مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعير قد لصق ظهره ببطنه (أي من شدة جوعه) فقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة » •

كما حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من إيلام الحيوان وتعذيبه فقد روى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ على حمارٍ قد وُسم في وجهه فقال صلى الله عليه وسلم : « لعن الله الذي وسَمَه » •

وفي رواية : « نهى رسول الله صلى الله عليـه وسلم عن الضرب في الوجه وعن الوسْم في الوجه » •

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سوف يجري في ذلك القصاص •

فعن جنادة بن جرادة بن جنادة رضي الله عنه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بإبلٍ قد وسمتُهـا في أنفهـا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا جنادة فما وجدت عضواً تسِـمه إلا في الوجه • أمّا إن أمامك القصاص » • فقال : أمرها إليك يا رسول الله • الحديث قال المنذري رواه الطبراني •

خطر حقوق العباد وعظم أمرها يوم القيامة

روى الشيخان وغيرهما عن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبته في حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلّغتُ ؟ »

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كلّ المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » .

فهناك حقوق الدماء ، وهناك حقوق الاموال ، وهناك حقوق الأعراض وكل واحد من هذه الحقوق جاءت في بيان خطره وعقاب من انتهكه أحاديث كثيرة ليس موضع تفصيلها هنا ولكن نذكر أطرافاً منها لكي يعلم الانسان أن حقوق العباد خطرها جسيم وعقابها أليم وأمرها عند الله تعالى عظيم .

أما حقوق الدماء فاعتبر فيما جاء عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمنٍ لأكبّهم الله في النار » .

رواه الترمذي وقال حديث حسن غريب . وروى الطبراني في الصغير نحوه .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لزَوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمنٍ بغير حق » . رواه ابن ماجه بإسناد حسن قال الحافظ المنذري :

ورواه البيهقي والاصفهاني وزاد فيه : « ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم النار » .

وعن ابن عمرو رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لـزَوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم » .

قال المنذري : رواه مسلم والنسائي والترمذي مرفوعاً وموقوفاً ورجح الموقوف .

وعن ابن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن قتل معاهداً لم يَرَحْ رائحة الجنة (أي لم يجد ريحها) وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً » .

قال المنذري : رواه البخاري واللفظ له والنسائي إلا أنه قال : « مَن قتل قتيلاً من أهل الذمة » .

وفي رواية للنسائي : « وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاماً . وعند ابن حبان في صحيحه : وإن ريح الجنة ليوجد من مسيرة مائة عام » .

هذا وقد جاء الوعيد الشديد في شأن الذي يعين على قتل مؤمن ولو بشطر كلمة .

روى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله » .

ورواه الاصبهاني وزاد : قال سفيان بن عيينة : هو أن يقول : اق . يعني لا يتم كلمة اقتل . اهـ .

وروى البيهقي نحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، كما في ترهيب المنذري .

وأما حقوق الاموال فاعتبر فيما جاء في حق الذي يستدين ولا يفي الديون .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « نفس المؤمن معلّقة بدَينه حتى يقضى عنه » .

رواه أحمد والترمذي وحسّنه وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ولفظه :

قال صلى الله عليه وسلم: « نفس المؤمن معلّقة ماكان عليه دين» .

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أعظم الذنوب عند الله تعالى أن يلقاه بها عبد بعد الكبائر التي نهى الله عنها : أن يموت رجل وعليه دينْ لا يَدَع (أي لا يترك) له قضاءً » . رواه أبو داود والبيهقي .

وقد جاء أن مَن أخذ أموال الناس وهو يريد إتلافها ولا يريد وفاءها فليعلم أن الله سوف يتلفه .

روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله تعالى » .

وعن ميمون الكردي عن أبيه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أيّما رجلٍ تزوّج امرأةً على ما قلّ من المهر أو كثر ليس في نفسه أن يؤدّي إليها حقها خدعها فمات ولم يؤدّ

إليها حقها لقي الله يوم القيامة وهو زان ، وأيما رجل استدان ديناً لا يريد أن يؤدي الى صاحبه حقه خدعه حتى أخذ ماله فمات ولم يؤدّ إليه دينه لقي الله وهو سارق »(١) .

فليحذر المسلمون من أكل مهور نسائهم بأنواع الحيل وليحذروا أكل أموال بعضهم ظلماً فإن هناك موقفاً بين يدي الحَكَم العدل سبحانه وتعالى .

وأما حقوق الأعراض : والاعراض جمع عِرض وهو موضع المدح والذمّ من الانسان سواء كان في نفسه أو سلفه كما قال العلماء فيجب أن تصان الاعراض عن الانتهاك . وهو تناولها بغير حقّ . ويدخل تحت انتهاك الاعراض أمور كثيرة منها القذف والشتم والبهتان والغيبة وإشاعات الكلمات حول من هو بريء منها فإن ذلك يجري فيه القصاص يوم القيامة .

وقد تقدم في الحديث الشريف أن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وصدقة أي هو متمسك بأوامر الشريعة ولكن يأتي وقد قذف هذا وشتم هذا وضرب هذا وسفك دم هذا فيأخذون من حسناته فإن فنيتْ طرح من سيئاتهم عليه ثم طرح في النار .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من ذكر امرءاً بشيء ليس فيه ليعيبه به حبسه الله في نار جهنم حتى يأتي بنفاد ما قال فيه » . رواه الطبراني بإسناد جيد وفي رواية له : « أيّما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة وهو منها بريء يشينه بها في الدنيا كان حقاً على الله أن يذيبه يوم القيامة في النار حتى يأتي بنفاد ما قال » .

---

(١) قال المنذري : رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورواته ثقات. ا هـ .

وروى أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ قال في مؤمنٍ ما ليس فيه أسكنه الله رَدْغة الخَبال(١) حتى يخرج مما قال » . وفي رواية الطبراني : « وليس بخارج » .

والذي يُعاب عنده أخوه المسلم أو يُغتاب وهو ساكت على ذلك فهو آثم في الدنيا والآخرة .

روى أبو داود وابن أبي الدنيا وغيرهما عن جابر بن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من امرىءٍ مسلمٍ يخذل امرءاً مسلماً في موضع تُنتَهك فيه حرمته ، ويُنتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرىء مسلم ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحبّ فيه نصرته » .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من اغتيب عنده أخوه المسلم فلم ينصره وهو يستطيع نصره أدركه إثمه في الدنيا والآخرة » .

رواه أبو الشيخ في كتاب التوبيخ والاصبهاني كما في ترهيب المنذري .

ولا أريد أن أبسط الكلام في بيان حقوق المسلمين على بعضهم وأنواعها وبيان أحكام مَن ضيعها أو انتهك شيئاً منها فإنها كثيرة جداً . وسوف يُسأل عنها العبد يوم القيامة وإن تفصيل الكلام عليها يحتاج الى مجلد كبير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والى الله المشتكى وأين أكثر المسلمين من تلك الحقوق ؟!

---

(١) قال المنذري : ردغة بفتح الراء وإسكان الدال المهملة وبالغين المعجمة . والخبال : بفتح الخاء المعجمة ، وردغة الخبال هي : عصارة أهل النار . كذا جاء مفسراً مرفوعاً . ا هـ .

وإنني أذكر قضية هي جزئية بالنسبة للأكبر منها ــ وقعت بــين صحابيين عظيمين لعلّ متذكّراً يتذكر ، ولعلّ معتبراً يعتبر بها فيدرك دقة الحقوق بين المسلمين ودقة المسؤولية عنها ومنها يعرف رقّة المزاج الإيماني ولطافة الطبع الاسلامي وأن الانسان المسلم هو الانسان ليس بحيوان ولا ثعبان.

روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : مررتُ بعثمان بن عفان رضي الله عنه في المسجد فسلّمتُ عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد عليّ السلام فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث في الاسلام شيء ؟

فقال عمر : لا ، وما ذاك ؟ قلتُ : لا ــ أي ليس هناك شيء ــ إلا أني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلّمت عليه فملأ عينيه مني فلم يردّ عليّ السلام . فأرسل عمر الى عثمان فدعاه فقال له : ما منعك أن لا تكون ــ أي أن تكون ــ رددتَ على أخيك السلام ؟

فقال عثمان : مافعلتُ . فقال سعد قلت : بلى ــ أي فعلت ــ حتى حلف وحلفتُ . قال سعد : ثم إن عثمان ذكره أي تذكّر فقال بلى وأستغفر الله وأتوب إليه : إنك مررتَ بي آنفــاً وأنا أحدّث نفسي بكلمة سمعتُها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا والله ما ذكرتها قطّ إلا تغشّى بصري وقلبي غشاوة . قال ــ سعد ــ : فأنا أنبئك بها .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لنا أوّل دعوة ثم جــاء أعرابيٌّ فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعتُه فلما أشفقت أن يسبقني الى منزله ضربت بقدمي الارض فالتفتَ إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « مَن هذا ؟ أبو اسحاق ؟ » قال سعدٌ : نعم يا رسول الله .

قال صلى الله عليه وسلم : فمه — أي ما جاء بك — قلت : لا والله إلا أنك ذكرت لنا أوّل دعوة ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك قال صلى الله عليه وسلم : نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) فإنه لم يدع بها مسلم ربّه في شيء قط إلا استجاب له » . الحديث وقد رواه الترمذي والنسائي أيضاً وغيرهما .

فهذا سعد رضي الله عنه يمرّ فيسلم على عثمان بن عفان رضي الله عنه فلم يردّ عليه لأنه كان مشغول البال مستغرق الحال في التفكر حول دعاء عظيم أراد صلى الله عليه وسلم أن يعلمه للصحابة ولكن دخل الأعرابي فشغله عن ذلك حتى قام صلى الله عليه وسلم من المجلس فحزن عثمان لذلك وكرب حتى صار كلما تذكر ذلك يتغشاه الحزن والكرب .

وهاهنا يمرّ سعد فيسلم فيؤدّي ما عليه من حق البدء بالسلام ولكن لم يسمع جواباً من عثمان قياماً بما عليه من حق ردّ السلام ، فراح سعد يرفع الأمر الى أمير المؤمنين ويسأله هل حصل شيء في حكم الاسلام وشرعيته ؟ وإذا بعمر رضي الله تعالى عنه يحضر عثمان ويسأله عن ذلك ثم بعد ذلك يعتذر عثمان رضي الله عنه بأنه مشغول البال ، مستغرق الحال ، لم يصغ الى سلام سعد رضي الله عنهم أجمعين .

فاعبر من هذه القضية المتعلّقة بحق التحية بين المسلمين — الى ما وراءها من الحقوق بين المسلمين بعضهم لبعض فكم ترى من المسلمين يمرّون ولا يسلّمون وإذا سُلّم عليهم لا يجيبون .

ألم يعلموا أن فصل القضاء يوم القيامة سيفصل بينهم وأن هناك قنطرة الحقوق سيمرون عليها اللهم اجعلنا من الذين قلت فيهم « وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون».

وإن لنا بحثاً واسعاً حول بيان حقوق الاسلام وواجباته سوف نوافيك به إن شاء الله تعالى في غير هذا المصنف مع بسط الأدلة من الكتاب والسنة.

وعن ابن عثمان عن سلمان الفارسي وسعد بن مالك ، وحذيفة ابن اليمان ، وعبد الله بن مسعود حتى عدّ ـ ابن عثمان ـ ستة أو سبعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : إن الرجل لترفع له يوم القيامة صحيفته حتى يَرى أنه ناجٍ فما تزال مظالم بني آدم تتبعه حتى ما يبقى له حسنة ويُحمل عليه من سيئاتهم » .

قال الحافظ المنذري : رواه البيهقي في البعث بإسناد جيّد . ا هـ.

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته ، والله ما يتكلم لسانها ولكن يداها ورجلاها ويشهدان عليها بما كانت تعيب لزوجها، وتشهد يداه ورجلاه بما كان يُوليها، ثم يُدعى الرجل وخدمه فمثل ذلك ثم يدعى أهل الاسواق وما يوجد ثَمّ دوانيق ولا قراريط ، ولكن حسنات هذا تدفع الى هذا الذي ظَلم ، وسيئات هـذا الذي ظلمه توضع عليه، ثم يؤتى بالجبّارين في مقامع من حديد فيقال أوردوهم الى النار » . الحديث .

قال في مجمع الزوائد : رواه الطبراني وفيه عبد الله بن عبد العزيز الليثي وهو ضعيف وقد وثّقه سعيد بن منصور وقال كان مالك يرضاه، وبقية رجاله رجال الصحيح . ا هـ .

عالم الصراط

قال العلاّمة القرطبي : الصراط لغةً هو الطريق وعرفاً هو جسر يُضرب على ظهر جهنم تمرّ الناس عليه الى الجنة فينجو المؤمنون على كيفياتٍ متعددة ــ يأتي بيانها ــ ويسقط المنافقون . اهـ .

وقد أخبر الله تعالى أن جميع العباد سوف يردون يوم القيامة على جهنم ويمرون على هذا الصراط قال الله تعالى : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضيّاً ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيّاً » .

والكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه متعددة :

أولاً : عموم الورود لجميع الثقلين وأنهم كلهم سيردون جهنم يوم القيامة ثم ينجو من ينجيه الله تعالى ويترك فيها الظالمون .

ثانياً : البحث في المراد بالورود في هذه الآية الكريمة وقد اختلف العلماء في ذلك :

فذهب بعضهم الى أن المراد من قوله تعالى وإن منكم إلا واردها ــ الجواز على الصراط لأنه ممدود على النار قال في المواهب وشرحها : ورجح هذا القول الإمام النووي وروى ابن عساكر عن ابن عباس وابن مسعود وكعب الأحبار أنهم قالوا الورود هو المرور على الصراط وكذا قال الحسن البصري عند البيهقي بلفظ : الورود المرور عليها من غير أن يدخلها، وكذا قاله خالد بن معدان وعكرمة عند البيهقي وغيره. اهـ.

وذهب كثير من العلماء الى أن المراد بالورود هنا الدخول وقد

رجح هـذا القول العلامة القرطبي وأخرجـه الحاكم عن ابن مسعود والبيهقي عن ابن عباس وقاله جماعة(١) .

قال الحافظ ابن كثـير والى هذا القول ذهب علي وابن عباس رضي الله عنهما وعليه جمهور أهل العلم سلفاً وخلفاً ا هـ . واستدلوا على ذلك بقوله تعالى مخبراً عن فرعون وقومه يوم القيامة : « يقدُم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود » .

والمعنى أن فرعون يتقدَّم قومه الى النار قائداً لهم كما قادهم في الدنيا حتى يرد بهم النار أي يدخلهم النار . واستدلوا على ذلك أيضاً بقوله تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَب جهنم أنتم لها واردون » أي داخلون فيها .

واستدلوا على ذلك أيضاً بقوله تعالى : « ثم ننجِّي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثّياً » .

فإن الله تعالى أخبر عن نتيجة الواردين فقال:« وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً،ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً». فقد نجى الله تعالى المتقين بعدما وردوها وقد أبقى فيها أي في داخلها الظالمين جاثين على الركب من الزحام والضيق فيها .

فهذا دليل على أن الذين اتقوا أنجاهم الله تعالى منها بعدما دخلوها فأخرجهم ناجين لم يمسسهم سوء إذ أن النجاة تكون بعد الدخول فيها والتعرض لنيرانها .

فالمؤمنون الأتقياء يدخلونها دخول مرور وعبور أما الكفار فإنهم يدخلونها دخول بقاء فيها وقرار .

---

(١) كذا في شرح المواهب ٨ : ٣٩٣ .

واستدل العلماء على أن المراد بالورود في هذه الآية ــ الدخول • استدلوا على ذلك بما جاء عن أبي سُميَّة قال : اختلفنا في الورود ــ المذكور في الآية ــ فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن وقال بعضنا ندخلها جميعاً ، ثم ينجي الله الذين اتقوا • قال : فلقيت جابر بن عبد الله فقلتُ له : إنا اختلفنا في الورود فقال جابر : يردونها جميعاً (أي المؤمن والكافر) فقلت له إنا اختلفنا في ذلك فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضنا ندخلها جميعاً(١) فأهوى بإصبعيه الى أذنيه وقال : صُمَّتا إن لم أكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الورود الدخول ، لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار أو قال : لجهنم ضجيجاً (أي صياحاً قوياً) من بردهم : ثم ينجِّي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً » •

قال الحافظ المنذري : رواه أحمد ورواته ثقات والبيهقي بإسناد حسن • ا هـ • ورواه الحاكم وصححه(٢) •

وروى عبد الرزاق أن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الورود في قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها » هو الدخول فقال نافع ابن الأزرق : لا •

فقرأ ابن عباس : « إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون » أدَخلوا أم لا ؟ ثم قال ابن عباس : أمَّا أنا وأنتَ يا نافع فسندخلها فانظر هل تخرج منها أم لا ؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك فضحك نافع •

---

(١) قال الحافظ الزرقاني : أعاد أبو سمية على جابر السؤال ليعلم دليله لأنه أجابه أولاً بدون دليل فلما فهم منه طلب الدليل لأنه القاطع للنزاع ذكره • ا هـ •

(٢) انظر المواهب وشرحه •

وروى الامام مسلم عن أم مبشر الانصارية رضي الله عنها أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة رضي الله عنها : « لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتهـا » وفي رواية أحمد : « لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية » .

قالت حفصة : بلى يا رسول الله فانتهرها صلى الله عليه وسلم فقالت حفصة : « وإن منكم إلا واردها » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد قال الله تعالى : « ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً » فقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة أحد » أراد بذلك البشرى لأهل بيعة الرضوان الذين بايعوه تحت الشجرة على الموت . ووجه البشرى لهم بأنهم لا يُعذَّبون في النار ولا يدخلونها دخول مكث وقرار فيها كما هو شأن من يعذبه الله تعالى في النار . وأما دخول المرور والعبور بسلام وأمان فهذا لا بدَّ منه كما دلَّت عليه آية « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم ننجي الذين اتقوا » .. الآية . فتوهمتْ السيدة حفصة رضي الله عنها أن أصحاب الشجرة لا يردون النار أصلاً فاستشكلت فأجابها صلى الله عليه وسلم بأنهم يردونها ولكن الله تعالى ينجيهم بتقواهم ويسلمهم من حَرِّ جهنم فلا يمسُّهم منها سوء ولا مكروه .

قال خالد بن معدان : يقول أهل الجنة يوم القيامة : ألم يَعدْنا ربنا أن نرد النار ؟ فيقال لهم : بلى ولكنكم مررتم بها وهي خامدة . اهـ.

وجاء في الحديث الذي رواه الطبراني وابن عدي عن يعلى بن مُنْيَة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تقول النار للمؤمنين يوم القيامة : جُزْ يا مؤمن ـ أي امش وجاوِزْني بسلام ـ فقد أطفأ نورك لهبي » .

والمعنى أن نور إيمانك أطفأ لهبي وحرّي وذلك لأن نور الإيمان يطفىء النيران على نسبة قوته وضعفه وإن دمعة عين المؤمن من خشية الله تطفىء بحوراً من نيران جهنم •

روى البيهقي والامام أحمد في الزهد عن ابن مسعود مرفوعاً : « ما من شيء إلا له مقدار وميزان إلا الدمعة فإنه يطفأ بها بحار من النار »(١) •

قال الحافظ في الفتح : ولا تنافي بينهما (أي بين القولين) في معنى ورود النار ، لأن من عبَّر بالدخول تجوّز به عن المرور لان المار على النار فوق الصراط في معنى مَن دخلها لكن تختلف أحوالهم باختلاف أعمالهم ••• إلخ •

ثالثاً : قوله تعالى : « ثم ننجي الذين اتقوا » •• الآية في هذا بيان لمنزلة تقوى الله تعالى وآثارها في وقاية المتقي من حرّ جهنم وعذابها وسوء منظرها وشدة لفَحاتها وذلك لأن التقوى يكون بها التوقي من المكاره • فمن اتقى الله تعالى فقد توقّى عذاب الله تعالى وعقابه وغضبه وسوء الحساب •

والتقوى هي على مراتب ووقاياتها على مراتب أيضاً •

والتوقي من عذاب الله تعالى وعقابه وغضبه وحجابه إنما يكون بامتثال أوامره سبحانه وباجتناب ما نهى عنه ولذلك فسَّر العلماء التقوى بذلك • ومن هنا يفهم العاقل أن الاعمال والاقوال التي شرعها الله تعالى لعباده لها آثارها في نفوس العباد وقلوبهم وعقولهم وأجسادهم فمن امتثل أوامر الله تعالى واجتنب ما نهى عنه سبحانه فقد انصبغ بصبغة

---

(١) هذا لفظ البيهقي ولفظ أحمد في الزهد نحوه بزيادة كما في شرح المواهب للزرقاني ٨ : ٣٨٩ •

الله تعالى النورانية ووقاه الله تعالى بالوقايات حتى إنه ليمرّ على نار جهنم ولا تمسه بسوء بل تكونَ عليه برداً وسلاماً وذلك لأن لباس التقوى فيه الوقاية والمنعة . قال تعالى : « ولباس التقوى ذلك خير » .. الآية فكما أن ألبسة الدنيا من الصوف والقطن تقي الحرّ والقرّ فإن لباس التقوى يقي ما هو أعظم وأشدّ وأخطر وهو حرّ جهنم وقرّها .

ومن ترك أوامر الله تعالى وركب ما نهى الله تعالى عنه وهو مصرّ على ذلك معرض عن جميع ما هنالك فقد ظلم نفسه حيث لم يتعاط لها أسباب الوقايات فإن النار تؤلمه وتتصل بذرّات جسمه بل تطّلع على فؤاده قال تعالى : « ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً » أي لأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم فلم يقوها من النار بل أعرضوا عن التقوى ففقدوا الوقاية من جهنم .

قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً .. » الآية . ووقاية الإنسان نفسه وأهله من النار إنما هي بأن يتقي الله تعالى ويأمر أهله ــ زوجه وأولاده ومن يلوذ به ممن له عليهم ولاية ــ يأمرهم بالتقوى ، وهي امتثال أوامر الله تعالى وأهمها الصلاة والزكاة والصيام الى ما هنالك من الفروض والواجبات كما أنه ينهاهم عما نهى الله تعالى عنه من المحرّمات فهاهنا شيئان وقاية النفس ووقاية الأهل ، وذلك بالائتمار ، وبالأمر : أي بامتثال أمر الله تعالى وتطبيقه على النفس وبأمر الاهل بذلك . فمن قصّر في واحدة من هاتين فقد عرّض نفسه لنار جهنم .

رابعاً : في حكمة ورود المؤمنين ومرورهم على جهنم :

قال العلامة المفسر المعروف بالخازن : فإن قلتَ : إذا لم يكن على المؤمنين عذاب ــ أي فيورودهم جهنم ــ فما فائدة دخولهم النار ؟

قلت : فيه وجوه : أحدها أن ذلك مما يزيدهم سروراً إذا علموا الخلاص منها أي وأيقنوا بالنجاة من عذابها بعد أن عاينوها وبذلك يفرحون ويطمئنون .

ثانيها ـ أن فيه ـ أي في ورود المؤمنين جهنم ـ مزيد غمٍّ على أهل النار حيث يرون المؤمنين يتخلصون منها ـ بسلام ـ وهم باقون فيها .

ثالثها ـ أنهم إذا شاهدوا ذلك العذاب الذي يكون على الكفار صار ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة . اهـ .

يعني لأنه بضدها تتميَّز الاشياء وذلك مما يزيدهم فرحاً بنعيم الجنة وسروراً وشكراً لله تعالى الذي تفضَّل عليهم بالإيمان والاعمال الصالحة وتفضل عليهم بقبولها منهم وتفضل عليهم بأن نجَّاهم من عذاب جهنم وتفضل عليهم بأن أدخلهم جنات النعيم ولم يجعلهم في دار الجحيم ولذلك راحوا يحمدون الله تعالى ويثنون عليه فقالوا كما أخبر الله تعالى عنهم : « وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق » الآية .

خامساً ـ قوله سبحانه في الآية « كان على ربك حتماً مقضياً » في هذا يبيِّن سبحانه لعباده أن هذا المرور العامّ هو مقتضى حكمة ربوبيَّته سبحانه وأنه قضى ذلك وحتَّمه على نفسه فلا محيص للانسان عنه ولا مخلص له منه .

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لايموت لأحدٍ من المؤمنين ثلاثة من الولد فيَلِجَ النار إلا تحلَّة القسم » .

قال بعض السلف الصالح : أراد صلى الله عليه وسلم بالقسم قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً » ٠

وفي هذا دليل لأهل السنة على أن الله تعالى قد يحتّم هو على نفسه أموراً كما أنه سبحانه قد يحقّ على نفسه كما أنه سبحانه قد يكتب على نفسه ويوجب على نفسه كما أنه سبحانه هو قد يحرّم على نفسه كل ذلك عائد الى حكمته وفضله وجوده وكرمه ٠

وليس للعباد عليه حقّ ولا واجب ولا ملزِم له منهم ولا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضائه ، وإنما هو سبحانه هو يحقّ على نفسه ويكتب على نفسه ويحتّم على نفسه ويوجب على نفسه ويحرم على نفسه سبحانه كلّ ذلك من باب التفضل على عباده والتكرم ، والتعطف والترحم كما هو مقتضى حكمة ربوبيته ورحمانيته سبحانه ٠

قال سبحانه : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » ٠ وقال تعالى : « ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا ، كذلك ، حقاً علينا ننج المؤمنين » ٠

وقال تعالى : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » الآية ٠

وقال تعالى : « كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه » ٠

وقال تعالى : « ولينصرنّ الله مَن ينصره إن الله لقويّ عزيز » ٠

وجاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله عزّ وجل وجبتْ محبتي للمتحابين فيّ وللمتزاورين فيّ وللمتباذلين فيّ » ٠

كما أنه سبحانه هو يحرم على نفسه فقد روى مسلم عن أبي ذر

رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عزّ وجل أنه قال : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا » الحديث الطويل •

ومن جملة ما أوجب على نفسه أن يبيِّن لعباده السبيل القصد والصراط المستقيم الموصل الى كلّ خير والمبعد عن كل شرّ •

قال الله تعالى : « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين » •

وقال تعالى : « إن علينا لَلْهدى » •

قال الزجاج : معناه : وعلى الله تبيين الطريق الواضح المستقيم والدعاء إليه بالحُجج • ا هـ •

فلقد أوجب سبحانه على نفسه أن يبيِّن قصد السبيل أي السبيل القصد ، والقصد هو الوسط لا إفراط فيه ولا تفريط فإن خير الأمور أوساطها كما جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم •

وإنما كان الوسط خير الامور لأنه يجمع كمال طرفيه ويترك لهما نقصهما وذلك كالشجاعة فإنها وسط بين التهوّر والجُبن •

فالتهوّر هو الإقدام في الخير والشر أي الإقدام في موضع الإقدام وفي موضع الإحجام •

والجبن هو الإحجام في موضع الإحجام وموضع الإقدام •

فأما الشجاعة فهي الإقدام في موضع الإقدام والإحجام في موضع الاحجام فأخذتْ كمال طرفيها وتركتْ نقصهما فالخير في وسطيتها •

وكالكرم فإنه وسط بين الإسراف وبين البخل فان البخل إمساك المال عن مستحقّه وغير مستحقه ، والإسراف هو بذل المال في حقّ

وغير حق • وأما الكرم فهو بذل المال في موضعه وإمساكه عن غير أهله ، وإمساكه عن بذله في غير موضعه •

فبذل المال في طرق الغيّ والضلال دَمار ووبال ، وبذل المال في مساعدة الفقراء والمساكين وذوي الحاجة والعيال ذلك موضعه وباذله هو الكريم عند الله تعالى وعند الناس •

فالطريق الذي دعا إليه الله تعالى عباده وبيّنه لهم في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم هو السبيل القصد الجامع لكل خير وصلاح وعدل والمانع من كل شرّ ونقص وفساد وجَوْر •

قال الله تعالى لحبيبه صلى الله عليه وآله وسلم : « وإنك لتهدي الى صراط مستقيم صراط الله الذي له مافي السموات ومافي الارض ألا الى الله تصير الأمور » •

فمن أراد سلوك الصراط المستقيم فعليه باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بأن يجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمامه ، وينصب نفسه مقتدياً به ، وليلاحِظْه صلى الله عليه وسلم أمامه في سائر أعماله وأقواله وأحواله فهو الأسوة الحسنة الجامعة لكل حسنة •

قال تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » ولذلك لم يبق عذر لمعتذر بعد ما بيّن الله تعالى لعباده على لسان رسله صلوات الله تعالى عليهم وأوضح لهم الطريق الحق وهداهم السبيل السويّ الحقيق •

قال تعالى : « إنا هديناه السبيل » أي بيّنا له طريق الخير وسبيل السعادة فهو بعد ذلك « إمّا شاكراً وإما كفوراً » • وهذا كقوله تعالى : « وأمّا ثمود فهديناهم » أي بينا لهم الهدى وكل ما فيه الخير لهم « فاستحبوا العمى على الهدى » ••• الآية • ومن هذا قوله تعالى :

« فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » • أي لما مالوا وأعرضوا عن الهدى الذي جاءهم به رسولهم من عند الله تعالى الثابت بالبرهان والعيان — أزاغ الله قلوبهم • أي أمالـها عن الحق فهي معوجة لا تستقيم •

وقال تعالى في الكفار: « ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أولَ مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون » فهو سبحانه ليس بظلام للعبيد ، وما الله يريد ظلماً للعباد ، وقال : « ولا يظلم ربك أحداً » ، وقال تعالى : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقّ وما الله يريد ظلماً للعالمين » •

فالله تعالى يخبر عباده عما هو الحق ويعرّفهم بآياته الأمر الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال !

وقد أخبر عباده أنه لا يظلم ولا يريد أن يظلم ولذلك يجب عليهم أن يعتقدوا أن جميع ما قضاه ، وسائر ما يجريه وما أجراه كلّ ذلك بالحق والعدل ، لا ظلم في ذلك ولا حَيْف • كما يجب على العباد أن يعتقدوا أن جميع ما شرعه الله تعالى من الأوامر والمناهي ومن الحلال والحرام كلّ ذلك حق وعدل فيه سعادة الدنيا والآخرة لم يظلم عباده فيما شرعه لهم وأمرهم به أو نهاهم ولم يظلمهم فيما حرّم عليهم أو أحل لهم ولا يريد أن يظلمهم في ذلك ولا في غير ذلك •

فأحكامه القضائية القــدرية كلّها حق لا ظلــم ولا حَيْف ، وأحكامه التشريعية كلّها حق لا ظلــم فيها ولا حيف • قال تعالى في المنافقين : « وإذا دُعُوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين • أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون» •

فجميع الأحكام الشرعية إنما جاءت لإسعاد البشرية وإصلاحها

ونجاحها وفلاحها ، قال تعالى : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتمّ نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

والمعنى أن الله تعالى ما يريد ليجعل على عباده من حرج فيما شرعه في الدين كما قال تعالى : « هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج » ... الآية .

أي ولكنه يريد أن يطهّر عباده من كل دنسٍ بهيمي ، وفساد حيواني ، ونقص نفساني فنهاهم عما نهاهم عنه ليكون ذلك تخليةً لهم من العيوب والنقائص ، ويريد فيما شرعه من الأوامر أن يتمّ نعمته عليهم وفي هذا تحليتهم وكمالهم وذلك بما أمرهم به من الأوامر التي فيها الإصلاح والكمال والارتقاء بالنفس الى حظيرة القدس حتى تكون فيها الاهلية لأن تحلّ في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر .

فالشرائع السماوية نُظُم إلهيـة ناط الله تعالى بها سعادة العباد وصلاح البلاد وفلاح الآباء والاولاد وإن الذي خلق العالَم هو أعلم بما فيه صلاح العالَم جلّ وعلا .

* * *

صفة الصراط

روى الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : بلغني أن الجسر ـ أي الصراط ـ أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف .

وروى الامام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلتُ يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة أمّا عند ثلاث فلا ، أمّا عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا ، وأمّا عند تطاير الكتب فإمّا أن يُعطى بيمينه أو يُعطى بشماله وحين يخرج عنق النار فينطوي عليهم ، ويقول ذلك العنق وُكّلت بثلاثة :

وكّلتُ ـ بمن ادّعى مع الله إلهاً آخر ، ووكّلتُ بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكّلتُ بكل جبّارٍ عنيد . قال : فينطوي عليهم ـ أي على الثلاثة ـ ويرمى بهم في غمرات النار .

قال: ولجهنم جسر أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف عليه كلاليب وحَسَك يأخذون مَنْ شاء الله تعالى والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب . والملائكة يقولون : ربِّ سَلِّم سَلِّم . فناجٍ مُسلَّم، ومخدوش مسلَّم ومكوَّر في النار على وجهه» .

وروى الطبراني والبيهقي بسند صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : يُوضع الصراط على سواء جهنم مثل حدّ السيف المرهف مدحضة ، مزلّة ، عليه كلاليب من نار يخطف بها فممسك يهوي فيها ، ومصروع ، ومنهم من يمرّ كالبرق فلا ينشب ذلك أن ينجو ثم كالريح

فلا ينشب ذلك أن ينجو ، ثم كجري الفرس ، ثم كَرَمَل الرجل ، ثم كمشي الرجل ... إلخ كما سيأتي[1] .

وروى البيهقي وابن أبي الدنيا وابن المبارك من مرسل عبيد بن عمير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الصراط على جهنم مثل حرف السيف وبجنبتيه كلاليب وحسك يركبه الناس فيختطفون والذي نفسي بيده إنه ليؤخَذ بالكلّوب الواحد أكثر من ربيعة ومُضر . والملائكة على جنبتيه يقولون ربِّ سَلِّم سَلِّم » .

وأخرج ابن عساكر عن الفضيل بن عياض قال : بلغنا أن الصراط مسيرة خمسة عشر ألف سنة : خمسة آلاف صعود وخمسة آلاف هبوط وخمسة آلاف مستوى . أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف . على متن جهنم لا يجوز عليه (أي لا يسلكه ولا يجتازه) إلا ضامر مهزول من خشية الله تعالى .

* * *

(١) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني بإسناد حسن وعزاه الزرقاني الى الطبراني والبيهقي بإسناد صحيح كما في شرح المواهب ٨ : ٣٩٢ .

أحوال العباد في جوازهم الصراط

تختلف أحوال العباد حين يمرّون على الصراط فمنهم السالم الذي ينجو ومنهم الهالك ومنهم الذي يُخدش ثم ينجو ٠

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث طويل قال فيه صلى الله عليه وسلم : « ثم يُضرب الصراط بين ظهراني جهنم(١) ٠ وفي رواية ويضرب جسر جهنم (أي الصراط) فأكون أول من يجوز(٢) من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل(٣) وكلام الرسل يومئذٍ اللّهم سَلّم سلّم(٤) ، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم ٠ قال : فإنها مثلها غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تخطف الناس بأعمالهم ٠

وفي رواية لمسلم : ثم يُضرَب الجسر على جهنم وتحلّ الشفاعة ويقولون : اللهم سلّم سلّم قيل : يا رسول الله وما الجسر ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : دحض مزلّة ، فيه خطاطيف(٥) ،

---

(١) والمعنى أن الصراط يُنصَبُ ويمدّ بين ظهراني جهنم أي بين أجزاء ظهرها كأنها محيطة به ، ا هـ زرقاني ٠

(٢) أي يقطعه ويمضي عليه ، يقال : جاز الوادي وأجازه بمعنى قطعه ، وقال الأصمعي جازه : مشى فيه وأجازه قطعه ٠ حكاه النووي وغيره ٠

(٣) أي لا يتكلم حين الاجازة على الصراط إلا الرسل وذلك لشدة الهول وعظم الفزع ٠ أما في غيره من المواطن فهم يسأل بعضهم بعضاً ، ويلوم بعضهم بعضاً ، ويجادل بعضهم بعضاً ٠

(٤) وهذا الدعاء من الرسل هو لأمتهم شفقة عليهم ورحمة بهم ٠

(٥) جمع خطاف ، وهي حديدة يختطف بها ٠

وكلاليب(١) ، وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان(٢) .

فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل والركاب .

فناج مسلَّم ، ومخدوش(٣) مرسل ، ومكدوس(٤) في نار جهنم .

حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله تعالى في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار .

يقولون : ربنا كانوا يصومون ، ويصلون ، ويحجون . فيقال لهم : أخرجوا مَنْ عرفتم فتحرَّم صُورهم على النار ، فيُخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار الى نصف ساقيه والى ركبتيه .. الحديث .

قال الإمام النووي رضي الله عنه عند قوله صلى الله عليه وسلم : فناج مُسلَّم ... الحديث قال : معناه أنهم في ثلاثة أقسام :

١ ــ قسم يسلَّم فلا يناله شيء أصلاً .

٢ ــ وقسم يُخدش ثم يُرسل فيخلص .

٣ ــ وقسم يكردس ويلقى فيسقط في جهنم . ا هـ .

فالمؤمنون الصادقون يمرون على الصراط وهم في أمان وسلام يضيء لهم نور إيمانهم وأعمالهم الصالحة ويسعى بين أيديهم وبأيمانهم .

---

(١) جمع كلّوب : حديدة معطوفة الرأس يعلق فيها ويقال لها الكلاب .
(٢) قال الزرقاني: السعدان بفتح السين والدال بينهما عين ساكنة مهملات . جمع سعدانة نبات ذو شوك والتشبيه به لسرعة اختطافها وكثرة الانتشاب فيها . ا هـ .
(٣) أي مخموش ممزّق .
(٤) أي يلقى بعضهم فوق بعض في جهنم .

قال تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » .

فكلّ مؤمن يمشي على نور إيمانه الشامل للاعتقاد والعمل والقول، وقوة نورهم هي على حسب قوة إيمانهم فمنهم قويّ النور، ومنهم الأقوى ومنهم الأقوى .

روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى : « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » قال : على قدر أعمالهم يمرّون على الصراط : منهم مَنْ نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً مَن نوره في إبهامه يتّقد مرة ويطفأ مرة

وقال قتادة : ذكر لنا أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « من المؤمنين مَنْ يضيء نوره من المدينة الى عَدَن أبين ، وصنعاء ، فدون ذلك حتى إن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه »(١) .

وروى الحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الصراط كحدّ السيف دحض مزلّة قال فيمرّون على قدر نورهم ، فمنهم مَنْ يمرّ كانقضاض الكوكب ، ومنهم من يمرّ كالطرف ، ومنهم من يمرّ كالريح ، ومنهم من يمرّ كشدّ الرجل ويرمُل رملاً فيمرّون على قدر أعمالهم حتى يمرّ الذي نوره على إبهام قدميه تخرّ يدٌ وتعلق يد ، وتخرّ رِجل وتعلق رِجل فتصيب جوانبه النار »(٢) .

---

(١) انظر هذه الآثار في تفسير ابن كثير وغيره .
(٢) قال الحافظ المنذري : رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والحاكم واللفظ له . اهـ .

وعن عمرو بن عبسة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ شاب شيبة في الاسلام كانت له نوراً يوم القيامة»[1]. فشيبة الاسلام تضيء الصراط لصاحبها . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لا تنتفوا الشيب .. » الحديث . رواه الترمذي وحسنه . وعند الطبراني في الأوسط : « مَنْ شابَ شيبة في الاسلام كانت له نوراً يوم القيامة » فقال له رجل: إن رجالاً ينتفون الشيب ! قال : « من شاء نتف نوره » وعند الحاكم في الكنى بإسناد حسن : « من شاب شيبة في الاسلام كانت له نوراً مالم يغيِّرها » .

قال العلامة المناوي : أي مالم يغيِّر شيبته بالسواد . وقال في شرح قوله صلى الله عليه وسلم : « كانت له نوراً يوم القيامة » : أي يصير الشيب نفسه نوراً يهتدي به صاحبه ويسعى بين يديه في ظلمات الحشر الى أن يدخله الجنة ثم قال : فكره نتف الشيب من نحو لحية وشاربٍ وعنفقةٍ وحاجب وعذار للفاعل والمفعول به . قال النووي : ولو قيل يحرم لم يبعد . اهـ .

وأما الكفار المتظاهرون بالكفر فإنهم أمر بهم الى جهنم من بدء الأمر .

وأما المنافقون فهم كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله :

« يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضُرِب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربَّصتم وارتبتم وغرَّتكم الأمانيُّ

---

(1) قال الحافظ المنذري : رواه النسائي في حديث والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . اهـ .

حتى جاء أمر الله وغرّكم بالله الغرور • فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير » •

فالمنافقون لما كانوا في الدنيا يخادعون وذلك بإظهارهم الاسلام وإبطانهم الكفر ـ فان الله تعالى هو خادعهم في الدنيا بأن عصم دماءهم وأموالهم استدراجاً لهم في الضلال والطغيان وهو خادعهم في الآخرة وذلك بأن يتمثل لهم إسلامهم الذي تظاهروا به في الدنيا ـ يتمثل لهم بشيء من النور يمشون به خطوات قليلة على الصراط حتى يظن أحدهم أنه قد أمن ونجا فبيناهم كذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات كفرهم ونفاقهم لا يبصرون وإذا بهم يستغيثون بالمؤمنين أمامهم يقولون لهم :

« انظرونا نقتبس من نوركم » أي انتظرونا نستضيء بنوركم ولا تسرعوا الى الجنة أو المعنى انظروا الينا •

قال العلامة البيضاوي رحمه الله تعالى : فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنورٍ من بين أيديهم • اهـ •

وحينئذ أجابهم المؤمنون بما أخبر الله تعالى عنهم •

« قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً » •

والمعنى كما في تفسير البيضاوي رحمه الله تعالى : ارجعوا الى الدنيا فالتمسوا نوراً وذلك بتحصيل المعارف الإلهية والاخلاق الفاضلة فإن النور يتولد منها • أو المعنى ارجعوا الى الموقف فانه من ثمّ يقتبس أي ارجعوا الى الموقف الذي تعطى فيه الانوار لأصحابها. اهـ.

أو المعنى ارجعوا الى حيث شئتم فاطلبوا نوراً آخر فإنه لا سبيل لكم الى الاقتباس من نورنا فانه لا يوجد عندكم استعداد الى الاستمداد من أنوارنا كما أن الأعمى لا استعداد عنده لأن يستمد من بصر البصير

ويستضيء من البصر ، قال تعالى : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » .

وقال تعالى في الكفار الظاهرين والمنافقين : « صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون » فهم صمّ القلوب وبُكمها وعُميها وقال تعالى : « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » .

ولما كان مرور المارّين على الصراط هو على حسب نور إيمانهم وأعمالهم ، وسلامتهم من الخدش والكلاليب هي على حسب صلاح أعمالهم وامتثال أوامر الله تعالى واجتناب ما نهى عنه لأن ذنوب الانسان وخطاياه هي التي تحرك عليه كلاليب جهنم لتخدشه وتصرعه .

لذلك أمر الله تعالى المؤمنين أن يتوبوا إليه من ذنوبهم ومخالفاتهم قبل أن يأتي عليهم ذلك اليوم ــ ليمرّوا على الصراط آمنين سالمين .

فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبةً نصوحاً عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيئآتكم ويدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبيَّ والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير » .

فالله تعالى نادى عباده المؤمنين من هذه الأمة المحمدية على رسولها الصلاة والسلام ــ ناداهم بصيغة التأبيه لما في ذلك من قوة التنبيه الى الأمر الذي يأتي وراء النداء وهو قوله تعالى : « توبوا الى الله توبة نصوحاً » أي ليتبْ كلٌ مؤمن منكم من ذنوبه التي صدرت منه وذلك بأن يقلع عن ذنوبه ويندم من قلبه على فعلها أيضاً ، ويعزم على أن لا يعود إليها ، وإن كان ذلك الذنب مما يتعلّق بحقوق المخلوقات فليوفّهم حقهم ، أو يسمحوا عنه وبذلك تكون توبة نصوحاً .

فنصح التوبة إما سلامتها من الغشّ وذلك بأن تكون عن ندم القلب وحسرة النفس مما جَنَتْ وارتكبت كما هو الشأن في العسل الناصح وهو السالم من الغش والعكر .

وإما أن يكون نُصْح التوبة هو استيفاءها لعامّة الذنوب بأن يتوب المؤمن من ذنوبه كلها لا انه يتوب من ذنب ويبقى مصراً على آخر. فتكون التوبة النصوح في كمالها واستيفائها كالثوب الناصح وهو الذي لا خرق فيه ، ولا فتق بل هو سالم سابغ ، ويقال للخياط ناصح وللإبرة مِنْصحة .

فمعنى الآية على الوجه الأول : « توبوا الى الله توبةً نصوحاً » أي توبة صادقة من قلوبكم نادمين على ما فعلتم ولا تكن توبتكم توبة المنافقين المخادعين الذين يتوبون بلسانهم ولم تندم قلوبهم على ما فعلوا ولم يأسفوا على إجرامهم .

قال الله تعالى : « لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبةً في قلوبهم إلا أن تقطّع قلوبهم » أي تتقطع قلوبهم بالندم والتحسّر على ذنبهم .

وفي مسند أحمد وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الندم توبة » .

وروى ابن أبي حاتم عن زرّ بن حُبيش(1) قال : سألت أبيّ ابن كعب عن التوبة النصوح فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : « هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر ثم لا تعود إليه أبداً » .

وعلى الوجه الثاني : فمعنى الآية « توبوا الى الله توبة نصوحاً » أي توبة من جميع ذنوبكم تكون سابغة وافية واقية لكم من العقاب.

---

(1) انظر تفسير ابن كثير .

والعذاب ولا تكونوا كالذين يتوبون من بعض الذنوب وهم مصرّون على غيرها فإن ذلك لا يدفع عنكم خطر العقاب والعذاب .

ثم بين لهم سبحانه أنهم إذا تابوا توبة نصوحاً فإن الله تعالى يفتح لهم باب رجاء محقق لا يخيبون فيه وذلك بأن يكفّر عنهم سيئاتهم ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار .

قال تعالى : « عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيئآتكم ويدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الانهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه » .

فهو سبحانه يعطيهم ما يرجون من تكفير السيئات ودخول الجنات في ذلك اليوم العظيم الذي أخزى الله تعالى فيه الكفار والمنافقين والظالمين والفاسقين. وماأعظمه من خزيٍ وماأشده من خذلان وهوان.

أما هذا النبي الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو في أعلى درجة الإكرام ، وعزّة المقام وعلوّ الشأن والمكان . والذين آمنوا به واتبعوه هم معه في عزّة وكرامة وعطاء وفضل ، قال تعالى : « يوم لا يخزي الله النبيّ والذين آمنوا معه » .

فالله تعالى يكرم النبي صلى الله عليه وسلم دائماً على مدّ العوالم بأنواع العزّة والكرامة ويرفعه درجات في الفضيلة وعلوّ المقامة .

فلقد أعطاه الله تعالى الكوثر الذي فيه الخير العام الطامّ كما تقدم وأعطاه الشفاعة العامة وأعطاه السيادة العامة وأعطاه لواء الحمد الجامع لأنواع المحامد الذي اجتمع تحته جميع الأنبياء والرسل صلوات الله تعالى عليه وعليهم فقال : « آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر » .

ثم بيّن سبحانه أثر نور إيمانهم المحيط بهم فقال سبحانه : « نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » فلقد اكتنفهم نور إيمانهم من

جميع جهاتهم فهم يمرّون على الصراط ونورهم محيط بهم وهم يدعون ربهم : « يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ».

دعوا الله تعالى أن يتمم لهم النور فلا يطفأ ولا يذهب به أبداً حتى يدخلوا الجنة وهم سالمون آمنون .

نقل الحافظ ابن كثير في تفسيره عن الضحاك أنه قال : ليس أحد ـ من المسلمين ـ إلا يعطى نوراً يوم القيامة فإذا انتهوا الى الصراط طفىء نور المنافقين فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفىء نور المنافقين فقالوا : « ربّنا أتمم لنا نورنا » .

ومن أجل ذلك جاءت البشارة النبوية للمشائين في ظلمات الليل الى الصلاة في المساجد ـ بالنور التام يوم القيامة ـ ويدخل تحت هذا صلاة العشاء والفجر في المساجد لأنهما ثقيلتان على المنافقين .

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بشّر المشائين في الظُلَم الى المساجد بالنور التامّ يوم القيامة »(١) .

ودعوا الله تعالى أن يغفر لهم ذنوبهم حتى لا تخدشهم كلاليب جهنم وهم يمرّون على الصراط فإنها تخدش المذنب على حسب كبر ذنبه وصغره .

★ ★ ★

(١) قال المنذري : رواه ابن ماجه وابن خزيمه في صحيحه والحاكم واللفظ له ، وقال : صحيح على شرط الشيخين . اهـ .

هيبة المرور على الصراط وخطورة مزلّة الأقدام

إن لورود العباد جهنم ومرورهم على الصراط المضروب بين ظهرانيها ــ فزعاً في قلوب الواردين وخوفاً من زلّة الأقدام والتردّي في نار جهنم وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم الى خطورة ذلك الورود حيث قال : « ثم يُضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل ، وكلام الرسل يومئذٍ اللهم سلّم سلّم » .

فما أعظم ذلك المرور وما أخطره حتى إن جميع المارّين لزموا الصمت فلا كلام إلا من الرسل وكلام الرسل يومئذ اللهم سلّم سلّم فراحوا يدعون الله تعالى لأتباعهم أن يجعلهم الله تعالى في سلامٍ وأمانٍ بحيث يجتازون الصراط سالمين آمنين من المخاوف والمكاره .

فما أرحم الرسل بأتباعهم وما أشدّ رأفتهم وعطفهم على الذين آمنوا بهم ! وتمسّكوا حق التمسك بشريعتهم لقد أهمّهم أمر أتباعهم فراحوا يدعون الله تعالى ويلحّون في الدعاء أن يسلّم أتباعهم من مفزعات الصراط ومخاوفه .

وأعظمهم رحمةً وأشدّهم رأفة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى فيه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وقال تعالى فيه : « حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين .

روى الامام مسلم عن حذيفة وأبي هريرة رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله الناس ... » فذكر الحديث الى أن قال : « فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقوم ويؤذن له وترسل معه الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً فيمر أولكم كالبرق قال : قلت : بأبي أنت وأمي أي شيء كمر البرق ؟

قال: ألم تر الى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟. ثم كمر الريح، ثم كمر الطير وشد الرجال تجري بهم أعمالهم. ونبيكم صلى الله عليه وسلم قائم على الصراط يقول : رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زاحفاً . قال : وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة تأخذ مَن أمرت به فمخدوش ناجٍ ، ومكدوس في النار ... » الحديث .

فالله تعالى ينجي المتقين قال تعالى :

« ثم نُنجّي الذين اتقوا » ... الآية . ويجعلهم في سلم وأمان .

قال تعالى :

وينجّي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » اللهم اجعلنا منهم ولما كان المرور على الصراط خطيراً بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم أن الذين تزل أقدامهم حين يمرون على الصراط هم كثيرون .

روى البيهقي عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن على جهنم جسراً أدق من الشعر وأحد من السيف أعلاه نحو الجنة ــ دحض مزلّة ، بجنبيه كلاليب وحَسَك النار يحشر الله به من يشاء من عباده ، الزالّون والزالات يومئذ كثير » الحديث .

وقد حضّ النبي صلى الله عليه وسلم على تعاطي الأعمال التي يثبت الله تعالى بها قدم صاحبها على الصراط فمن ذلك ملازمة المساجد : كما جاء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « المسجد بيت كل تقيّ ، وتكفّل الله لمن كان المسجد بيته بالرَّوْح والريحان والرحمة والجواز على الصراط الى رضوان الله الى الجنة » .

قال الحافظ المنذري رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار وقال اسناده حسن وهو كما قال رحمه الله تعالى . ا هـ . وعزاه الزرقاني أيضاً الى سعيد بن منصور .

ومن ذلك إحسان الصدقة وذلك بأن تكون من مال حلال وأن تقع موقعها فقد روى أبو نعيم والأصبهاني مرفوعاً : « مَن أحسن الصدقة جاز على الصراط مُدِلاً » . قال في النهاية : أي منبسطاً لا خوف عليه وهو من الإدلال . ا هـ .

ومن ذلك إقالة المسلم بيعته وعثرته .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أقال مسلماً بيعته أقاله الله عثرته يوم القيامة » . قال المنذري : رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه واللفظ له والحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما .

قال : وفي رواية لابن حبان : « مَن أقال مسلماً عثرته أقاله الله عثرته يوم القيامة » .

قال : وفي رواية لأبي داود في المراسيل : « مَنْ أقال نادماً أقاله الله نفسه يوم القيامة » .

ومن ذلك تيسير الإنسان ما عسر على غيره .

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن كان وصلةً لأخيه المسلم الى ذي سلطان في مبلغ برٍّ أو تيسير عسيرٍ أعانه الله تعالى على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام » . أي عندما تزل الأقدام عند مرور الصراط .

قال في الترغيب : رواه الطبراني في الصغير والأوسط وابن حبان في صحيحه .

ومن ذلك إعانة العباد في حاجاتهم والمشي في قضاء مهمَّاتهم .

عن أنس رضي الله عنه أن رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : أيُّ الناس أحبّ الى الله ؟ فقال : « أحب الناس الى الله أنفعهم للناس ، وأحبّ الاعمال الى الله عزّ وجلّ سرور تدخله على مسلم : تكشف عنه كربةً أو تقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً ولأن أمشي مع أخي في حاجةٍ أحبّ إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً ، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يُمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يقضيها له يثبت الله قدميه يوم تزول الأقدام » .

رواه الأصبهاني وابن أبي الدنيا . وعند ابن حبان : « من أعان عبداً في حاجته ثبَّت الله له مقامه يوم تزول الأقدام » .

ومن ذلك حماية المؤمن من منافق : فعن سهل بن معاذ بن أنس الجُهَني عن أبيه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ حمى مؤمناً من منافق بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ومن رمى مسلماً يريد به شينه حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال » . رواه أبو داود .

وخلاصة القول : إن من أراد أن يتبيَّن له أمر سيره على الصراط

غداً في الآخرة وأحبَّ أن يعرف كيف مشيه على صراط الآخرة فلينظر الى مشيته على صراط شريعة الله تعالى في الدنيا وكيفية سيره عليها هل هو يمشي سوياً مستقيماً عليها بلا ميل الى محرمات الشهوات ولا انحرافٍ نحو الشبهات والضلالات ؟ أم هو في ذلك يروغ روغان الثعالب يستقيم تارة في سيره وينحرف انحرافات ويخادع مخادعات ٠ وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم الى ذلك حيث قال كما جاء في مسند أحمد عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سُوران فيهما أبواب مفتَّحة وعلى الأبواب ستور مُرْخاة ، وعلى باب الصراط داعٍ يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا ، وداعٍ يدعو من فوق الصراط ، فإذا أراد الانسان أن يفتح شيئاً قال : ويحكَ لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه (أي تدخله) قال : فالصراط الاسلام والسُوران حدود الله تعالى والأبواب المفتَّحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم » ٠

قال الحافظ ابن كثير ورواه الترمذي والنسائي جميعاً عن النواس ابن سمعان وهو إسناد حسن صحيح والله أعلم ٠ اهـ ٠



أوّل مَن يجوز الصراط هو سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلم

إن أول من يجوز الصراط بأمتـه ويشرّفه بنظرتـه ، وينوّره للمؤمنين ليسيروا في ضيائه وعلى محجّته ـ هو سيدنا محمد إمام الانبياء والمرسلين صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين الذي جمع الله تعالى له فضائل الأوليات الجامعة لأكمل المراتب وأعلى الدرجات !

فهو صلى الله عليه وسلم أول الأنبياء في الخلق في عالم الأرواح وآخرهم في البعث في عالم الاشباح كما تقـدم دليل ذلك في الكلام حول الروح .

وهو صلى الله عليه وسلم ـ أوّلُ مَن نبّأه الله تعالى في عالـم الأرواح قبل الأنبياء كلهم كما جاء في سنن الترمذي وغيرها أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له يا رسول الله متى وجبتْ لك النبوة ، وفي رواية متى استنبئت، وفي رواية متى كنت نبياً، فقال صلى الله عليه وسلم: « كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد » . وتقدم تفصيل ذلك أيضاً في الكلام حول الروح .

وهو صلى الله عليه وسلم أوّل من تنشق عنه الأرض كما روى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأنا أول من ينشقّ عنه القبر ، وأنا أول شافع وأول مشفّع » .

وهو صلى الله عليه وسلم أول شافع وأول مشفّع :

روى الترمذي وغيره عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولافخر ، ومامن نبيٍّ يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشقّ عنه الأرض ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفّع ولا فخر »(١) .

فهو صلى الله عليه وسلم أول من يشفع عند الله تعالى ويقبل الله تعالى شفاعته ، وبه صلى الله عليه وسلم يُفتح باب الشفاعات فتشفع الرسل والأنبياء ويشفع الصديقون والشهداء والعلماء والأولياء والصلحاء كما تقدم في بحث الشفاعة .

وتشفع الأعمال الصالحة والأقوال الطيبة بصاحبها ، فالصيام يشفع بصاحبه والقرآن يشفع بصاحبه والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والتسبيح والتحميد والتكبير وتقدم في الحديث: الصيام والقرآن يشفعان في العبد يوم القيامة .. الحديث .

وحديث : اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه . الحديث . وحديث : إن ممّا تذكرون من جلال الله تعالى التسبيح والتحميد والتكبير يتعاطفن حول العرش يذكرن بصاحبهن . الحديث .

فجميع هذه الشفاعات إنما فتح بابها الفاتح الأول والشفيع الأفضل صاحب مقام الوسيلة وأعلى درجات الفضيلة الحبيب الأكرم والسيد الأفخم ، رحمة الله تعالى المهداة للعالمين ليرحمهم الله تعالى به في جميع العوالم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وهذه منقبة كبرى، ومنزلة عظمى خصّ بها نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهي أن جميع الخلائق يحتاجون الى شفاعته بهم عند الله تعالى وهو غير

---

(١) قال الحافظ الزرقاني : رواه الترمذي وقال : حسن صحيح وكذا رواه ابن ماجه وأحمد . اهـ .

محتاج الى مَنْ يشفع به فهو صلى الله عليه وسلم الشفيع لغيره ولا شفيع له ٠

وهو صلى الله عليه وسلم أول من يؤذن له حين يستأذن على ربه وهو أول من يسجد لربه ٠

روى الامام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنا أول مَنْ يؤذن له يوم القيامة بالسجود وأول من يرفع رأسه فأنظر بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم ومن خلفي مثل ذلك وعن يميني مثل ذلك وعن شمالي مثل ذلك ـ فقال رجل : يا رسول الله : كيف تعرف أمتك من بين الأمم فقال صلى الله عليه وسلم: هم غرٌّ مُحَجَّلون من أثر الوضوء ليس أحد كذلك غيرهم وأعرفهم أنهم يؤتَوْن كتبهم بأيمانهم وأعرفهم تسعى ذريتهم بين أيديهم »(١) الحديث ٠

وتقدم في حديث الشفاعة أنه صلى الله عليه وسلم يذهب ليسجد لله تعالى تحت العرش فيدعه ما شاء الله ويفتح الله تعالى عليه من محامده وحسن الثناء عليه مالم يفتحه على أحد قبله ٠

وهو صلى الله عليه وسلم أول من يُفتح له باب الجنة وهو أول من يدخلها والكلُّ يدخلونها من ورائه صلى الله عليه وسلم ٠

روى مسلم والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آتي باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن : مَنْ ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بكَ أمِرتُ أن لا أفتح لأحد قبلك » ٠

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه أحمد وفي إسناده ابن لهيعة وهو حديث حسن في المتابعات ٠ اهـ ٠ وقال في مجمع الزوائد : رواه أحمد والبزار باختصار إلا أنه قال: وذراريهم نور بين أيديهم ٠ قال: ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو ضعيف قد وثق ٠ اهـ ٠ قلت ورواه ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر المروزي كما في تفسير الحافظ ابن كثير سورة الحديد وسورة التحريم ٠

قناطر الصراط

قال الله تعالى : « إن جهنم كانتْ مرصاداً للطاغين مآباً » .

قال الامام البيضاوي رحمه الله تعالى في قوله تعالى : « إن جهنم كانت مرصادا » قال : موضع يرصد فيه خزنة النار الكفار ، أو خزنة الجنة المؤمنين ليحرسوهم من فيحها في مجازهم عليها (أي حين يجوزون الصراط على متن جهنم) كالمضمار فإنه الموضع الذي يضمر فيه الخيل . إلخ ...

وقال الحسن البصري وقتادة في قوله تعالى : « إن جهنم كانت مرصادا » يعني أنه لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار فإن كان معه جواز نجا وإلا احتبس . اهـ .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن جسر جهنم سبع محابس يسأل العبد عند أولها عن شهادة أن لا إله إلا الله أي مع شهادة محمد رسول الله كما سئل عن ذلك في القبر . فإن جاء بها تامةً جاز الى المحبس الثاني .

فيسأل فيه عن الصلوات فإن جاء بها تامةً جاز الى الثالث. فيسأل عن الزكاة فإن جاء بها تامةً جاز الى الرابع . فيسأل عن الصوم فان جاء به تاماً جاز الى الخامس .

فيسأل فيه عن الحج ــ أي وكان ممن استطاع إليه سبيلا ــ فإن جاء به تاماً جاز الى المحبس السادس . فيسأل عن العمرة فإن جاء بها تامةً جاز الى السابع .

فيسأل عن مظالم العباد فإن خرج منها انطلق به الجنة[1] • ا هـ •

وهذا من الأمور الثابتة عند أهل العلم ولذلك نقل العلامة القرطبي رحمه الله تعالى في التذكرة — عن أهل العلم أنه لن يجوز أحد الصراط حتى يُسأل عن سبع قناطر :

فأما القنطرة الاولى فيسأل فيها عن الايمان بالله تعالى وهي شهادة أن لا إله إلا الله — أي مع شهادة محمد رسول الله — فإن جاء بها مخلصاً جاز على الصراط وإلا وقع في النار •

ثم يُسأل في القنطرة الثانية عن الصلاة فان جاء بها تامة جاز وقطع المسافة الى ماوراءها وإلا وقع في النار ، ثم يُسأل في القنطرة الثالثة عن صوم شهر رمضان فإن جاء به تاماً جاز ، ثم يُسأل في القنطرة الرابعة عن الزكاة فإن جاء بها تامة جاز ، ثم يُسأل في القنطرة الخامسة عن الحج والعمرة فان جاء بهما تامين جاز ، ثم يُسأل في القنطرة السادسة عن الغسل والوضوء فإن جاء بهما تامين جاز ، ثم يُسأل في القنطرة السابعة عن ظلامات الناس ، وليس في القناطر أصعب منها فإن خلص منها انتهى الى الجنة[1] • ا هـ •

فآخر قناطر الصراط وآخر محابسه تلك القنطرة التي يسأل فيها المؤمنون عن مظالم بينهم بسبب تبعات وحقوق — على وجه التدقيق لكل حق وتبعة وإن كان ذلك جزئياً صغيراً حتى يحصل التصافي التام والتسامح العام ، فهناك يؤذن في دخول الجنة كما يدل على ذلك ما رواه البخاري وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

---

(١) انظر تفسير الخازن وغيره •

(١) وقد تناقل كثير من محققي المفسرين والمحدثين هذا الكلام عن العلامة القرطبي في التذكرة بتسليم وإقرار ، دون رد وانكار ، ومنهم شراح البخاري والحافظ الزرقاني في شرح المواهب وغيرهم •

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص من بعضهم لبعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا » يعني ان المؤمنين يعرفون منازلهم في الجنة أكثر من معرفتهم بمنازلهم في الدنيا . قال تعالى : « سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم » .

فلما خلص المؤمنون من النار وذلك بالمرور على الصراط حبسوا على تلك القنطرة لقصاص التبعات والمظالم بينهم وهذا لا يتنافى مع القصاص العام السابق الذي جرى بين الكفار بعضهم من بعض وبين الكفار والمؤمنين فإن ذلك وقع قبيل الصراط .

وذلك لأن الكفار لا يقدرون على جواز الصراط وكذلك المنافقون، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث كما تقدم : « يحشر الله الناس عراة غرلا بهماً . ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب يقول : أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقصه منه» الى تمام الحديث والله تعالى أعلم .

* * *

الأعــراف

قال الله تعالى : « وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ونادوا أصحاب الجنــة أن سلام عليكــم لم يدخلوها وهم يطمعون » .

يخبر سبحانه عن ذلك السُور وهو الحجاب الحاجز بين أهل الجنة وأهل النار وعن الذين هم على مشارفه وأعرافه فيقول سبحانه :

« وبينهما حجاب » أي بين الجنة والنار حجاب وهو السُور الذي قال تعالى فيه : « فضُرب بينهم بسورٍ له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قـبَله العذاب » .

قال ابن عباس وغيره : أعراف السُور هي شُرَفه . ا هـ . أي أعاليه المشرفة .

قال العلامة القرطبي في تفسيره : والأعراف في اللغة المكان المشرف جمع عُرْف ، قال يحيى بن آدم سألت الكسائي عن واحد الأعراف فسكت . فقلت له حدثنا اسرائيل عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال : الأعراف سُور له عرف كعرف الديك فقال : نعم والله واحده يعني وجماعته أعراف ، يا غلام هاتِ القرطاس فكتبه . ا هـ .

وقد تكلم العلماء في بيان أصحاب الأعراف عــلى عشرة أقوال بل أكثر .

والذي ذهب إليه جمهور كثير من الصحابة والتابعين هو أنهم

طائفة من الموحِّدين قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار • وذلك بأن استوت حسناتهم وسيئاتهم •

واستدلوا على ذلك بما رواه البيهقي عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يُجمَعُ الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنة الى الجنة ويؤمر بأهل النار الى النار ثم يقال لأصحاب الأعراف : ما تنتظرون فيقولون : ننتظر أمرك • فيقال لهم: إن حسناتكم تجاوزت بكم النار أن تدخلوها وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوا الجنة بمغفرتي ورحمتي »(١) •

وقال بعض العلماء : أصحاب الأعراف قوم قُتلوا في سبيل الله وهم عاصون لآبائهم واستدلوا على ذلك بما رواه سعيد بن منصور وابن جرير ، وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ والبيهقي وغيرهم عن عبد الرحمن المزني قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم قتلوا في سبيل الله في معصية آبائهم فمنعهم من النار قتلهم في سبيل الله ومنعهم من الجنة معصية آبائهم »(٢) •

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد أنه قال : أصحاب الأعراف هم قوم صالحون فقهاء علماء •

وقال العلامة القرطبي في تفسيره:وقيل هم الشهداء ذكره المهدوي وقال القشيري : وقيل هم فضلاء المؤمنين والشهداء فرغوا من شغل أنفسهم وتفرَّغوا لمطالعة حال الناس • ا هـ •

وهنا لك أقوال أخرى في تعيين أصحاب الأعراف وأرجح الاقوال

---

(١) وروى أبو الشيخ وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم نحو هذا كما في الدر المنثور وغيره •

(٢) وقد روى نحو هـذا عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عباس مرفوعاً كما في الدر المنثور وغيره •

كما قال العلامة القرطبي : هو القول الأول وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فيقومون مدة على الأعراف ثم يؤمر بهم الى الجنة .

قال العلامة الآلوسي: وجمع بعضهم ـ أي بعض العلماء المحققين ـ بين تلك الاقوال بأنه يجوز أن يجلس الجميع ممن ورد فيهم أنهم أصحاب الأعراف ـ هناك مع تفاوت مراتبهم . اهـ .

قال عبد الله : وهذا القول بالجمع مبني على أن الأعراف جمع عُرف فهناك عدة شرفات مرتفعة ، وأماكن عالية مطلّعة وعلى كل واحدة منها قوم من الذين ورد فيهم أنهم أصحاب الأعراف ولكنهم على مراتب متعددة متفاوتة ولكل مرتبة أحكامها وخصائصها والله تعالى أعلم بحقيقة ما هنالك .

قال تعالى : « وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم » .

أي يعرفون كلاً من أصحاب الجنة وأصحاب النار بعلامتهم التي خصّهم الله تعالى بها وميّزهم عن غيرهم بها،وهي بياض الوجوه وحسنها ونضارتها في أهل الجنة ، وسواد الوجوه وقبحها وظلمتها في أهل النار الى غير ذلك من معرفة حيّز هؤلاء وحيّز هؤلاء ، وقوّاد هؤلاء الى الجنة وقوّاد هؤلاء الى النار .

« ونادَوا أصحابَ الجنة أن سلام عليكم » أي نادى رجال الأعراف أصحابَ الجنة حين رأوهم وعرفوهم أن سلامٌ عليكم ـ على طريق الدعاء والتحية لهم أو على طريق الإخبار بنجاتهم من العقوبات والمكاره .

« لم يدخلوها وهم يطمعون » وقد ذكر كثير من علماء التفسير أن جملة لم يدخلوها حالٌ من فاعل نادوا أو من مفعوله . فتدبّر الآية تعقل المعنى .

وقد عدَّ بعض العلماء المحققين من مواقف الآخرة موقفاً آخر هو موقف الأعراف ، فقال :

الخامس الأعراف ، وأما الاعراف فسور بين الجنة والنار باطنه فيه الرحمة وهو ما يلي الجنة منه ، وظاهره من قبله العذاب وهو ما يلي النار منه يكون عليه من تساوت كفتّتا ميزانه فهم ينظرون الى النار وينظرون الى الجنة ومالهم رجحان بما يدخلهم أحد الدارين . فإذا دعوا الى السجود وهو الذي يبقى يوم القيامة من التكليف فيسجدون فيرجح ميزان حسناتهم فيدخلون الجنة . وقد كانوا ينظرون الى النار بما لهم من السيئات ، وينظرون الى الجنة بما لهم من الحسنات ويرون رحمة الله فيطمعون . ا هـ . أي في كرم الله تعالى ورحمته .

وقد تلا الحسن البصري رضي الله عنه قوله تعالى : « لم يدخلوها وهم يطمعون » فقال : والله ما جعل الله تعالى ذلك الطمع في قلوبهم الا لكرامة يريدها بهم سبحانه . ا هـ .

وروى الامام أحمد في الزهد عن قتادة أن سالماً مولى أبي حذيفة رضي الله عنه كان يقول : وددتُ أني بمنزلة أصحاب الأعراف . ا هـ . أي من الذين لم تغلب سيئاتهم حسناتهم بل استوت حسناتهم وسيئاتهم حتى تشمله مغفرة الله تعالى ورحمته ويحقق الله تعالى له ما يطمع فيه وهو دخول الجنة .

وقد تقدم حديث حذيفة عن أصحاب الأعراف وان الله تعالى يقول لهم : « ادخلوا الجنة بمغفرتي ورحمتي » . وهذا الكلام من سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه يدل على إشفاقه من عذاب الله تعالى الذي هو غير مأمون فهو من جملة الذين وصفهم الله تعالى بقوله : « والذين يصدّقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون » .

فسالم مولى أبي حذيفة يودّ أن ينجو من عذاب الله تعالى ولو كان من أهل الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم لأن مصيرهم الى الجنة . وهذا شأن المشفقين من عذاب الله تعالى ولما كان هذا وصفهم أمّنهم الله تعالى يوم القيامة ووقاهم عـذاب الجحيم قال الله تعالى : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا إنا كنا قبلُ في أهلنـا مشفقين . فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البرّ الرحيم » .

روى ابن أبي شيبة وابن المنـذر وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أنها قرأت هذه الآية « فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السَموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البرّ الرحيم » . فقالت : اللهمّ مُنّ علينا وقنا عذاب السَموم إنك أنت البرّ الرحيم . اللهم آمين . قال عبد الله : اللهم آمين .

ومن المعلوم أن سالماً مولى أبي حذيفة هو صحابي جليل كما قال في الإصابة : هو أحد السابقين الأولين وهو من الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذوا القرآن عن أربعة : ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل » . كما في الصحيحين وغيرهما .

وروى الامام أحمد وابن ماجه والحاكم من طرق متعددة عن ابن سابط أن عائشة رضي الله عنها احتبستْ على النبي صلى الله عليه وسلم (أي تأخرت وهي في المسجد) فقال صلى الله عليه وسلم : ما حبسك ؟ قالت : سمعت قارئاً يقرأ فذكـرتْ من حسن قراءته . فأخـذ النبي صلى الله عليه وسلم رداءه وخرج ـ الى المسجد ـ فإذا هو سالم مولى أبي حذيفـة فقال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذي جعـل في أمتي مثلك » .

وروى البزار بسند رجاله ثقات أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع سالماً مولى أبي حذيفة يقرأ من الليل فقال : الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله » .

وقال في الإصابة أيضاً : وروى ابن المبارك في كتاب الجهاد أن لواء المهاجرين كان مع سالم فقيل له في ذلك . فقال : بئس حامل القرآن أنا — يعني إن فررت — فقطعت يمينه فأخذه بيساره فقطعت فاعتنقه — أي أخذ اللواء بعنقه — الى أن صرع — أي قتل — . رضي الله عنه .

هذا وإنني قد ذكرت في هذا الكتاب ما اشتهر من عوالم الآخرة ومواقفها ولم ألتزم ذكرها مرتبةً ترتيباً عامّاً وإنما ذكرتها مرتبة من حيث الجملة . وأما البحث في عالم الجنة وعالم النار وأنواع نعيم الجنة، وألوان عذاب النار ، وحال أهل الجنة وحال أهل النار ، ودرجات أهل الجنة ، ودركات أهل النار ، فإن الكلام على ذلك ذيله طويل وله شرح وتفصيل . وسوف يأتي في مصنف آخر بعد هذا إنشاء الله تعالى.

وانني أسأل الله تعالى القريب المجيب متوجهاً إليه بوجاهة وجه الحبيب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يجعل جميع كتبي منار هَدْيٍ محمديّ ، ومرآة نور أحمديّ ، تستنير بها العقول والضمائر، والابصار والبصائر ، وتحيا بها الارواح والسرائر .

وصلى الله العظيم على سيدنا وسندنا ، وروح أرواحنا ، وشرفنا وفخرنا — محمدٍ المحمود في الأولين والآخرين ، وأحمد الحامدين لربِّ العالمين ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين عدد ما وسعه علم الله العظيم آمين . وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

تم الكتاب في ٣٠ رمضان المبارك سنة ١٣٩٧ هـ

الفهرس

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
١٣٢	المدة بين النفختين •
١٣٤	ماء الحياة الذي يصيب عَجْب الذنب ، فيجتمع جسمه المتفرق ثم تتلبسه روحه •
١٣٥	البحث في الصور والنافخ فيه بأمر الله تعالى •
١٣٧	عالم الحشر، معناه، وترتيب مراحل مصير الجبال يوم القيامة•
١٣٨	أول من تنشق عنه الارض هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.
١٤٠	صفة أرض الحشر ، وتفسير « يوم تبدَّل الأرضُ غير الارض والسموات » •
١٤٤	صفات أهل المحشر ، وفيه : أن سيدنا ابراهيم أول من يكسى، ولماذا ؟ وأما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيحشر كاسياً •
١٤٧	أهوال الحشر وكرباته الشديدة،وبعض أحاديث دالة على ذلك•
١٥١	شدة الحشر على أهل الموقف إلا من أظله الله تعالى بظله •
١٥٢	ذكر عشرة خصال موجبة لإظلال الله تعالى لأصحابها •
١٥٦	طول الموقف يوم القيامة ، وأن ذلك يختلف باختلاف الناس•
١٥٨	عموم الحشر للثقلين والزمان والمكان والحيوان والطيور ، وذكر الدليل على كل واحد منها •
١٦٢	حشر كلٍّ مع محبوبه •
١٦٤	لواء الحمد ، وانضواء جميع الانبياء وأممهم تحته •
١٦٦	عالم الحوض ، وأن الحوض في أرض المحشر ، وأن مدده من نهر الكوثر في الجنة •
١٦٩	سعة حوض النبي صلى الله عليه وسلم وكثرة آنيته •••
١٧١	رسول الله صلى الله عليه وسلم على حوضه ينتظر الواردين • جعلنا الله تعالى من المقبولين •

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع
٣٦٨	مقام رفيع في الجنة يناله من يعفو عن أخيه المؤمن •
٣٧١	القصاص بين الحيوانات ، وبيان ضرورة الرفق بالحيوان •
٣٧٤	عظم حقوق العباد ، وخطر أمرها يوم القيامة ، والكلام على حقوق الدماء •
٣٧٦	حقوق الأموال •
٣٧٧	حقوق الاعراض ، وتنبيه عام على ضرورة احترام حقوق المسلمين •
٣٨٢	عالم الصراط ، وتعريف الصراط لغة وعرفاً •
٣٨٣	الكلام بإسهاب على قوله تعالى « وإن منكم إلا واردها » وأن الورود : الدخول ، ودخول كل إنسان بحسبه •
٣٨٦	الكلام على قوله تعالى « ثم ننجي الذين اتقوا » وبيان معنى التقوى ، ومراتبها •
٣٨٧	الحِكَم في ورود المؤمنين النار •
٣٨٨	الكلام على قوله تعالى « كان على ربك حتماً مقضياً » وأن الله تعالى قد يحتم على نفسه بعض الأمور •
٣٩٠	مما أوجبه الله تعالى على نفسه بيان « قصد السبيل » •
٣٩٤	صفة الصراط •
٣٩٦	أحوال العباد في جوازهم الصراط •
٣٩٨	بيان حال المؤمنين عليه ، وتفسير « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم ••• » •
٣٩٩	بيان حال المنافقين عليه وتفسير « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا ••• » •
٤٠١	الأمر بالتوبة من كافة الذنوب لئلا تخدش الذنوب صاحبها على الصراط ، وتفسير « توبوا الى الله توبة نصوحاً •• » •

كتب للمؤلف

☆ الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها ـ الطبعة الثانية.

☆ الإيمان بالملائكة عليهم السلام؛ ومعه بحث مختصر حول عالم الجن ـ الطبعة الثالثة.

☆ تلاوة القرآن المجيد ـ الطبعة الرابعة مزيدة زيادات هامّة.

☆ الدعاء: فضائله، آدابه، ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات ـ الطبعة الأولىٰ.

☆ سيدنا محمد رسول الله ﷺ: شمائله الحميدة، خصاله المجيدة ـ الطبعة الرابعة.

☆ شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث ـ الطبعة الخامسة.

☆ صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال ـ الطبعة الأولى.

☆ الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها، فضائلها، فوائدها ـ الطبعة الأولى.

☆ الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدين، فضائلها، آثارها، آدابها ـ الطبعة الثالثة.

☆ شهادة: لا إله إلا الله محمد رسول الله: فضائلها، معانيها، شواهدها ومشاهدها، مطالبها ـ الطبعة الأولى.

وكلها تطلب من: مكتبة دار الفلاح ـ حلب ـ أقيول أمام جامع أسامة بن زيد